



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي

تخصص : أدب مقارن

المشروع الكولونيالي الجزائري في الأدب الفرنسي في بداية القرن العشرين : أعمال لوي برتران نموذجاً

تحت إشراف :

أ. د : وحيد بن بوعزيز

من إعداد الطالب :

خالد عثمانين

السنة الجامعية

2021 / 2020

شكر وتقدير

الشكر لله أولاً أن أوفقنا لإخراج هذا العمل، ثم للأستاذ المشرف الذي وجهنا في اختيار موضوعه – فقد كان الاشتغال على لوي برتران فكرته- وفي العمل عليه، توجيهها قيماً وموفقاً، ثم لكل من ساعدنا من قريب أو من بعيد خلال بحث شاق عن مصادره القديمة والنادرة.

إهداء

إلى والديّ، وزوجتي وبناتي ...

مقدمة

عندما نريد فهم الحاضر والواقع المعاش وتفسيره، يعتبر الرجوع إلى الماضي واحدة من الاستراتيجيات المهمة والفعالة، أهمية لا تكمن في أن ما حدث فعلاً وكيف حدث ليس دائماً محل اتفاق فحسب، بل في تساؤل هو أهم من ذلك : وهو عن ما إذا كان ما حدث قد مضى ومات ودفن، أم أنه لا يزال متواصلاً ولم يغير سوى صورته أو شكله الخارجي. يزداد هذا التساؤل حضوراً وتأكيداً إذا تكلمنا عن حقبة من التاريخ تحددت فيها -تحت مظلة الاستعمار- مصائر شعوب عديدة. وهو أهم وأكد إذا ما كان الكلام عن بلد لبث فيه الاستعمار أكثر من مائة وثلاثين سنة، واستعمل خلالها من أساليب القمع المادي والمعنوي أكثر من ذلك العدد، مخلفاً جراحاً تحتاج إلى زمن أطول بكثير لتندمل، ونزاعات لا تزال تبتعد عن التسوية.

مع أن زمن الاستعمار العسكري المباشر بوسائله القمعية المعروفة قد ولى، فإن الملاحظة تجعلنا اليوم نتفق في الشرق وفي الغرب على أن تلك الفترة، فترة الإمبريالية الكلاسيكية العظمى بتعبير إدوارد سعيد، لا تزال تمارس تأثيراً كبيراً في حياتنا. إذا كان هذا التأثير واضحاً على مستوى السياسات الدولية التي تنتهجها القوى العظمى والقوانين الاقتصادية التي تسنها، إذ يتم ذلك عن طريق تشكيلات سياسية وأحلاف عسكرية ومنظمات يسهل التعرف عليها، فإن آلياته المشتغلة على المستوى الثقافي أو الإيديولوجي يبقى الجزء الأكبر منها خفياً.

تنتج هذه الآليات الخطاب الذي نراه اليوم ونقرؤه في وسائل الإعلام والتواصل الغربية وفي الكثير من الكتابات الأدبية والعلمية أو التعليمية، أو تلك التي تخدمها في عالمنا العربي والإسلامي عموماً، خطاب العنصرية والكراهية والتشويه تجاه الآخر -المسلم خاصة- والتحذير من خطره الداهم. نتج عن هذا الخطاب توجه سياسات الدول الغربية نحو التطرف والقمع، وصعود الأحزاب السياسية اليمينية واليمينية المتطرفة إلى الواجهة، تدعمها قاعدة اجتماعية يزداد حجمها يوماً بعد يوم.

تبحث هذه السياسات والسلوكيات النابعة منها باستمرار عن المسوغات، أي عن الحجج التي تعطيها الغطاء الشرعي، تماما بنفس الطريقة التي بحث بها الاستعمار عن المبررات لجعل من استنزاف خيرات الأرض واستغلال شعبها بالقوة أمرا مشروعاً، وعملية طبيعية. لا يشترك الاستعمار القديم والاستعمار الحديث في عملية التبرير فقط، التي نسميها الكولونيالية، بل إن أغلب الحجج التي يقدمانها هي نفسها، لا تكاد تجد فكرة في الخطاب المتطرف اليوم إلا ولها أصل في الخطاب الكولونيالي الأول.

الصراع الكولونيالي بين المستعمر والمستعمَر إذن لا يزال دائراً إلى اليوم، فالأول لم يسترجع -باسترجاع السيادة على الأرض- السيطرة الكاملة على كل مقدراته، سواء المادية أو المعنوية، والكلشيهات التي تُثبت فيها صورته في الفترة الاستعمارية لا زالت إلى اليوم تشتغل في الذهن الغربي، بل وفي الذهن الشرقي أيضاً، ليبقى المسيطر مسيطراً والخاضع خاضعاً. والثاني لم يتوقف عن التدخل بطريقة أو بأخرى في شؤون مستعمراته السابقة بشكل يضمن له مواصلة الاستغلال والاستنزاف.

لن نجد في التاريخ مثالا أبلغ على صراع الحاضر وصراع الذاكرة، ولا أوضح في آلياته من المثال الجزائري-الفرنسي : استعمار دام قرناً ونصف القرن عاشت تحت نيره أجيال، مدة تسنى فيها للمستعمر استخدام كل الأجهزة القمعية والإيديولوجية، وسياسة استيطانية فريدة من نوعها غيرت الخريطة الديموغرافية للبلد وتركت آثاراً بليغة على هوية أهله وصراعاً كبيراً بينهم.

ولهذا اخترنا أن نتناول هذا النموذج الثري، من الناحية العلمية، ومن الناحية الذاتية لأنه تاريخنا وهويتنا، متبعين الاستراتيجية المذكورة، العودة إلى الماضي لفهم الحاضر، أو استنطاق التاريخ من أجل الحكم على الواقع واستشراف المستقبل. ولن يكون هذا الاستنطاق سياسياً ولا اجتماعياً، وإن كنا سنستعين ببعض ما تمنحه لنا استنتاجات العلوم السياسية والاجتماعية، بل سيكون ثقافياً، وبالتحديد أدبياً روائياً.

تظهر في هذا المجال أيضا، مجال الأدب، خصوصية الحالة الجزائرية، وهي ظهور تيارات أو مدارس أدبية من المستعمرة ومن أجلها، انتهى بها المطاف حتى إلى المطالبة بالاستقلال عن البلد الأم، وعملت على الاستقلال الثقافي والهوياتي جنبا إلى جنب مع المؤسسات الإدارية التي طالبت بالاستقلال السياسي والاقتصادي في تسيير المستعمرة.

التيار الذي أرسى قواعد الأدب الاستعماري أو بالأحرى الكولونيالي، سماه أصحابه الجزائرية *Algérianisme*¹، مصطلح نُحت من جذر لغوي هو عبارة عن اسم علم موجود *Algérie / Algéria*، أضيف إليه اللاحق *iste*، الذي يدل في اللغة الفرنسية على الانتساب إلى تيار أو مدرسة أو فكر وما إلى ذلك، أو تبنيّه والنضال لأجله. هو نفس اللاحق الذي نجده في كلمة *colonialisme*، ليخصص معنى الاستعمار في جانبه الفكري المعنوي ويبقى مصطلح استعمار *colonisation* دالا على الجانب المادي العسكري أو على الجانبين معا أو مقابلا لكلمة استيطان، ولهذا نميز على غرار الكثير من الباحثين، بين استعمار وكولونيالية.

ظهر مصطلح جزائرية في البداية في مجال السياسة، فبعد أن استقر الكثير من المعمّرين في الجزائر، واستثمروا في الأرض التي غصبت من أهلها ومنحت لهم بمقتضى

¹ - لقد وجدنا إشكالا في ترجمة الكلمة الفرنسية *algérianisme* سببه الرئيس اختلاف قواعد و طرق الاشتقاق في ما بين اللغتين العربية و الفرنسية. أولا الكلمة مشتقة من اسم علم (الجزائر) وهو جامد لا يقبل التغيير أو الاشتقاق سوى ربما إضافة ياء أو ضمير في آخره . ثم إن اللغة العربية ليس فيها ما يسمى في الفرنسية اللواحق (*les affixes*)، حيث يمكن بإضافتها في أول أو آخر الكلمة فتؤدي معنى معيناً. ومن بين تلك اللواحق *isme* الذي إذا أضيف إلى الكلمة صارت اسماً لمذهب أو مدرسة أو اتجاه فكري أو سياسي أو اقتصادي ... إلخ. وللتعبير عن معتق المذهب أو الفكرة ... نضيف اللاحق *iste*. وكان من بين الخيارات المتاحة في الترجمة كلمة *جزيرة* وهناك من يقول *المتجزرون*، لكنها - بالإضافة إلى غرابتها - استعملت في سياق معين فتجنبنا خشية أن يختلط الأمر أو يؤول المصطلح تأويلاً يخرجنا عن سياقنا. وقع الاختيار في النهاية على كلمة *جزائرية* التي بدت لنا أقرب الاحتمالات القليلة الموجودة، ومن هذه الاحتمالات وجدنا من يقول *الجزائريانية* بإضافة الياء المشددة لكننا عدلنا عنها لأن النسبة في الفرنسية هي إلى البلد الجزائر *Algérie* وليس إلى ساكنها الجزائري *Algérien*.

قرارات وقوانين أقل ما يقال أنها جائرة، نمت ثرواتهم واتسعت نشاطاتهم الاقتصادية، وهذا ما منحهم قوة وتأثيرا على أصحاب القرار في المستعمرة، بل وفي باريس كذلك.

هذه الأخيرة لم تكن سياساتها تسير دائما في نفس الاتجاه مع مصالح المعمرين، فكانوا يواجهونها بالرفض ويضغطون لتغيير القرارات والقوانين، ولتغيير الأشخاص، وبدأ صراع بينهم وبين باريس على منح المستعمرة تمثيلا برلمانيا خاصا بها وحرية في تسير ميزانياتها، وحرية في التصرف في الشؤون الداخلية، خاصة الأمنية. وهذا هو التيار السياسي الذي وصف بالجزائري.

تكوّن في إطار هذا الاستقرار ثم الاستقلال النسبي للمستعمرة، مجتمع جديد من أبناء المعمرين -الفرنسيين وغيرهم كما سنفصل لاحقا- ولدوا في الجزائر ولا يشعرون بالانتماء إلا إليها، ولا يشتركون مع فرنسي الميتروبول إلا في الراية واللغة. ولما رأى المثقفون من أبناء هذا المجتمع الجديد أن فرنسا وثقافتها وأدبها لا يعبر عن هويتهم، ولا عن انتماهم ولا عن همومهم ومشاعرهم، أسسوا لهم أدبا تحت شعار "جزائريون نحن" *Algériens nous sommes*.

هذه هي المدرسة الجزائرية في الأدب الكولونيالي الفرنسي، وهذا هو تفسير العنوان الذي أعطيناه لهذه الأطروحة، لكننا لن نتوقف عند الجزائرية وأدبائها ومبادئها، بل سنعود إلى أصل كل ذلك، أي إلى ظهور فكرة كتابة أدب عن المستعمرة من المستعمرة ذاتها، وإلى الأصول الإيديولوجية للمبادئ التي تبنتها هذه المدرسة. كل هذا سنجده مجسدا في شخصية كاتب وفي مشروع كرس له عمره وكل أعماله التي تنوعت، من روايات وسير، إلى رسائل ومقالات، إلى كتب تاريخية ونقدية.

كاتب فرنسي من منطقة اللورين، شمال شرق فرنسا، يدعى **لوي برتران** Louis BERTRAND، زار الجزائر ومكث فيها عشرة أعوام مشغلا بالتدريس، وسائحا كلما

أُتيحت له الفرصة في هذا البلد مترامي الأطراف، تفاصيل حياة مثيرة سنعرضها في ثنايا بحثنا. يمثل هذا الكاتب، الذي لا نسمع عنه كثيرا، نقطة تحول في الأدب المتعلق بالجزائر المستعمرة.

لقد أحدث برتران القطيعة مع التيار الرومانتيكي بأدبه الغرائبي Exotique، ورحلاته العجائبية Fantastique، وأدخل الأدب الفرنسي في مرحلة جديدة، خاصة من ناحية الموضوع، فنزل بالقارئ من عوالم ألف ليلة وليلة الخيالية، إلى عالم الحقيقة، عالم العمل والنشاط والطاقة، عالم أبطاله شباب المجتمع الجديد، أو الشعب الجديد أو العرق الجديد بتعبير برتران، الذين لا تتعدى إنجازاتهم كونهم يعيشون الحياة بكل ما أوتوا من قوة، لكن الحضارة تبني بهذه الطريقة، وهو ما غفلت عنه فرنسا المتفلسفة الخاملة.

لما انتشر التيار الجزائري في المستعمرة، وعاش عصره الذهبي، خاصة في العشرينات من القرن الماضي، كان برتران قد ترك الجزائر، ومع أن أدباء هذا التيار اختلفوا في رؤاهم وفي أساليب الكتابة مبتعدين عن أدب برتران نوعا ما، وربما داعين إلى التحرر من أفكاره، إلا أنهم في العمق يدينون له بالكثير -شكلا ومضمونا- ويجمعون على الاعتراف له بفضل التأسيس، فهو ليس جزائريا بالمعنى الحرفي بل أب روحي للجزائرية.

هذا هو إذن موضوع أطروحتنا، قراءة في أعمال هذا الرجل، والإنجازات الفكرية التي قدمها للكولونيالية عموما، وللاستعمار في الجزائر خصوصا، وهو يشبه كثيرا في ذلك لافيغري Lavigerie، أول كردينال في شمال إفريقيا، فكلاهما جعل التاريخ والدين في خدمة التوسع الاستعماري.

قراءة فرضت علينا طبيعة الموضوع أن نركز فيها على الجانب الفكري، الإيديولوجي بعبارة أدق، انطلاقا من نظرة إدوارد سعيد في الثقافة والإمبريالية، التي تجعل

الأدب -النص الروائي خاصة- محلا للصراع الكولونيالي وتعبيراً عن إرادة الهيمنة الإمبريالية، وجزءاً من آلتها الثقافية التي لازالت تشتغل إلى اليوم.

فطرحنا من هذا المنطلق التساؤلات التالية : ما هي أصول وطبيعة الفكر البرتراندي الذي ألهم الجزائرية ؟ كيف تجلت فكرة العرق الجديد، وكيف عبر عنها لوي برتران وورثها لمن بعده ؟ كيف أثرت هذه الفكرة في المشهد العام خلال الفترة التي ظهرت فيها و فيما بعد، وصولاً إلى وقتنا الحالي ؟ ما هي خصائص أدب برتران وما هي مكانته في الأدب الكولونيالي وتأثيره فيه ؟ هل اختفت الكتابة على الطريقة البرتراندية الجزائرية تماماً أم أن ظلالها - عبر الصور النمطية التي أنتجت مثلاً - لازالت ممتدة على بعض ما يكتب اليوم، وإلى أي مدى ؟ كيف أثرت الحركة الجزائرية وتأثرت بالسياسة ؟ هل خدم هذا الفكر الميتروبول أم أنه كان بدا وادّعى عدواً لها ؟

تهدف الدراسة إلى محاولة إيجاد أجوبة لهذه التساؤلات، مقترحين لذلك الفرضيات التالية :

1. على الرغم مما ادّعته فيما يخص الجزائر والهوية الجزائرية التي تشمل كل من يعيش على أرض هذا الوطن بما فيهم العرب المسلمون، فإن الجزائرية صورة من صور الإمبريالية والخطاب الكولونيالي الخادم لها.
2. حاول هذا المنهج الفكري والأدبي أن ينزع من الشرق شرقيته وأن يمتلكه كحق مغتصب، خلافاً للمنهج الكولونيالي والاستشراقي التقليدي الذي كان يعمل على تشويه صورة هذا الشرق ليبرر استعمارهم. لكن المنهجين وجهان لعملة واحدة، لأن الغاية واحدة وهي نفس تعريف الإمبريالية.
3. إن ظاهر العلاقة بين الجزائريين وباريس عبارة عن صراع، لكن ما اختلف سياسياً قد يتفق استراتيجياً.

4. لقد حاز برتران على كرسي في الأكاديمية الفرنسية استحقه لا بعمله ومجهوداته فحسب، بل بما أسداه من خدمات فكرية للخطاب الكولونيالي.

5. لا تزال أنماط صنعها الأدب الجزائري متداولة كمادة وصفية في بعض الكتابات المعاصرة، وكحجج لمن لا زالوا من الفرنسيين يطالبون بحقهم في الوطن الجزائر. لا يزال هؤلاء ينشطون في دوائر فكرية وأدبية وجمعيات إلى يومنا هذا.

6. لم يكن لوي برتران أبا روحيا للأدب الجزائري فحسب بل كان متحدثا باسم طبقة اجتماعية برمتها، وأبا روحيا لفكر عنصري لا زال حيًا ومؤثرا على السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية.

ومن أجل التحقق من صحة هذه الفرضيات، كان علينا العودة في البداية إلى تاريخ الفكر الفرنسي من عصر النهضة إلى ما قبل الاستعمار، لفهم التسلسل الذي أدى إلى ظهور النظريات العنصرية وشرعنة الاستعمار، وهي الخلفية التي رسم عليها برتران لوحاته. وأهم الكتب التي عدنا إليها في هذا الجانب النظري، بعد كتب الفلاسفة الفرنسيين، من مونتاني MONTAIGNE وباسكال PASCAL إلى غوبينو GOBINEAU ورينان RENAN، كتاب تزفيتان تودوروف Tzvetan TODOROV نحن والآخرون : التفكير الفرنسي حول التنوع، وكتاب جاك إلادان Jacques ELADAN صدام أو حوار الثقافات في الأدب الفرنسي وفي الوعي اليهودي.

أما الجانب التطبيقي فقد عدنا فيه أولا إلى الأعمال التي عرضت مفهوم الإيديولوجيا وطرق الوصول إلى دراستها ووصفها، وهي مفصلة في المدخل الذي خصصناه لها. ثم إلى الأعمال التي درست الإيديولوجيا في الأدب الكولونيالي، معتمدة خاصة على نظرية لوي ألتوسير Louis ALTUSSE، على رأسها العمل الجماعي الذي نشر تحت إدارة جون روبير هنري Jean ROBERT HENRY وزوجته لورسري LORCERIE في مجلة العلوم الاقتصادية والسياسية.

بالإضافة إلى اعتمادنا على بعض إنجازات علم الاجتماع وعلم النفس، خاصة الدراسات التي بنت استنتاجاتها على دراسة المجتمع الاستعماري في شمال إفريقيا، وفي الجزائر خاصة. منها سيكولوجيا الجماهير للويون LE BON، وسوسيولوجيا الجزائر لبوردو BOURDIEU، بورترية المستعمر والمستعمر لميمي MEMMI، فرنسيو الجزائر لنورا NORA ومثله لمانوني MANNONI، وأعمال ستورا STORA التي تربط الماضي بالحاضر. والباقي محال إليه في موضعه.

لقد سبقنا بعض الباحثين إلى تناول حياة برتران وفكره وأعماله، ولكن عدد الدراسات في الموضوع يبقى قليلا، أغلبها باللغة الفرنسية، وليست دراسات حديثة :

كانت أهم دراسة بالنسبة لنا وقد اعتمدنا عليها في عدة مواضع من أطروحتنا، هي دراسة رابح بلعمري التي صدرت سنة 1980 عن ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) تحت عنوان أعمال لوي برتران، مرآة اليديولوجيا الاستعمارية.

وقد ذكر بلعمري في مقدمة هذا الكتاب دراسات أخرى أقدمها قصص لوي برتران الإفريقية : مرحلة نهضة الطاقة الوطنية في فرنسا The African novels of Louis Bertrand : A phase of the renaissance of national energy in France ، لدافيد كلارك كابين David Clark CABEEN، اطلعنا عليها بالإنجليزية، وهي رسالة من مائة صفحة نوقشت سنة 1922 بجامعة فيلادلفيا، يضع صاحبها أعمال برتران في خانة التيار العقدي لإعادة البعث الوطني ويجعل منه مؤسس الوطنية الإمبريالية الفرنسية.

العمل ثاني هو دراسة نشرت في مونترال باسم الأخت جوزيف ماري كوزان Soeur Joseph Marie COUSIN بعنوان الشعور المسيحي في أعمال لوي برتران Le sentiment chrétien dans l'œuvre de Louis Bertrand ، طرحت المؤلفة من خلالها

مسألة تصور لوي برتران للكاتوليكية بروح الحروب الصليبية، وسموها على غيرها من الاعتقادات.

ثم كتاب لوي برتران الإفريقي Louis Bertrand l'Africain وهو أهم الدراسات التي عنيت بأعمال برتران وحياته، فيما يشبه السيرة. مؤلفها مورييس ريكور Maurice RICORD تلميذ برتران الوفي الذي ورث عنه مكتبته وفكره، وحتى روحه، حيث يمجّد الاستعمار المنتج للثروات الجديدة، البشرية والمادية. ويركز في تحليله على العلاقة الوطيدة بين برتران وقلوبير، في رغبته بالشمس ومسيرته العاطفية و"العدمية" في الالتزام الأخلاقي باسم العقيدة، باسم الوطن وباسم اللاتينية. ويعتبر ريكور أستاذه نبيا محبا لشعبه.

أما أحدث الدراسات مما أنجز قبل بلعمري فهي اللورين وإفريقيا في أعمال لوي برتران Lorraine et Afrique dans l'œuvre de Louis Bertrand ، المنشورة بمدينة نانسي سنة 1966، لمؤلفتها أوديل هوسون Odile HUSSON. وهي دراسة تربط بطريقة آلية بين الأصول اللورينية والرؤية الإفريقية. بالنسبة للكاتبة، اكتشف برتران في الجزائر الشمس والفيض الإنساني الذي حرم منه في اللورين "الكئيبة"، غير أنه وجد في الاستعماريين خصال أهل اللورين : حب العمل، روح التقاليد، الوطن والعائلة وخاصة حس العدا. وقد اقتصر تحليلها على هذا الجانب من حياة برتران.

وما عدا ذلك فهو عبارة عن مقالات تناولت جانبا واحدا من أعمال برتران، التاريخ اللاتيني والآثار الرومانية. مثل مقال إحياء الآثار : الأركيولوجيا في إفريقيا لوي برتران اللاتينية، لدريدي هادي DRIDI Hédi وميزولاني أندريوز أنتونيلا Mezzolani Andreose Antonella، أو مقال : طريق العودة ؟ نموذج الحمار الذهبي في أسطورة الجزائر اللاتينية عند لوي برتران، لكارول بوادان BOIDIN Carole، أو مقال كهينة مازاري :

خرافة اللاتينية في الجزائر الاستعمارية وما بعد الاستعمارية، لوي برتران (1856-1941) وخلفه.

وقد وجدنا في جامعة الجزائر 2 رسالة ماجستير مسجلة بعنوان صورة الجزائري في أدب المتجزئين لويس برتراند أنموذجا، للطالبة أوهاب حكيمة، ولم يتسن لنا الاطلاع عليها.

لقد القلة التي استتجناها في الدراسات حول الموضوع أبرز أسباب اختيارنا له، لكن قبل هذا كانت توجيه الأستاذ المشرف الذي كان في محله تماما، وبعد الانطلاق في التعرف على الموضوع حفزنا أكثر أمران : أولهما تغييب برتران من الدراسات المعاصرة مع أنه كان حاضرا بقوة في الساحة الأدبية والسياسية في الجزائر المستعمرة، في الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر 1898 وبداية الحرب العالمية الثانية.

والأمر الثاني، أن بعض الفرانكفونيين الذين ناقشناهم في الموضوع حاولوا التقليل من قيمته، وجعلنا ننصرف عنه بحجة أنها كتابات تجاوزها الزمن، وليس في الكلام عنها وعن الأفكار المتطرفة التي تدعو إليها فائدة اليوم. ورأينا نحن عكس ذلك تماما.

أما الصعوبات التي واجهناها في إنجاز هذا العمل، وقد جعلتها الاستفادة خلال محاولة تجاوزها تستحق كل العناء، فأبرزها اثنتان :

الأولى هي قراءة النصوص بلغة فرنسية تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لغة من مستوى آخر أعلى بكثير مما نقرؤه الآن، ثم ترجمة الكثير من المقاطع للاستشهاد بها، خاصة وأن كل المصادر والأغلبية الساحقة من المراجع التي اعتمدنا عليها باللغة الفرنسية، وهذا اقتضته طبيعة الموضوع. غير أن هذا العمل كان مفيدا بقدر ما كان صعبا، من حيث تدعيم وتجديد ما تلقيناه في تكويننا الأساسي باللغة الفرنسية، ومن حيث تنمية مهارة الترجمة لدينا.

أما الثانية فهي صعوبة إيجاد المراجع، بداية بأعمال المؤلف، بحيث قضينا السنوات الثلاث الأولى من العمل في البحث عن المراجع، لكن هذا البحث قادنا إلى أحسن مما أملناه ومنحنا فرصة اللقاء بمتخصصين أجانب في المجال والتعامل معهم. فلم نشرع في جمع المعلومات إلا بعد زيارة معهد الأبحاث المتوسطي للدراسات حول العالم العربي الإسلامي IREMAM بآكس-أون-بروفونس، واللقاء بجون روبير هنري Jean-Robert HENRY، الذي أفادنا بتوجيهاته ودعمنا بالمراجع الأولى التي اعتمدنا عليها.

تسلسل الأفكار في هذه الأطروحة، من العام إلى الخاص، قادنا إلى تقسيم محتواها إلى ستة فصول، يمكن اعتبار الثلاثة الأولى منها رسماً للإطار النظري الذي وضعنا عليه قراءة أعمال برتران في الفصول الثلاثة الأخيرة.

وقبل الشروع في الفصل الأول، رأينا من المناسب أن نضع بين يدي العمل مدخلا عرضنا فيه تصورات ومفاهيم للإيديولوجيا وللنظريات التي صيغت حولها. ثم شرعنا في هذا الفصل تحت عنوان "صورة الآخر في الأدب الفرنسي قبل الجزائر"، عرضنا فيه هذه الصورة كما عرضتها الأدبيات الفرنسية من مونتاني Montaigne إلى رواد النظريات العنصرية في القرن التاسع عشر.

أما الفصل الثاني فقد خصصنا كلامنا عن صورة الآخر الجزائري فقط، على مرحلتين مبينتين في العنوان : "صورة الجزائر في الأدب الفرنسي قبل احتلال الجزائر وبعده". وتتبعنا في الفصل الثالث الأدب الفرنسي الذي عبر البحر المتوسط بعد استقرار الإدارة الاستعمارية، ليبدأ الكتاب في التأليف عن الجزائر من الجزائر ذاتها، تحت عنوان "ميلاد تيار أدبي وفكري جديد في الجزائر المستعمرة".

ولندخل في صلب موضوعنا، وننتقل إلى ما هو أخص في تسلسل تفكيرنا حول الأدب الكولونيالي في الجزائر، خصصنا الفصول الثلاثة المتبقية للوي برتران وأعماله،

وقد قسمنا هذه الأعمال إلى ثلاثة مراحل مرت بها مسيرته الأدبية والفكرية والسياسية. وكانت كل رحلة عنوانا لكل فصل : "مرحلة تشرب العقلية الكولونيالية (1890-1905)", ثم "مرحلة تبلور المشروع والدعوة إليه (1905-1917)", وأخيرا "مرحلة الذروة وتعميم النظرية (1917-1935)".

مدخل في الإيديولوجيا

قبل أن ندخل في صلب موضوعنا، رأينا لزما علينا أن نبين بعض المفاهيم والمصطلحات التي سنعمل عليها، ومن بينها أدوات تحليلية إجرائية سوف نوظفها، لن نأتي منها إلا على التي نعتقد أنها تحتاج إلى بيان وإلى تحديد، إما لعدم وضوحها أو احتمالها للتأويل، وإما لاستعمالاتها المتعددة وتعريفاتها المختلفة من مدرسة لأخرى أو من نظرية لأخرى.

إن المتن الذي نتناوله بالمساءلة، أعمال لوي برتران، "ظاهرة معقدة - كما يصفها جون روبير هنري Jean-Robert Henry - : إيديولوجية وتاريخية وأدبية في آن واحد"². على هذا الترتيب، هي أعمال إيديولوجية بالدرجة الأولى، فتاريخية، ثم أدبية. وقد وصف رابح بلعمري في عنوان كتابه المهم عن لوي برتران هذا الأخير بأنه "مرآة الإيديولوجية الاستعمارية".

أبرز مفهوم سنشتغل عليه إذن هو مفهوم إيديولوجيا، الذي يعني في تصور معاصر له لكنه صار كلاسيكيا، وهو تصور لوي ألتوسير Louis Altusser : "الإيديولوجية نظام (له منطق وصرامة خاصان به) من التمثلات (صور أو أساطير أو أفكار أو تصورات، بحسب الحالة) له وجود ودور تاريخيان في قلب مجتمع معين"³.

قبل أن يصل هذا المصطلح إلى ألتوسير مر بمراحل، استخدم فيها استخدامات عدة وتطور مفهومه من كونه "علما ينظر في الأفكار" إلى ما سنعرض بعضه فيما يأتي، علم الأفكار هو المعنى الحرفي للكلمة الفرنسية المركبة من Idée و logie، إذ ظهر في هذه اللغة في القرن الثامن عشر، عصر الأنوار. وكما تغير معناه من مرحلة إلى أخرى، تغير من ميدان إلى آخر، وضُمّن معاني صار معها غريبا حتى عن اللغة الأصل.

² – HENRY Jean-Robert et F. Henry-Lorcerie, *Roman colonial et Idéologie coloniale en Algérie*, in « Revue algérienne des sciences juridiques, économiques et politiques », Volume XI, n° 1, Alger, Mars 1974, p 9.

³ – Ibid, p 10.

فإذا قلنا مثلا إن الحزب السياسي الفلاني يحمل إيديولوجيا معينة عنينا بها "مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي يريد تحقيقها على المدى القريب والبعيد". أما الحزب الذي ليس له إيديولوجية يعمل لأجلها، فهو بالنسبة لنا "حزب انتهازي، ظرفي لا يهتم سوى استغلال السلطة والنفوذ"⁴. وهذا الاستخدام السياسي للمصطلح. أما إذا كنا في ميدان التاريخ فنقول أن إيديولوجيا "عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر"⁵.

أما المنعرج الكبير الذي مر به مفهوم الإيديولوجيا، وكانت كل التطورات التي طرأت عليه فيما بعد وليومنا هذا مبنية عليه، فهي إما استمرار له أو محاولة تقويم أو نقد له، فهو الماركسية، بداية من الكتاب الذي ألفه كارل ماركس Karl Marx وفريدريك أنجلز Friedrich Engels : الإيديولوجيا الألمانية، الذي نجد في مقدمته الطرح الأساسي للتصور الماركسي للإيديولوجيا :

"اصطنع البشر باستمرار حتى الوقت الحاضر تصورات خاطئة عن أنفسهم وعن ماهيتهم وعما يجب أن يكونوا. ولقد نظموا علاقاتهم وفقا لأفكارهم عن الله، والإنسان العادي، إلخ. ولقد كبرت منتجات عقولهم هذه حتى هيمنت عليهم، فإذا هم الخالقون ينحنون أمام مخلوقاتهم. ألا فلنحررهم إذن من الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخيالية التي يزرعون تحت نيرها"⁶.

الإيديولوجيا إذن عبارة عن تصورات خاطئة يصنعها البشر، يرون من خلالها أنفسهم والعالم المحيط بهم، ويرون من خلالها حاضريهم ومستقبلهم. يبني الإنسان في مرحلة ثانية علاقاته مع غيره ومع الأشياء وفقا لهذه التصورات، التي تتطور وتتراكم مع

⁴ - عبد الله العروي، "مفهوم الإيديولوجيا"، ط 8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 9-10.

⁵ - المرجع نفسه، ص 10.

⁶ - كارل ماركس وفريدريك أنجلز، "الإيديولوجية الألمانية"، ترجمة : فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا، 1976، ص

مرور الوقت، ويتعود عليها حتى ينسى أنه هو صنعها ويرى أنها حقيقة الأشياء، لتصبح هذه التصورات في النهاية هي التي تتحكم في صانعها.

يمكن أن نفهم بناء على هذا الوصف وظيفة نظرية الإيديولوجيا، وهي تحرير الإنسان "من الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخيالية" التي صارت تتحكم فيه بعد أن كان هو من صنعها ونسي ذلك. لكن هذه المهمة لا بد أن تمر بمرحلة التعرف على هذه الأفكار، ثم مرحلة نقدها والحكم عليها من حيث علاقتها بالواقع.

مفهوم الإيديولوجيا إذن مزدوج، كما يصفه عبد الله العروي، فهو وصفي ونقدي في نفس الوقت. "يستلزم دائما مستويين : المستوى الذي تقف عنده الأدلوجة حيث تظن أنها حقيقة مطابقة للواقع وهو المستوى الذي يقف عنده الباحث لوصف تلك الأدلوجة⁷ بوفاء وأمانة، والمستوى الثاني هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الأدلوجة أنها أدلوجة لا تعكس لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح"⁸.

وهذه هي الإضافة التي جاءت بها الماركسية، أن دراسة الإيديولوجيا ليست مجرد تحليل للآليات التي يكون بها الذهن البشري الأفكار، بل محاولة إصلاحية لهذا الذهن بتطهيره وتحريره من الأوهام التي تحول بينه وبين التفكير السليم ورؤية الواقع كما هو. وعن كيفية القيام بذلك يقرر ماركس أن "العلم الحقيقي والإيجابي ينطلق من الحياة الواقعية، من استعراض نشاط الإنسان، وعملية تطور الإنسان المادي"⁹.

⁷ - أراد عبد الله العروي من خلال نحته لهذا المصطلح أن يعرب كلمة إيديولوجيا التي لا تطابق أي وزن عربي، ويدخلها في قالب من قوالب الصرف العربي، فجعلها على وزن أفعولة وصرفها وفقا لقواعد اللغة العربية ليقول : أدلوجة وأدلج أو أدلوجات، وأدلج إدلاجا ودلج تدليجا، وأدلوجي وأدلوجيون. لكننا في بحثنا هذا بقينا على الاستعمال الشائع لكلمة إيديولوجيا.

⁸ - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 12.

⁹ - "الإيديولوجيا الألمانية"، ص 21.

هذا التطور المادي عبارة عن صراع في المجتمع بين طبقات صاعدة وطبقات متداعية، أساسه وسائل الإنتاج، وظفت فيه كل طبقة من الطبقات الأوهام على مر التاريخ، فيربط ماركس بين هذه الأوهام والصراع الطبقي لتصبح الإيديولوجيا "تعني في العرف تلك الأوهام التي يستغلها المتسلطون (الرهبان والنبلاء والأغنياء) ليمنعوا عموم الناس من اكتشاف الحقيقة"¹⁰، ويرتبط مفهومها ارتباطاً عضوياً بمفهوم المجتمع والتاريخ.

هذا هو التصور في أطروحتنا، عودة إلى كتابات أدبية وتاريخية، وإلى حياة مجتمع معين محاولين أن تكشف عن أوهام صنعت في مرحلة تاريخية معينة محاولين أن نفهمها ونحددها، ثم نستنتج آثارها على الوعي في حينها وإلى يومنا هذا. كتابات لوي برتران الإيديولوجية الصرفة، التي صنعت أوهاما استغلها المستعمر، المستوطن خاصة، في تحقيق مصالحه وصرف بها الانتباه عن حقيقته الإجرامية.

بعد أن أرسى ماركس هذه القاعدة، بنا عليها مفكرون بعده رؤاهم، فتحدثوا عن أصل هذه الأوهام وكيفية صناعتها أو تأثيرها. بداية من فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche الذي جعل من الثقافة الغربية برمتها، وعلى مدى ألفي سنة، إيديولوجية بالمعنى الذي ذكرنا. فالقيم التي تغنى بها الإنسان المتحضر، قيم العدل والمساواة والخير والضمير المسؤول، هي من إبداع الإنسان المستضعف المغلوب، الذي لا يفكر سوى في الانتقام من سيده المتسلط عليه.

لم يستفد الإنسان من هذه القيم، بل حدث العكس إذ أن : "الثقافة، منذ بدايتها، حاربت الطبيعة. لم تمنح الإنسان القوة والسرور والنشوة، بل عرقلت فيه زخم الحياة، وملائته حزناً وانكماشاً"¹¹. الحياة تقوم بالنسبة لـنيتشه على الجسم والغرائز، وتسير وفق

¹⁰ - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 33.

¹¹ - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 44.

قانون الاستمرار، أما القيم الأخلاقية والثقافية التي تتشدد بها الحضارة الغربية فلا تعبر إلا عن غل ونقمة ضحايا الحياة.

لا نجد الحياة بهذا المعنى حاضرة بقوة فحسب، في أعمال لوي برتران، الروائية منها خاصة، بل وجدناها تشكل أحد المفاهيم الأساسية لنظريته الكولونيالية، وسيتضح ذلك من خلال تحليلنا لهذه الأعمال، كما سنشير إلى العلاقة بين نيتشه وبرتران في الفصل السادس من عملنا، من خلال مقال كتبه عنه.

لما يطلق نيتشه الحكم على الثقافة الغربية بأنها نابعة من حقد المستضعفين على الحياة، فإنه يجعل من هذا المنبع القاسم المشترك لكل المذاهب والتيارات التي شكلت الثقافة الغربية، من مسيحية وليبرالية واشتراكية، وينتقد كل واحد منها ضاربا إياه بما ينقصه في الآخر، المسيحية بسلاح الليبرالية، والليبرالية بسلاح الاشتراكية، والاشتراكية بسلاح العلم الطبيعي. ولهذا جذبت هذه فلسفة الكثير من مثقفي الغرب إليها مع اختلاف مشاربهم بحيث وجد كل منهم ما يضرب به عدوه :

"يؤول القارئ عدو الكنيسة نقد أوهام الدين بأنه شجب لمؤامرة الرهبان، ويؤول القارئ الاشتراكي حرب الضعفاء والأقوياء بأنها تعبير عن صراع الطبقات، ويؤول القارئ المتشبع بالعلوم الحديثة قانون الحياة بقانون البيولوجية. وحتى رجل الكنيسة نفسه فإنه يرى في هذه الدعوة أقوى دليل على إفلاس العقل البشري وضرورة التوبة إلى رحمة المسيح"¹².

ونقول أن المستعمر يؤول الاستيطان بأنه صراع العاملين الفحول والعرب الكسالى، الذين ليسوا أهلا للحياة على أرض مليئة بالخيرات، ومثلما يجعل برتران كما سيأتي روما مثله الأعلى، فقد مثلت بالنسبة لنيتشه القوة والصحة والسلطان أحسن تمثيل.

¹² - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 47.

القول الثالث من الأقوال التي تحتوي على بنية مشتركة هي أن الأفكار رموز لا تحمل حقيقتها فيها، بل تستر حقيقة باطنية، هو قول **سيغموند فرويد** Sigmund Freud. هذه الحقيقة التي تمثلت عند **ماركس** في مصلحة الطبقة المتسلطة، وفي إرادة الانتقام لدى المستضعفين عند **نيتشه**، سيراهما **فرويد** الرغبة الإنسانية، ويعتبر الأفكار أوهاما تخدعنا بها الرغبة لتصل إلى هدفها :

"يقول **فرويد** إن إنتاجات العقل تبريرات خلقها الإنسان المتمدن لمعارضة دفع الرغبة الجارف ويعلل قوله استنادا إلى طبيعة الإنسان الحيوانية"¹³.

يعود **فرويد** بالإنسان إلى أصله، إلى المجتمع الحيواني، أي إلى القطيع، بحيث لا يمتلك الفرد من زمام نفسه إلا قسما ضئيلا لا يقارن بما يشاركه مع غيره من أبناء مجتمعه (قطيعه)، النفسانية الجموعية المشتركة أقوى تأثيرا بكثير إذن من النفسانية الفردية. وعلى هذا الأساس انبنت التفسيرات الفرويدية لانتشار الدعاية السياسية. عندما يدخل الفرد في حشد تصبح نفسه مسرحا لعمليتين :

"أولا : التماهي مع الآخرين لأن الكل قلق بنفس القدر. وينتج عن التماهي التآخي والشعور بالقوة والتغلب على الوحدة والخوف والقلق.

ثانيا : تشخيص الأنا-الأعلى في القائد. وينتج عن هذه العملية رضوخ إرادي وتخل عن قيود العقل واطراح أعباء المسؤولية"¹⁴.

هذه النظرة بالتحديد نجدها عند **غوستاف لوبون** Gustave Le Bon، في كتاباته مثل : *الآراء والمعتقدات* 1869، أو *روح الاجتماع* 1898، وفي كتابه *سيكولوجية الجماهير* 1895، نجدها بتفصيل أكثر وتحليل أعمق لتحرك الجماهير وطرق ووسائل

¹³ - المرجع نفسه، ص 51.

¹⁴ - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 50.

التأثير والسيطرة عليها، وكذا قوتها المدمرة وقدرتها على تغيير الواقع، ليختم بأنواعها. وقد خص **لوبون** بالحديث في مقاطع من الكتاب الجماهير اللاتينية، وهذا يجعلنا نكاد نجزم بأثره العميق على **برتران**، وبالتالي ضرورة استحضار أفكار هذا الكتاب في قراءته.

يظهر هذا التأثير في مواقف عديدة عند **برتران**، وخاصة في العرض الذي قدمه عن أحداث أزمة اليهود في الجزائر في 1898، كيف تحركت جماهير أوروبيي الجزائر، التي تتجسد فيها خصائص الجماهير النفسية وقدرتها المدمرة كما ذكرها **لوبون** تحت قيادة **كارميلو Carmelo** (في رواية لاسينا)، الشخصية التي يتجسد فيها كل ما قاله **لوبون** أيضا عن قادة الجماهير ووسائلهم الإقناعية. وسنعود إلى هذا في محله.

ما تميزت به هذه الرؤية إلى سيكولوجيا الجماهير هي أنها مزجت الفكرة السابقة التي ذكرناها عن **فرويد**، بالنظريات العنصرية التي كانت رائجة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما سنعرضها في سياق الكلام عن أفكار القرن التاسع عشر. هذا بالإضافة إلى التفصيل في خصائص الجماهير والقوانين النفسية لوحدها الذهنية، وعوامل انتشار عقيدة أو رأي عندها، ووضع في الأخير تصنيفا لأنواع الجماهير.

لا يرجع الفرد وسط الجماعة، بالنسبة **للوبون**، إلى أصله الحيواني، بل يكون له سلوك بشري مختلف عن السلوك الفردي بحيث "يكتسب تكتل بشري خصائص جديدة شديدة الاختلاف عن خصائص كل فرد من الأفراد التي يشكلونه". ما يحدث هو أن "الشخصية الواعية"، تختفي لتترك مكانها "لروح جماعية، عابرة بلا شك، لكن لها خصائص واضحة"، يسميها **لوبون** "جمهورا سيكولوجيا" *une foule psychologique*، وهو كائن واحد خاضع لقانون وحدة الجماهير الذهنية¹⁵.

¹⁵ – LE BON Gustave, *Psychologie des Foules*, coll : les livres qui ont changé le monde, Flammarion, Paris, 2009, p 35-36.

تحدد أسباب متنوعة ظهور الخصائص المميزة للجماهير. أولها شعور بالقوة يختفي معه كلية الشعور بالمسؤولية الذي يكبح الفرد. والسبب الثاني هو ظاهرة العدوى الذهنية، كل شعور وكل فعل هو معد داخل المجموعة، إلى درجة أن الفرد يضحي بمصلحته الفردية في سبيل المصلحة الجماعية، حركة تناقض طبيعته ولا يمكن أن يقوم بها إلا داخل المجموعة.

إن العدوى المذكورة سبب ثان، وهي في نفس الوقت أثر للسبب الثالث المتمثل في القابلية للإيحاءات، بحيث يصبح الفرد بعد أن فقد شخصيته الواعية في حالة تجعله ينقاد لجميع الإيحاءات التي يملئها عليه من أفقده تلك الشخصية، وتجعله يقوم بأكثر الأفعال تناقضا مع طبعه ومع عاداته.

إن خصائص الجماهير وأسباب ظهورها تجعل قدرتها "ضئيلة على التفكير"، لكنها "تؤدي (...) على العكس قدرة هائلة على الفعل"¹⁶. تأتي هذه الخصائص العامة بعد تأثير الانتماء العرقي، ونجد لوبون يتحدث في كتابه عن الجماهير اللاتينية. لا بد على من يريد قيادة الجماهير والتأثير فيها من أمرين :

-الأول أنه "مهما كانت الأفكار المقترحة على الجماهير، فلا يمكن أن تصير مسيطرة إلا بشرط أن تتخذ شكلا بسيطا جدا، وأن تتمثل في أذهانهم على شكل صور"¹⁷.

-لا بد من شخصية قوية مستبدة تقود الجماهير، فهم "لم يكن تعاطفهم أبدا مع الأسياد الطيبين، بل مع الطغاة الذين سيطروا بالقوة"¹⁸.

¹⁶ – *Psychologie des Foules*, op.cit, p 26.

¹⁷ – *Ibid*, p 72.

¹⁸ – *Ibid*, p 65.

يقودنا الكلام عن **لوبون** إلى الانتقال من الحديث عن ماهية الإيديولوجية، التي قررنا أنها بالمختصر أوهام تتحكم في الوعي وتوجه سلوكه، وهو ما يتضمنه كلام المؤلف السابق، وعرضنا الأقوال في منبع هذه الأوهام، إلى الحديث عن طريقة اشتغالها وعن الوسائل الإجرائية التي تتيح انتشارها وتأثيرها. أن نمر من التعريف السكوني للإيديولوجيا إلى مقارنة ديناميكية لوظائف وظروف إنتاج الإيديولوجيات.

المحطة التالية في تطور مفهوم الإيديولوجيا كانت أعمال علماء الاجتماع الألمان الذين وجهوا النقد للعقلانية، وطبقوا على الماركسية نظريتها التي كانت تطبقها على غيرها باعتبار البروليتاريا طبقة -لا- كالطبقات، فتوصلوا إلى اعتبار المجتمع "ميدان الدعوة المعبرة عن المصالح وليس ميدان الحق وبذلك فتحو الباب إلى دراسة موضوعية للسياسة، أو هكذا تخيلوا الأمور"¹⁹.

فتجاوزوا بها البحث عن أصل ثابت يضمن الحقيقة المطلقة، ليتحدثوا عن مجتمع مجزأ إلى طبقات وفئات لكل منها معتقد خاص به، ولا يمكن إرجاع هذه المعتقدات إلى أصل واحد، بل تصنع كل طبقة أو كل فئة منظومة فكرية تبرر بها مصالحها الظرفية.

جمع هذه الأفكار الفيلسوف الألماني **كارل مانهايم** Karl Mannheim، وصاغها في مشروع جديد سماه *سوسيولوجيا المعرفة*، وأول ما بدأ به عمله هو التمييز بين الإيديولوجيا واليوتوبيا، يشترك المفهومان مبدئياً في : الابتعاد عن الواقع والعجز عن إدراكه، بتعبير العروبي، أو اللاتطابق مع الواقع بتعبير **بول ريكور** Paul Ricoeur، ويفترقان من وجهين :

19 - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 54.

أولهما أن "الإيديولوجيات تنتمي أساسا إلى الجماعات المسيطرة، وهي تريح الذات الجمعية لهذه الجماعات. تدعم اليوتوبيا، من جانب آخر، على نحو طبيعي الجماعات الصاعدة ولذلك فإن دعمها يأتي في الغالب من الفئات الأدنى في المجتمع".

أما الثاني فهو "أن الإيديولوجيات تميل إلى الاتجاه نحو الماضي وهي لذلك تعاني من القدم، بينما تتمتع اليوتوبيات بعنصر مستقبلي"²⁰.

يقف **مانهايم** موقف المعارض للقول بأن اليوتوبيا مجرد حلم بعيد التحقيق، أو مستحيل، فهي تؤدي وظيفة تدمير نظام معطى، وهي لا تستحق حسمه اسمها إلا إذا بدأت بتدمير ذلك النظام، فهي إذن عملية تحقق مستمر. أما مشكلة الإيديولوجيا فهي ليست مشكلة التحقق، لأنها عبارة عن عملية إضفاء الشرعية على نظام قائم.

الإيديولوجيا واليوتوبيا هما الطريقتان اللتان يتعامل بهما التوجه العام لجماعة أو مجتمع مع عدم تطابق فكره مع الواقع : فإما التثبيت بالماضي، وبالتالي مقاومة التغيير وهذا مجال الإيديولوجيا، أو القفز إلى الأمام، وبالتالي تشجيع التغيير، وهذا مجال اليوتوبيا. اليوتوبيا ذهنية الطبقات إبان صعودها والإيديولوجيا ذهنية الطبقات في حالة انحدارها²¹.

وسيفيدنا هذا التمييز كثيرا في قراءة الأفكار التي يعرضها **لوي برتران**، بصفتها قناعا للاستعمار، وتمييز ما إذا كانت من قبيل التفكير الذي يتمحور حول تمثل المستقبل واستحضاره، أو التفكير الذي يهدف إلى استمرار الحاضر وإنكار بذور التغيير الموجودة فيه، أو ربما هذا وذاك في آن واحد. بناء على كون أدب **برتران**، بل الأدب الكولونيالي بصفة عامة، عملا إيديولوجيا، وهذا ما اتفقت عليه الدراسات التي سبقتنا إليه.

²⁰ - بول ريكور، "محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا"، تحرير وتقديم : جورج هـ. تيلور، ترجمة : فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2002، ص 366.

²¹ - "مفهوم الإيديولوجيا"، مرجع سابق، ص 58.

يعني تعلق الإيديولوجيا بالحاضر أن نقدها سيكون من قبيل العمل السوسيولوجي، بينما يعني تعلق اليوتوبيات بالمرحلة التالية أن نقدها هو من قبيل العمل التاريخي، وستشكل السوسيولوجيا والتاريخ الشقين الأساسيين لدراستنا.

ميز **مانهايم** أيضا في الإيديولوجيا بين مفهومها الجزئي ومفهومها الكلي، باعتبار الأول اتخاذ "موقف متشكك تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها تمويهات واعية بدرجات متفاوتة -تخفي الطبيعة الحقيقية لوضع لن يكون الاعتراف بحقيقته متفقا مع مصالح هذا الخصم".

وباعتبار الثاني إشارة "إلى إيديولوجيا عصر ما أو إيديولوجيا جماعة تاريخية-اجتماعية محددة كإيديولوجيا طبقة مثلا، عندما يكون هدفنا هو أن نوضح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية ذلك العصر أو تلك الجماعة"²².

وهذا التقسيم سيكون مفيدا لنا أيضا في قراءتنا التي نحاول التمييز فيها بين ما هو من قبيل العمل الفردي، أو ما يصفه ما **نهايم** بالتحريفات التي يمكن أن تكون أكاذيب مقصودة، أو تمويهات شبه مقصودة أو غير مقصودة، أو محاولات متعمدة لخداع الآخرين أو خداع النفس، وهذا مجاله السياسة، وما هو من قبيل الفعل الثقافي أو مجموع المجهودات الفردية عندما تشكل أفقا ذهنيا للجماعة لا يتعداه أفرادها، وتصبح هي المنظار الذي يرون به ذواتهم والمجتمع، بل الكون كله.

مما قال به **مانهايم** أيضا، وكان أساسا في بناء نظريته التي وصفها بالمنظرية، ليفرق بينها وبين النسبية المعروفة، أنه لا سبيل إلى إرجاع معتقدات طبقات وفئات مختلفة إلى أصل واحد، بل لكل منها مصالح ظرفية تدفعها محاولة تبريرها إلى إنتاج منظومة فكرية خاصة بها. وهذا ما قصده بكلمة منظورية، كل فئة أو طبقة تتخذ موقعا -

²² - كارل مانهايم، "الإيديولوجيا واليوتوبيا : مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة"، ترجمة : محمد رجا الدريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980، ص 129.

تحدده المصالح- لترى منه الأحداث، ولا تبحث عن حقيقة مطلقة مثل النسبية، بل تتكافؤ المواقع كلها.

أهم التفكير الماركسي مانهايم بالأهمية الحاسمة التي منحها "للممارسة السياسية بالارتباط مع التأويل الاقتصادي للأحداث"، كم أنها أول من حقق المزج بين مفهومي الإيديولوجيا الخاص والعام، لكنه تجاوزه بما سماه مفهوم ما بعد الماركسية التي جعلت مصلحة البروليتاريا مصلحة شاملة تعبر عن الكل، فلم نعد حسب "نستطيع افتراض وجود وعي طبقي لا يكون هو نفسه طبقيا، كما ادعى ماركس ولوكاتش Lukács"23.

لقد كان بطبيعة الحال لنظرية مانهايم حدودها وتناقضاتها، فهي بدورها قامت على نقد وتدارك ما في سابقاتها من عيوب ونقائص وتجاوزها، لكننا سنكتفي منها ومن غيرها بالقدر الذي نرى أنه يخدم عملنا، وندع الكلام التفصيلي عنها لأهل الاختصاص، وقد تطرق إلى ذلك بول ريكور وعبد الله العروي في الكتابين الذين أشرنا إليهما في الهوامش.

درس مانهايم، كعمل تطبيقي قام به، بنية الفكر المحافظ الألماني في بداية القرن التاسع عشر، مثال جورج ويلهام فريدريك هيغل Georg Wilhem Friedrich Hegel. تناول هذا الفكر "كنمط عام تتدرج تحته كل الأدلوجات التي ترمي إلى المحافظة على نظام مجتمعي معين"24.

هذا أيضا أحد الأوجه في تناول موضوع دراستنا، فنحن أيضا نريد أن نتناول فكر لوي برتران كمجهود ينصب في محاولة الحفاظ على فكر معين، مرتبط بمصلحة فئة معينة عن طريق شرعة الاستعمار. بعد أن ثبت هذا، آن لنا أن نتساءل عن الجانب المادي للإيديولوجيا، طريقة اشتغالها من حيث صناعتها وتأثيرها ونشرها.

23 - "محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا"، مرجع سابق، ص 240 و 365.

24 - "مفهوم الإيديولوجيا"، ص 56.

ولن نجد سبيلا إلى ذلك أفضل من المفهوم الذي صار معروفا جدا، والذي جاء به لوي ألتوسير Louis Althusser، مفهوم الأجهزة الإيديولوجية للدولة Appareils Idéologiques de l'état. المفهوم الذي كان ناقصا في الدراسات السابقة، والذي يتيح وصف القاعدة المادية للإيديولوجيات. تتولد هذه الأخيرة من الطبقات الاجتماعية المتصارعة، ثم تتجسد في مؤسسات وتنتشر عبرها.

تدل قائمة المؤسسات المتميزة والمتخصصة والتي يقدمها ألتوسير، مع أنها قائمة مؤقتة، على تكتل الإيديولوجيا، وحضورها الشامل في مجتمع ما : الجهاز الديني، والمدرسي، والعائلي، والقانوني، والسياسي (بما في ذلك "الأحزاب المختلفة")، والجهاز النقابي، وجهاز الإعلام، والجهاز الثقافي، هي بعض فضاءات نشر الإيديولوجيا²⁵.

تكمن أهمية الأجهزة في أن استمرار الطبقة وسيطرتها على الدولة مرهون بسيطرتها على المؤسسات التي تشكل تلك الأجهزة، وبالتالي كان على المجتمع الاستيطاني في الجزائر لا أن يسيطر على الأجهزة الإيديولوجية فحسب، بل أن ينشئها، ليحكم قبضته على المستعمرة، خاصة وأن هذا المجتمع لم تكن له قاعدة تاريخية أو هوياتية تجمع أفراده وتعطيه القوة للاستمرار.

كان الجهاز المشتغل في المراحل الأولى من الاستيطان هو الإعلام، ثم أسست تدريجيا منظومة تعليمية، إلى أن نصل في مرحلة تالية إلى إنشاء جهاز ثقافي أدبي، وهو الذي نتطرق إليه في دراستنا هذه. ووظيفة الجهاز الإعلامي أو الأدبي مثلا، هي أن يتخم المواطنين عن طريق المقالات والكتب -أو حتى المحاضرات كما كان يفعل برتران في مرحلة متأخرة- "المواطنين" بجرعات يومية من الوطنية، أو الشوفينية، أو الليبرالية، أو الأخلاقيات، إلخ.

²⁵ - Sarfati Georges-Elia, *Eléments d'analyse du discours*, 2^e édition, Armand-Colin, Paris, 2005, p 96-97.

تعمل هذه الأجهزة، المتميزة والمتخصصة كما وصفها التوسير، بطرق مختلفة ويؤدي كل منها وظيفة خاصة به، لكنها مع ذلك تتنافس للوصول إلى نتيجة واحدة : إعادة إنتاج علاقات الإنتاج، أي علاقات الاستغلال الرأسمالي الاستعماري في الحالة التي ندرسها.

الوضعية الاستعمارية أكثر تعقيدا من الحالات التي تدرس فيها الإيديولوجيا عادة، أي حالة تركيبة اجتماعية رأسمالية بسيطة، ذلك أن التشكيلة الاجتماعية التي يشتغل عليها الجهاز في الجزائر المستعمرة تابعة للتشكيلة الميترولوجية المسيطرة. هذه السيطرة التي كانت شاملة في البداية، بدأت تنحصر شيئا فشيئا مع تطور التشكيلة الاجتماعية الأوروبية في المستعمرة.

إذا كانت الميترولوجيا تتحكم بلا نقاش في الآلة القمعية للدولة، فإن وضعية الأجهزة الإيديولوجية للدولة تبقى أقل وضوحا بكثير. يعود السبب في هذا التعقيد إلى تداخل المصالح في إيديولوجيا المجموعة الأوروبية، فهي تعبر عن مصالح الجزء المسيطر من المعمرين داخل المستوطنة، وعن مصالح الطبقة المسيطرة في الميترولوجيا في آن واحد، وتواجه كلاهما المجتمع المستعمر الذي لا بد من السيطرة عليه من أجل استغلاله.

"تمثل إذن إيديولوجية المجموعة الأوروبية في آن واحد :

- علاقتها الاستغلالية بالسكان المسلمين
- علاقة التبعية للميترولوجيا أو الاستقلال عنها
- العلاقة المتخيلة بالصراعات الطبقيّة داخل المتوطنة"²⁶.

كان على لوي برتران، وعلى الأدب الكولونيالي بصفة عامة أن يتعامل مع هذه الشبكة المعقدة من العلاقات، لينتج العوامل الفكرية والعناصر الإيديولوجية التي تضمن

²⁶ - *Roman colonial et Idéologie coloniale en Algérie*, op.cit, p 16.

استمرار التركيبة الاجتماعية الأوروبية وتمنحها القوة، من أجل استمرار الاستغلال. توفير "الجو الضروري ليتنفس" هذا المجتمع، هكذا يعرف التوسير الإيديولوجيا.

من أفضل من حللوا التركيبة الاجتماعية في الجزائر المستعمرة، ولم تخرج أعماله عن إطار الإيديولوجيا الذي نتحدث عنه، إذ أن نظريته عبارة عن جمع بين أعمال ماركس وماكس فيبار Max Weber، عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو Pierre Bourdieu. وسنستعين لفهم هذا المجتمع بكتابه "سوسيولوجيا الجزائر"، وبتحليلاته للحقول الاجتماعية في قراءة برتران.

ستعطينا تحليلات بورديو، التي تنظر إلى "التداخل الوظيفي بين البنيات الاجتماعية والبنيات الاقتصادية"²⁷ في المجتمع الاستعماري، واقع هذا المجتمع وتحليلا علميا ماديا لأنماط العلاقات فيه، فنحاول على ضوءها قراءة التصور الذي يقدمه لنا لوي برتران عنه وعن العلاقات والصراعات داخله.

مهما حاول برتران أو رويار راندو Robert Randau أو جون بومي Jean Pomier، أو غيرهم من رواد الأدب والفكر الكولونيالي في الجزائر الحديث عن "الشعب الجديد"، أو "العرق الجديد"، فإن الواقع يخبر عن مجتمع بقي في طور التأسيس حتى نهاية الاستعمار، وهي مدة لا يستهان بها، فحق لنا إذن أن نتساءل مثل بورديو عن :

"سبب وكيفية بقاء هذا العالم (العالم الاجتماعي Monde social)، لماذا وكيف يستمر داخل الكائن، كيف يخلّد النظام الاجتماعي، أي مجموع روابط النظام التي يشكله"²⁸.

²⁷ – Bourdieu Pierre, *Sociologie de l'Algérie*, Coll : Que sais-je ?, P.U.F, Paris, 1974, p 119.

²⁸ – Bourdieu Pierre, *Stratégies de reproduction et modes de domination*, in : Actes de la recherche en sciences sociales, Vol. 105, Décembre 1994, p 3.

في "سوسيولوجيا الجزائر"، يشرح بيار بورديو تركيبة المجتمع في الجزائر المستعمرة، وحاجته الماسة إلى الإيديولوجيا لكي يضمن بقاءه. هذا المجتمع يسير وفق نظام الطوائف، لأنه مركب من جماعتين متجاورتين ومتمايزتين، المجموعة الأوروبية والمجموعة المسلمة، يحدد الانتماء إلى إحدهما نمط فيزيولوجي، فمجرد ولادة الفرد في المجموعة الأوروبية تمنحه بشكل تلقائي جميع الامتيازات فيصبح لديه شعور بتفوق طبيعي.

يضع هذا النظام الجماعتين في علاقة أساسها أن وجود متفوق ودوني، ويفرق بينهما عدد كبير من "الحواجز اللامرئية، مؤسساتية أو تلقائية، مما يختزل العلاقة بين أفراد الطائفتين في الحد الضروري الأدنى، يحدده اتفاق ضمني مضمّر بين الطرفين الموجودين"²⁹.

تبرز هنا الحاجة إلى الإيديولوجيا، لأن هذا الوضع الذي هو في الحقيقة اقتصادي، فالمستعمر استولى بالقوة على الأرض وعلى وسائل الإنتاج، يعينه في ذلك التفوق التقني على المستعمر، وصار هذا الوضع واقعا مفروضا. وظيفة الإيديولوجيا هنا، الإيديولوجيا "العنصرية" بالتحديد، توفير الغطاء المنطقي لهذا الأمر الواقع بتقديمه على صورة نظام من الحقوق.

المجتمع الأوروبي هو الأقلية الغالبة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، يحاول، بفضل الإيديولوجيا العنصرية، أن يحول الامتيازات إلى حقوق، مثلما حولت النظرية العنصرية الصفات الفيزيولوجية إلى معايير تقيس بها تحضر وتخلف الجنس البشري، فيصنع المهيمن أساطير mythes يفرضها على الخاضع، فإذا تقبلها اشتغل النظام ليبقى المهيمن مهيمننا والخاضع خاضعا.

²⁹ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 116.

الأسطورة هنا بالمفهوم الذي أعطاها إياه رولان بارت Roland Barthes : إنتاج خطابي إيديولوجي، تطلقه طبقة اجتماعية مهيمنة من أجل الحفاظ على سلطتها بأن تعطيها أساسا لا-زمنيا، يثبت علاقة القوة بتحويلها إلى جوهر³⁰. يعبر بارت هنا بالطبقة، أما المجتمع الاستعماري فكما قدمنا ينقسم إلى طائفتين بينهما هوة يستحيل عبورها، وفي كل منها سلّم ترتيبي طبقي يمكن بدرجات صعوبة متفاوتة الارتقاء فيه، يشغل نظام الأسطورة بنفس الطريقة.

نقول أنه يشغل بنفس الطريقة، لكنه أشد صلابة بين الطائفتين منه بين الطبقات في الطائفة الواحدة، ذلك أنه في الحالة الأولى متعلق بالوجود أو العدم، أي أن المجتمع الأوروبي المستعمر يجد الغاية من وجوده في الأسطورة التي صنعتها له النظرية العنصرية، وتقبلها المستعمر، فإذا اقترب الطرفان من "العقلانية تراجع (النظام القائم أو بالأحرى المفروض) وجوديا، كلما اتجه نحو الوعي الكامل بالذات، اتجه في واقع الأمر إلى اختفائه"³¹.

هذا النظام هو ما نقصده بالربط بين النظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي، ويقودنا هذا إلى أحد المفاهيم التي يعرضها بورديو، مستلهما إياه من ماركس، "إعادة الإنتاج"، أي الرؤية والممارسة العملية التي يتم من خلالها إعادة إنتاج الجماعات أو ضمان بقائها، ماذا يفعل المجتمع ليبقى مستقرا ويبقى نظامه ساريا على جميع أفرادهِ (نعيد هنا صياغة سؤال بورديو الذي طرحناه في الفقرات السابقة).

وهذا مبني على تعميم فكرة رأس المال الذي يعممه بورديو، فيضيف إلى المعنى المادي الاقتصادي (الدخل أو الممتلكات)، رأس المال الاجتماعي الذي يعني شبكة

³⁰ – Boidin Carole, *La voie du retour ? le modèle de l'Ane d'or dans le mythe de l'Algérie latine chez Louis Bertrand*, in Recherches et travaux, UGA/ Université Grenoble Alpes, 81 / 2012, p 18.

³¹ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 116.

العلاقات الاجتماعية، ورأس المال الثقافي وتندرج فيه المعارف والشهادات العلمية والمهارات وغيرها، ورأس المال الرمزي الذي يعني المكانة والامتيازات التي يمتلكها الفرد أو الطبقة.

تستخدم المجتمعات في عملية الحفاظ على رأس المال استراتيجيات، يقسمها بورديو إلى أنواع كبرى تندرج تحتها العديد من الاستراتيجيات، نذكر من هذه الأنواع : استراتيجيات الاستغلال البيولوجي (مثل الخصوبة وعادات الزواج وغيرها)، والاستراتيجيات التوريثية (طريقة نقل التراث المادي من جيل إلى جيل)، والاستراتيجيات التربوية (ما تقدمه العائلة والمدرسة)، واستراتيجيات الاستثمار الاقتصادي.

ونتوقف عند استراتيجيات الاستثمار الرمزي فهي ما يهمنا، والتي يقول بورديو عنها

:

"هي جميع الأفعال التي تهدف إلى الحفاظ على رأس مال التعرف والامتتان وزيادته، بتشجيع إعادة إنتاج نماذج الإدراك والتقييم الأنسب لخصائصه، وإنتاج أفعال من شأنها أن تلقى القبول حسب هذه الأصناف [...] وكحالة خاصة منها، تهدف استراتيجيات التبرير الاجتماعي لشرعنة الهيمنة وتأسيسها (أي نمط رأس المال الذي تقوم عليه) عبر تطبيعها"³².

هكذا نرى أعمال برتران والكتاب الكولونياليين، "إعادة إنتاج نماذج الإدراك والتقييم الأنسب لخصائصه"، خصائص المجتمع الاستعماري، هذه النماذج هي ما سميناه الأساطير، "يعتقد الكاتب الكولونيالي أنهم يكتبون روايات، لكنها في الحقيقة مكتوبة من

³² – *Stratégies de reproduction et modes de domination*, op.cit, p 6.

طرف الأجهزة الإيديولوجية للدولة³³، ليساهموا في الحفاظ على رأس المال الرمزي لهذا المجتمع لتبقى يد الاستعمار مبسطة على الجزائر.

لا نختزل هذه الأعمال في جانبها السياسي، لأنها تبقى أعمالاً أدبية بعضها قيم من الناحية اللغوية والفنية، كما أنها ذات قيمة توثيقية شديدة الأهمية، لكن حضور السياسة والإيديولوجيا الاستعمارية فيها يفرض هذه القراءة، حضور متفاوت لكنه عند لوي برتران قوي جداً.

يقترح شارل بون Charles Bonn تمييزاً بين "إنتاج" أسطوري، خاص بالأدب، و"إعادة إنتاج" مستمرة بلا نهاية للأساطير، تميز الخطاب الثقافي الذي تروج له الإيديولوجيا السياسية.

النمط الأول هو من شأن الأديب أصالة، أن يصنع دون باستمرار إصدارات جديدة من الأساطير لها معان معقدة ولا تقبل الحصر في الإيديولوجيا. أما الإيديولوجي أو السياسي فهو لا يصنع، بل يغذي مخزوناً من التمثيلات الأسطورية التي تحافظ دائماً على نفس الصفات، المستلهمة من اللحظات التي تكون فيها السلطة التي يمثلها هي الحاكمة (مثل إعادة أساطير إفريقيا الرومانية إلى الحياة)³⁴.

وهذا على ما نعتقد هو الغالب على أعمال برتران، مع الاعتراف له بنصيب من التجديد والإبداع، ولهذا كانت قراءتنا وقراءة من قبلنا ممن اهتموا بالموضوع لهذه الأعمال من زاوية إيديولوجية.

³³ – CALMES Alain, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, L'Harmattan, Paris, 1984, p 243.

³⁴ – *La voie du retour ? le modèle de l'Ane d'or dans le mythe de l'Algérie latine chez Louis Bertrand*, op.cit, p 18-19.

الفصل الأول: صورة الآخر

في الأدب الفرنسي قبل

الجزائر

تشبه حاجة كل مجموعة إنسانية إلى الأدب حاجة كل فرد من أفرادها إلى لسان ناطق، يعبر به عن ما يريد، وعن ما يشعر به، ويعرف به بنفسه. يعرف الفرد بنفسه عن طريق مقابلة نفسه بأبناء جنسه ومجتمعه، وتؤسس الفروق بينه وبينهم هويته. وبمنفس المبدأ "تتأسس أيضا هوية المجموعة الإنسانية على المقابلة بين "هم" و"نحن"، هي رغبة في وضع الحدود عبر تجسيد أفكار وأحكام بين أناس متشابهين وتعميمها. "لكن الحدود الفاصلة بين "هم" و"نحن" ليست طبيعية، بل تتعلق بتاريخ كل مجتمع على حدة، فهي شديدة التغير"³⁵.

يلعب الأدب إذن دور لسان المجموعة الناطق بامتياز، فمرونة النص الأدبي تتيح له أداء وظيفتين في آن واحد: الوظيفة التعليمية والوظيفة الجمالية، فيعرف بالمجموعة المتكلمة ويقول بما تشعر حيال ما يحيط بها. وإذا ربطنا الوظيفة بفكرة المقابلة وجدنا الأدب وسيلة من وسائل صنع الحدود بين "هم" و"نحن"، وتغيير مواضعها كذلك. سنحاول في ما يلي من الصفحات أن نسلط الضوء على هذه الظاهرة في الأدب الفرنسي.

طالما كان الحد الفاصل في فرنسا المعاصرة هو الفرق بين المسيحيين والمسلمين، كما يؤكد بنيامين ستورا Benjamin STORA، وكما هو وواضح من خلال خطابها السياسي والإعلامي. وقد تثبت التاريخ بأنواع الكتابات المختلفة -بما فيها الأدبية، وهي الأهم والأخطر- الحد في هذا الموضع، كما تثبتته في بلجيكا بين الفلامانديين والوالونيين، وفي إيطاليا بين الميلانيين والنابوليتانيين، فالتفريق في فرنسا يتم حاليا بين الفرنسيين والعرب، وإن لم يكن للمصطلحين تعريف واضح³⁶. حدث هذا بعد تراكم أسباب تاريخية جديرة بالتحليل، وتراكم فكري وثقافي وأحيانا علمي.

³⁵ – STORA Benjamin, *Les Mémoires dangereuse suivi de Transfert d'une Mémoire*, Hibr Editions, Algérie, 2016, p 45.

³⁶ – *Ibid*, p 45-46.

ظهرت على مر هذا التاريخ تيارات سياسية وفكرية متعددة، شكلت الذهنية الفرنسية، أو لنقل الإيديولوجية الفرنسية التي لا بد في محاولة قراءتها من العودة إلى هذا التاريخ، خاصة في ما يخص مسألة الآخر. ولعل بعض هذه التيارات كان أقوى حضورا وتأثيرا من البعض الآخر، خاصة تلك التي تزامنت معها مع فترة الاستعمار الفرنسي، ومنها ما ظهر في المستعمرات وأثر على فرنسا، كالجرائانية التي تشكل موضوع دراستنا.

كانت الجرائانية في البداية توجهها سياسيا واقتصاديا تحول إلى تيار أدبي وفكري، ارتبط ارتباطا وثيقا بنشأة مجموعة إنسانية جديدة، كما ستبينه الصفحات القادمة، وله في نفس الوقت من التراث الأدبي الفرنسي حظ وافر، وفي الحضارة اللاتينية جذور عميقة. فاستلهم إذن من التاريخ أفكارا وصورا رسم بها حدودا وضعها في المقابلة بين "هم" و"نحن" الخاصة به.

فكان من المناسب العودة إلى الأصول والمنابع من أجل فهم الفكر الجديد، وخاصة إلى القرنين السابع والثامن عشر، فترة وصفها **هيبوليت تان** Hyppolite Taine بأنها "أصول فرنسا المعاصرة"، وهي تمثل بالنسبة لغير الفرنسيين الروح الفرنسية باختصار³⁷.

مع أن بواذر ظهور أدب فرنسي وعبرية فرنسية -مستقلة عن أوروبا الصليبية- بدأت في العصور الوسطى، إلا أن الطابع العام لأدب هذه الفترة المظلمة كان تحت الأثر الشديد لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية على جميع أوروبا بصفاتها وحدة دينية، كما أن أحداث الحروب الصليبية ومخلفاتها كانت لا تزال الموضوع الرئيس لأدب هذه الحقبة. الغير أو الآخر بالنسبة للأوروبي في كتابات العصور الوسطى هو المسلم -الكافر في نظرهم-،

³⁷ – TODOROV Tzvetan, *Nous et les autres : réflexion française sur la diversité*, Seuil, Paris, 2008, p 20.

وهو العدو الذي يعتبر قتاله وإزالته واجبا دينيا. رؤية مانوية للعالم وموقف نهائي وصلب في الحكم على الآخر والتعامل معه.

في بداية القرن السادس عشر، وهي الفترة التي تمثل عصر النهضة في فرنسا بعد أن بدأت هذه الأخيرة في إيطاليا قبل ذلك بقرن من الزمن، ومع تشكل مجموعات وطنية بدأت تعي انتماءها شيئا فشيئا، يمكن أن نتحدث عن أدب فرنسي وثقافة فرنسية قائمة بذاتها. ثم إن الفلسفة الإنسانية وتحرر الفكر نوعا ما في هذه الفترة كانا عاملين أنتجا لدى الكتاب الأوروبيين، بما فيهم الفرنسيون، إحساسا بالنسبية في الحكم على العالم الخارجي (الآخر) والتعامل معه ظهر من خلال كتاباتهم.

"اعتمد الإصلاح -الذي جاءت به النهضة الأوروبية- تحرير الفكر وإعماله في قراءة النصوص المقدسة، فنزل بالضربة القاضية على النظرة الأحادية الدوغماتية الكاثوليكية، التي تعتبر كل ثقافة أخرى مخالفة لها هرطقة. كما زعزع اكتشاف العالم الجديد المركزية الأوروبية لدى الكتاب الفرنسيين وأرغمهم على التفكير مليا في الغيرية الثقافية"³⁸.

يمكن إذن ابتداء من هذه المرحلة أن نتحدث عن صورة أو بالأحرى تصوير للآخر يدل على وعي وتفكير، ولم لا على سياسة، وسنرصد باختصار تطوره حتى نصل إلى مطلع القرن العشرين، وبالتحديد إلى الأدب الجزائري.

والهدف الآخر من هذا العرض هو استنتاج وجود الاختلاف من عدمه بين صورة الجزائر والجزائري وصورة غيره في الأدب الفرنسي، بتعبير آخر : هل أنتج الأدب الفرنسي صورة عن الآخر انسحبت على جميع أفراد هذا الآخر أيّا كانت جنسياتهم، أم كان للجزائر خصوصية ؟

³⁸ -Jacques ELADAN, *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, Editions de Courcelle, Paris, 2007, p 19.

1. مونتاني وآكلوا لحوم البشر Les Cannibales

ستكون البداية من مونتاني Montaigne، رائد النهضة الفكرية والأدب الفرنسي في القرن السادس عشر، والذي خصص رسالتين مهمتين من كتابه الرسائل Les Essais للكلام عن شعوب العالم الجديد: عن آكلي لحوم البشر Des Cannibales، العربات Des Coches. كانت لمونتاني قضية رئيسية بسطها في الرسالة الأولى في نص متين، جاء عليها بحجج في الصميم، وهي كما يلي:

"كل يسمي ما ليس من عاداته بربرية³⁹؛ كحقيقة، يبدو أنه ليس لدينا مرمى أو مشهد للحقيقة وللعقل سوى مثال وفكرة ومواقف البلد الذي نعيش فيه وأعرافه. هنا تكون دائما الديانة الكاملة، التنظيم الكامل، استعمال كامل ومنجز للأشياء كلها. إنهم متوحشون، مثلما نسمي متوحشة الثمار التي تعطيها الطبيعة من نفسها ومن تطورها العادي: هؤلاء هنا، في الحقيقة، هم الذين أفسدناهم بمكرنا وحولناهم عن النظام العام، وهم الذين سميناهم متوحشين⁴⁰."

دعم مونتاني حججه بأمثلة ضريها من العالم القديم، وبشهادات وأقوال لمؤرخين وكتاب إغريق ولايينيين، صحح بعضها ورد البعض الآخر. كما انتقد الأساطير والخرافات التي تنتجها المخيلة الغربية عن البلاد البعيدة، وعبر عن رغبته في أن تحل محلها دراسات وتوصيفات موضوعية يقوم بها علماء بناء على الملاحظة الموضوعية.

³⁹ - لكلمة بربري عند مونتاني معنيان : أحدهما تاريخي وإيجابي، "ما هو قريب من الأصل"؛ والثاني أخلاقي وسلبى، "ما هو منحط وقاس" (Todorov, p 60)، وسنورده من كلامه وفي تعليقنا عليه فلا بد من فهمه حسب السياق الوارد فيه.

⁴⁰ - MONTAIGNE Jean Michel de, *Essais*, Livre III, Chapitre XXXI, P.U.F, Paris, 1965, p 7.

لقد سار مونتاني على نهج أفلاطون في القول بأن الأشياء إنما مصدرها الطبيعة، أو الثروة، أو الفن، وأن أكملها وأجملها هي تلك التي تأتي من الطبيعة. وبعد أن عارض اعتقاد الغربيين المغرورين، بأنهم أسمى من غيرهم، وأن غيرهم بربر متوحشون. انطلق مونتاني في الثناء والدفاع عن هؤلاء الذين عرفوا كيف يبقون أوفياء لبساطتهم وعلى طبيعتهم الأصلية.

سكان العالم الجديد نادرا ما يمرضون لأن حياتهم طبيعية، ولأن الطقس يلائمهم، ولأن غذاءهم اقتصادي، هم لا يعرفون أدبا ولا علوما، وليس لديهم قضاء ولا بينهم عقود، ليس فيهم أغنياء وفقراء ولا بينهم مواريث، لا يتناولون مسكرا ولا يتعاطون كذبا ولا خداعا. يقول عن حياتهم اليومية:

"اليوم كله رقص. يذهب الشباب بأقواسهم ونبالهم للصيد، تشتغل بعض النساء بتحضير الطعام، وهو شغلهن الرئيسي. ويلقي أحد الشيوخ كل صباح قبل الأكل موعظة ترددها معه المجموعة. وهو لا يأمرهم سوى بشيئين : التحلي بالشجاعة عند مواجهة العدو، والصداقة الحميمة مع النساء"⁴¹.

عندما يصل مونتاني إلى المسألة الحساسة التي تمثل الدليل القاطع على بربرية سكان العالم الجديد ووحشيتهم، وهي أكل لحوم البشر، يفسر ذلك بأنه تعبير عن رغبة في الانتقام من العدو. وللتبرير يعود إلى العالم الغربي فيثبت وجود هذه الظاهرة فيه، فقد حدث ذلك في الحروب الدينية في فرنسا، وفي بعض أحداث حصار المدن في أوروبا، ولا تقل التجارب التي يقوم بها الأطباء على الجثث وحشية عن أكل لحوم البشر.

ثم إن في المجتمع الغربي المتحضر ما هو أخطر وأكثر وحشية، دعا مونتاني بني جنسه إلى التخلص منه، إنها الآفات الاجتماعية المتمثلة في الخيانة والغدر، وفي التسلط

⁴¹ - *Ibid*, p 10.

واستغلال الغير، التي يمارسها المتحضرون يوميا فيما بينهم، أما أكل لحوم البشر فلا يفعله المتوحشون إلا في الحرب ومع العدو. إن تعذيب إنسان أو جعله يعاني، لهو أكثر وحشية بكثير من التهام لحمه بعد موته، هكذا فكر مونتاني.

من علامات البربرية والوحشية أيضا تعدد الزوجات، هنا أيضا فضل مونتاني سلوك سكان العالم الجديد، سلوك النساء خاصة، حيث يبحثن عن زوجات أخريات لبعولتهن، على سلوك الأوروبيات المتمثل في الغيرة المفرطة. لم يكن التعدد يوما عائقا لدى من يمارسونه أمام المشاعر التي يكنها بعضهم لبعض. ودعم مونتاني رأيه هنا بأمثلة من الكتاب المقدس، مثل ما فعلته سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لما أنكحته خادمتها.

لم يتجنب مونتاني أي مسألة من المسائل المتعلقة بالمتوحشين، بل أحصاها وتحدث عنها. ثم روى في آخر عمله لقاءه في مدينة رومان Rouan الفرنسية بثلاثة رجال كانوا زعماء لقبائل من الهنود، بدأ روايته بالحديث عن الأثر السلبي الذي أحدثته الحضارة والمدنية عليهم. ثم ينقل انطباعاتهم بعد الاتصال بالعالم الغربي : أولا حيرتهم من رؤية رجال شامخين ذوي لحى طويلة يحملون السيوف يأترون بأوامر طفل صغير، الملك شارل التاسع Charles IX، ثم دهشة أكبر من الفرق الشاسع والهوة السحيقة بين أغنياء هذا المجتمع وفقرائه، ومن ما يمنع هؤلاء من قتل أولئك وإحراق بيوتهم.

جعلت هذه الأفكار مونتاني يصنف من أوائل المنظرين ضد العنصرية، ومن أجل البيئة والحفاظ عليها، وكذلك من أول من وضع مبادئ الإثنولوجيا والإثنوغرافيا. ليس هذا فحسب، بل من أوائل من كتبوا ضد الاستعمار كعمل إجرامي⁴²، حيث انتقد في رسالة العربات Les coches، آخر رسالة في عمله، بشدة الجرائم البشعة والأعمال البربرية ضد

⁴² - ELADAN Jaques, *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, Editions de Courcelle, Paris, 2007, p 28.

البشر والطبيعة التي قام بها الكونكيستادور Los conquistadores (الغزاة الإسبان) لما دخلوا قارة أمريكا.

غير أن ما قام به مونتاني في الحقيقة هو أنه نسب إلى سكان العالم الجديد خصالا حميدة، وما هذه الخصال إلا عكس العيوب التي وجدها في مجتمعه، لكن البورتريه الذي رسمه لهم هزيل، إذ يختزله في : كونهم شجعان ضد العدو، وودودين مع نسائهم، وأشداء في قتالهم، ويعددون الزوجات. ومع أنه قدم عنهم صورة إيجابية، فإن هذا :

"الحكم القيمي الإيجابي مبني على سوء التفاهم، إسقاط صورة للذات -أو لمثال للذات تجسده بالنسبة لمونتاني الحضارة الكلاسيكية- على الآخر"⁴³.

ما لبث هذا البناء الفكري الذي شرع رائد النهضة الفرنسية في تشييده، بناء التسامح والنسبية في التعامل مع الأعراق، أن انهار في القرن التالي، مع بداية العصر الكلاسيكي، أمام عودة الكاثوليكية الدوغماتية، أو المركزية المسيحية. ذلك أن فكرة مونتاني الثورية تناقض هذه المركزية القائمة أساسا على فكرة سمو المسيحية وعلوها على جميع الأديان والثقافات.

⁴³ - *Nous et les autres*, op.cit, p 60.

2. المركزية المسيحية في القرن السابع عشر

كان الكاتب الكلاسيكي الشهير بوسوي Bossuet هو أول من وضع قواعد هذه النظرية وعبر عنها في عمل أدبي، وهو صاحب الأسلوب الرفيع، في كتاب وسمه خطاب حول تاريخ الكون، وقرر فيه أنه ليس لتاريخ الإنسان معنى إلا بربطه بالمسيح، فكل الأحداث التي وقعت قبل مجيئه، منذ خلق آدم عليه السلام لم تكن سوى رؤى مسبقة لحياته وأعماله (المسيح).

قسم بوسوي خطابه إلى ثلاثة أجزاء: أولها الحقب الزمنية أو تواصل الزمن، يلخص فيه أهم التواريخ من بداية الخلق إلى الإمبراطورية الرومانية. الجزء الثاني عنوانه ما بعد الديانة، وهو عبارة عن تحليل تاريخي لتطور الدين من بداية الخلق أيضا إلى انتصار الكنيسة الكاثوليكية على باقي الديانات والملل. وأخيرا جزء الإمبراطوريات، قدم فيه عرضا عن الإمبراطوريات الكبرى التي تتابعت عبر التاريخ، من أولها وهي إمبراطورية السكوثيين إلى سقوط آخرها أي روما، وقد ركز في الكلام عنها على الجوانب الثقافية والدينية والسياسية، لأن غرضه كان تتبع التطور الروحي للإنسانية.

لم يكن الأنبياء عليهم السلام -حسب بوسوي- إلا شخصيات تاريخية جاءت لتعلن قدوم المسيح أو تخبر عنه، كان هذا حال إبراهيم وادم، غير أن موسى كان له نصيب أكبر من الحديث عن الأنبياء فقد بدأ معه عهد الشرائع المكتوبة، بعد أن حُكمت الإنسانية طويلا بمنطق الطبيعة وبتقاليد الأجداد، ولذلك فإن الكتاب المقدس بعهديه -القديم والجديد- هو حسب بوسوي الكتاب الوحيد الذي يقول الحق:

"وأي شهادة على صدقه أكبر من أن نرى التاريخ في زمن الشرك لا ترى سوى خرافات، أو في أحسن الأحوال أحداثا غامضة تكاد تكون منسية، الكتاب بلا شك، أقدم

كتاب في العالم، يأخذنا بما فيه من أحداث متعددة ومحددة، وبتسلسل هذه الأحداث، إلى مبدئها، أي إلى الإله الذي خلق كل شيء⁴⁴.

الكتاب المقدس هو إذن الكتاب الوحيد الذي حوى المعرفة الحقيقية، وأما الشعب اليهودي فلم يستحق حسب بوسوي أن يكون أمينا على الأسرار الإلهية إلا لما تهيأ وسمع الكلام الإلهي، وكان اليونانيون في المقابل بارعين في خداع أنفسهم وفي اللهو فلم يستحقوا الشرف المذكور. بهذا وضع بوسوي التاريخ الإنساني برمته في فضاء ضيق يشغله فاعلون ثلاثة: اليهود، والرومان (وقبلهم اليونان فهما ملة واحدة)، والمسيح⁴⁵.

كانت هذه النظرة إلى العالم ضيقة واختزالية إلى حد كبير، مع أن بوسوي كان على مستوى من الثقافة والذكاء بحيث لا يمكن أن يغيب عنه ذلك. ولهذا رسم في الجزء الثالث من خطابه لوحة جميلة لحضارات العالم القديم، تضمنت مكامن القوة ونقاط الضعف في كل منها.

مثل السكوثيون والإثيوبيون، أولى الحضارات، أمتان متوحشتان وغير مثقفتين. أما المصريون فأنشئوا ثقافة مهمة ووضعوا قواعد للحكم، وأعطوا قيمة لجميع الوظائف والمهن في المجتمع، والأهم من ذلك أنهم عكفوا على دراسة الحكمة وشغفوا بالعلم. لكن تعلقهم المفرط بالروحانيات جعلهم مسالمين أكثر مما يجب وكان ذلك سببا في سقوطهم على يدي الفرس واليونانيين ليتم العرب في بعد القضاء على ما بقي من هذه الحضارة.

أما الآشوريون فقد مروا بالتاريخ مرورا سريعا، وحل محلهم البابليون أصحاب الحكمة والشجاعة، الذين ازدهرت عندهم الفلسفة والفنون والهندسة المعمارية، لكن قسوة

⁴⁴ – BOSSUET Jacques-Bénigne, *Discours sur l'Histoire de l'univers*, Samigdat, Québec, p 105.

⁴⁵ – *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, op.cit, p 31.

حكامهم ووحشيتهم جرت عليهم الهزيمة على يد كورش Cyrus (ملك الفرس الأول) الذي بعثه الله لتحرير اليهود. وكان الفرس كرماء متسامحين، وليبراليين مع الأجانب، وإنسانيين مع أعدائهم في الحروب. غير أنهم افتقدوا الحكمة التي كانت عند المصريين، وحول حبهم المفرط للجمال وللزينة أخلاقهم إلى فجور وأضعفهم عسكريا فكان سببا لهزيمتهم أمام اليونان.

هكذا اختزل بوسوي تاريخ الأمم في مجموعة من الصور النمطية، وألصق بكل أمة صفة أو صفتين تلخصها، أمة شجاعة وشعب كريم وآخر حكيم، إلخ. غير أنه توسع وبسط الكلام عن اليونان وروما.

نظر بوسوي إلى اليونان نظرة المنبر وقدم حضارتها كمثال يُقتدى به، فهم أول من أسس للحرية السياسية ومن كون لدى أفرادها حس الوطنية وتنظيم الدولة، كما أنشئوا ثقافة على أعلى مستوى من الرقي. أطرت حرية اليونانيين ووجهتها قوانين يضعها حكامهم، ونظمت عاداتهم وسلوكياتهم أفكار فلاسفتهم. وبعد بلوغهم هذا المستوى من الحضارة، لم يعد بوسع اليونانيين أن يروا غيرهم إلا بربريين متوحشين، لكن هذا التطور لم يكن إلا في أثينا التي أثارت حسد الجيران وزادت بغضهم فدخلوا معها في صراعات انتهت بسقوطها في يد فيليب المقدوني Philippe le Macédonien ثم إخضاعها لروما.

أما روما فقد بنت أكبر إمبراطورية في التاريخ. تميّز الرومان بحب الحرية والوطن وتبنوا أسلوبا في الحياة مؤسسا على الاقتصاد في العيش وعلى الانضباط. كانت مجمل جهودهم مصروفة في الفنون العسكرية، وبهذا تمكنوا من إخضاع الأمم من حولهم. كما أن تأسيس المجلس أو البرلمان Senatus كان دليلا على حكمتهم السياسية، ومع هذا كله لم يهمل الرومان العلم والفنون. أما نهاية هذه الإمبراطورية العظيمة فقد كان سببها الصراعات الداخلية بين المجلس والشعب، والحروب بين الجنرالات، مما أدى إلى استيلاء قياصرة مستبدين وظلمة على الحكم فكانت النهاية على أيديهم.

ختم بوسوي هذه البانوراما التي رسمها لحضارات العالم القديم بالقول بأن تاريخها سار وفق خط قدري رسمته السماء ليظهر في نهايته الدين الحق. ومع أن غاية الكتاب في الأساس كانت الدفاع عن العقيدة المسيحية، إلا أن بوسوي أبدى شيئاً من الموضوعية في التعامل مع تلك الحضارات وسرد قصصها، حضارات كلها وثنية، وقد أوقعه ذلك في بعض التناقضات.

طبع الخطاب حول تاريخ الكون اتزان وسكينة غابت عند غيره، على غرار كاتب كلاسيكي آخر ممن سجلوا حضورهم في إنشاء تصور الأنا والآخر في الأدب الفرنسي، إنه بلاز باسكال Blaise Pascal، والذي اتجه المخيال الفرنسي معه أكثر فأكثر إلى المركزية المسيحية وبلغ في ذلك أحياناً حد التطرف. ذلك أن باسكال حاول في كتابه أفكار Pensées، إثبات صحة الديانة المسيحية وبطلان غيرها، وصاغ حججه بطريقة لا تدع للقارئ مجالاً للمعارضة أو الشك، أي لا يحق ذلك له.

الغريب في توجه باسكال هو اطلاعه الواسع على الثقافتين اليونانية واللاتينية ومعرفته الممتازة بهما، يدل على ذلك استشهاد بنصوص كثيرة ومختلفة لكبار الفلاسفة في الحضارتين. وكان اطلاعه على الثقافة اليهودية من العهد القديم إلى التلمود مروراً بأدب الأحرار على نفس القدر من السعة. لكن كل هذا لم يزد إلا تعصبا وتمسكا بالحصص.

فهو يحصر الحقيقة المطلقة في ديانته، مع إقراره بتأثير عادات الإنسان عليه، لكن ديانته خارج هذه العادات وفوقها. يصل الإنسان إلى الإيمان، حسب باسكال، عن طريق ثلاثة وسائل : المنطق والعادة والإلهام، ولا يوجد المنطق إلا في الديانة المسيحية⁴⁶، لا يمكن من هذا المنظور أن تكون الديانات الأخرى سوى ضلال وهرطقة، فينتقدها باسكال

⁴⁶ – *Nous et les autres*, p 22.

بشدة، خاصة الوثنية منها لأنها تمسكت بأخطائها وبأخلاقها المنحلة، على الرغم من اتصالها برسل المخلص ومعاينتها لعلامات مجيئه.

تمثل المركزية المسيحية الفكرة المهيمنة في كتاب **باسكال**، ف بالنسبة إليه "لولا **المسيح** ما عرفنا ما هي حياتنا، ولا ما هو موتنا، ولا ما هو الله، ولا عرفنا حتى أنفسنا"⁴⁷. فما الكتاب سوى تمجيد للمسيحية وانتقاد لغيرها : المصريون مثلاً "كانوا تدنسوا بعبادة الأوثان وبالسحر"، واليونان والرومان "عبدوا آلهة مزيفة و عظموها"⁴⁸.

المحمديون les Mahométans، وهو الاسم الذي كان يطلق في البداية على المسلمين أي أتباع **محمد** عليه الصلاة والسلام، يقول **باسكال** أنهم "قدموا لنا شهوات الأرض على أنها كل ما يمكن أن يُمتلك، حتى بعد الموت، هل قدموا لنا الدواء الشافي من غلبة الشهوات التي نعاني منها"⁴⁹.

وبين الوثنيين والمحمديين، يقع اليهود في نص **باسكال** موقع المدح والثناء تارة، بصفتهم الشعب الضارب في القدم وأصحاب أفضل كتاب من كتب البشر، وموقع الذم والنقد تارة أخرى، لأنهم لم يفهموا المعنى الضمني لكتابهم وأنه يبشر بقدوم **المسيح**، بل بلغ بهم العمى والضلال أن صلبوه لما بعث إليهم.

هكذا كانت نظرة **باسكال** إلى الآخر، نظرة ضيقة إلى العالم عبر عنها بطريقة دوغماتية. نظرة كونية تافهة كما يصفها **تودوروف**، تعرف القيم المطلقة انطلاقاً من القيم الشخصية، المطلق فيها إذن مزيف يتم الحكم من خلاله على العالم :

⁴⁷ – Pascal Blaise, *Pensées sur la religion et sur quelques autres sujets*, Guillaume Desprez, Paris, 1671, p 417.

⁴⁸ – *Ibid*, p 281.

⁴⁹ – *Ibid*, p 149.

"يعرف الحقيقي بما هو لنا، يأتي الحقيقي ليرفع مكانة ما هو لنا، إن كونية باسكال من أكثر الكونيات تفاهة"⁵⁰.

لم يعر الفرنسيون اهتماما كبيرا لهذا الفكر لتعصبه، ولأنه جاء في فترة بدأت تظهر فيها علامات ثورة فكرية، في الربع الأخير من قرن لويس الرابع عشر، كانت فرنسا مثل جاراتها من الدول الأوروبية قد أرهقها استبداد النظام الملكي مدعوما بالكنيسة. أما فلاسفة القرن الثامن عشر العقلانيون فناروا على فكر باسكال وانتقدوه بشدة، مستبدلين البحث اليائس عن الخلاص بمثالية السعادة الدنيوية.

عرفت هذه الفترة نشر ريشار سيمون Richard Simon لكتاب عنوانه *التاريخ النقدي للعهد القديم* وأتبعه بكتاب آخر *التاريخ النقدي للعهد الجديد*، داعيا من خلالهما إلى دراسة نقدية عقلية للنصوص المقدسة، مثلما فعل سبينوزا Spinoza في "مقالة في علم اللاهوت السياسي"، ففقد الكتاب المقدس قداسته، ولم يعد ينظر إليه إلا على أنه عمل أدبي لا يتعدى في قيمته الأدبية أن يكون مثل *الإلياذة* أو *الإنبيادة*.

بعد أن صار نقد *الكتاب المقدس* مباحا، توالى المؤلفات في هذا الاتجاه، اتجه العقلانية الذي بلغ ذروته مع مشروع *الموسوعة* Encyclopédie الذي أشرف عليه دينيس ديدرو Denis Diderot، فأعلن ميلاد عهد جديد سمي فيما بعد "عصر الأنوار".

⁵⁰ – *Nous et les autres*, op.cit, p 24.

3. خرافة المتوحش الطيب Le bon sauvage

من أجل انتقاد الديانات، وبيان تفاهة السياسة وفضح الظلم الاجتماعي، لجأ فلاسفة القرن الثامن عشر، على رأسهم شارل لوي دو سوغوندا مونتاسكيو Charles Louis de Montesquieu ودوني ديدرو Denis Diderot وفرانسوا ماري آروي فولتير Secondat Montesquieu، وفرانسوا ماري آروي فولتير François-Marie Arouet Voltaire، وجان جاك روسو Jean Jacques Rousseau، إلى التهكم والفكاهة كأسلوب غير مباشر يجنبهم الصدام مع السلطة.

ابتكر هؤلاء إستراتيجية أكثر أصالة وجِدّة : هي الحكم على المجتمع الذي يعيشون ضمنه من خلال نظرة الأجنبي أو الآخر إليه. فيوظف الكاتب شخصية غير فرنسية يضعها في إطار قصصي، ويجعلها تتعامل مع المجتمع الفرنسي وتتحدث عنه فترسم صورة له، بإيجابياته ومساوئه، ويمكن من خلال هذا التوظيف استنتاج نظرة الكاتب إلى ذلك الآخر. أخذ هذا الآخر صورا متعددة : فهو الفارسي عند مونتاسكيو، والصيني عند فولتير، والتاهيتي عند ديدرو.

يلاحظ القارئ للرسائل الفارسية Lettres Persanes، التي ألفها مونتاسكيو، مباشرة أنه لم يول اهتماما كبيرا لحبكة القصة ولتعقيدها، أو لعنصر التشويق فيها، وأن أساس القصة وأهم عنصر فيها هو الأحكام التي تطلقها الشخصيات القادمة من بلاد فارس على المجتمع الفرنسي، أوزبك Usbek وريكا Rica البطلان وغيرهما، إما من خلال رسائلهم إلى بلدهم أو من خلال تحركاتهما في فرنسا وتواصلهما مع الفرنسيين.

ولا يفوّت مونتاسكيو الفرصة لانتقاد التسلط الشرقي، على مستوى الأفراد أو على مستوى الدولة. تجسده على المستوى الأول زوجة أوزبك التي خانتها في غيابه، ثم انتحرت بالسم وراسلته لتعترف بذنبها ولتخبره بما عانتها من طغيانه طوال الفترة التي عاشتها معه. أما على المستوى الثاني، فيعبر ريدي Rhédi -شخصية فارسية أيضا- عن إعجابه

بأوروبا التي تعد القارة الوحيدة التي تحكمها أنظمة جمهورية، بعد تطور سياسي بدأ من الإمبراطورية الرومانية، ثم النظام الملكي ليصل إلى ما هو عليه.

"أتعلم ؟ كل هذا حدث في أوروبا. إفريقيا وآسيا كانتا دوما تحت رحمة الجور والاستبداد"⁵¹.

لا يفوتنا هنا أن ننبه هنا إلى أن الاختلاف الحقيقي، بالنسبة لمونتاسكيو، هو الاختلاف بين الأفراد وليس بين الثقافات. ونظرته إلى المجتمعات هي أنها دوائر تتأسس حول المركز، وتتأثر القريبة منه به، وتتأثر التي بعدها بها وهكذا، يتأثر الأبعد عن المركز بالأقرب. فيقلد الريف المدينة وتقلد المدينة البلاط ويقلد البلاط الأمير. يقول مونتاسكيو :

"يطبع الأمير البلاط بطبيعته الروحية، ويفعل البلاط مثل ذلك مع المدينة، والمدينة مع الأرياف. إن روح السيد عبارة عن قالب يعطي للأرواح الأخرى شكلها"⁵².

مما سجله زوار أوروبا من خلال مقارنة مجتمعا بمجتمعهم، وضعية المرأة الأوروبية ومكانتها. فعلى خلاف الحرية الكبيرة التي تتمتع بها هذه الأخيرة، يعتبر المجتمع الفارسي "النساء خلقا أدنى من الرجل ويقول أنبيأؤنا أنهم لا يدخلن الجنة أبدا"⁵³، فيخضعونهم ويبررون ذلك بالدين.

تجسد هذه الرسائل عودة النسبية، التي فقدت في الأدب الكلاسيكي، في التعامل مع الآخر، فعندما يطرح في الرسالة الثلاثين السؤال: كيف يمكن لإنسان أن يكون فارسيا ؟

⁵¹ – MONTESQUIEU Charles-louis de Secondat, *De l'esprit des lois*, Edition électronique Ligarán, 2015, p 327.

⁵² – Montesquieu Charles-louis de Secondat, *Lettres Persanes*, Baudouin Frères Editeurs, Paris, 1828, p 243.

⁵³ – *Lettres Persanes*, op.cit, p 57.

يأتي الجواب فيما بعد بنفس السؤال معكوساً: كيف يمكن لإنسان أن يكون فرنسياً ؟ ومجرد إخضاع المجتمع والثقافة الفرنسيين للمساءلة والنقد يعتبر خطوة هامة خطأها فلاسفة عصر الأنوار نحو هذه النسبية، وتعد مساءلته من طرف الأجنبي خطوة أخرى.

لكن هذا لا يعني بحال أن مونتاسكيو يضع النظريات والعادات والثقافات المختلفة على قدم المساواة أو الندية مع نظيرتها الفرنسية، بل يبقى أن العديد من المقاطع في الكتاب تبين انتصار المؤلف للعقل على حساب الإيمان، للجمهورية على حساب الديكتاتورية، للنظام الاجتماعي المؤسس على التضامن على حساب المجتمع المؤسس على الأنانية. فهذه صفات المجتمع الفرنسي وتلك صفات المجتمع الفارسي الشرقي، أي أن مونتاسكيو لم ينف الوجود الثقافي والحضاري للآخر، كما فعل كتاب المركزية المسيحية من قبل، لكنه أبقاها في المرتبة الأدنى.

بدأت إذن مع مونتاسكيو حقبة جديدة يميزها فكر جديد مؤسس على العقل والمساواة والتقدم العلمي والفني، أو هي بالنسبة لروسو بداية لخرافة جديدة شكك في صلاحيتها في رسالة تحت عنوان خطاب في العلوم والفنون (1751). ألف روسو هذا الخطاب للمشاركة في مسابقة نظمتها أكاديمية مدينة ديجون Dijon الفرنسية، حيث طرحت الإشكالية التالية: "هل ساهم تطور العلوم والفنون في تطهير الأخلاق ؟" وتحصل روسو على المرتبة الأولى مع أن أطروحته –"كلما تقدمت العلوم والفنون نحو الكمال، اتجهت أرواحنا نحو الفساد"⁵⁴– ناقضت تماماً الأفكار الرائجة والمتداولة آنذاك.

ضرب روسو مثلاً اليونان، ليثبت به صحة مقالته، فقد أبدت هذه الأمة بطولة وبأساً شديداً وحققت انتصارات عظيمة على أمم آسيا، كان هذا قبل أن تتقدم ثقافياً، لم

⁵⁴ – Rousseau Jean-Jacques, *Si le rétablissement des sciences et des arts a contribué à épurer les mœurs*, Barrillot et fils, Genève, 1750, p 16.

يجر عليها هذا التقدم سوى السقوط تحت سيطرة المقدونيين. ولم تسلم روما من نفس المصير، وهي التي انتكست تحت التأثير السلبي لفلاسفتها.

ثم يقابل روسو هاتين الأمتين بأمر أخرى بقيت على طبيعتها مثل الفرس الأوائل، والسكوثيين، والجرمانيين، والإسبرطيين. كما يذكر الهجوم الذي شنه سقراط الحكيم على السوفسطائيين في أثينا، وهجوم كاتون على خدعة الثقافة الإغريقية. يصل روسو في النهاية إلى استنتاج أن التقدم الفكري والفني يصحبه دائماً تراجع أخلاقي، فالتقدم الذي يحقق الترف والرفاهية لا يشجع سوى على البطالة والخيلاء والنفاق.

أتبع روسو خطابه الأول بخطاب آخر عنوانه خطاب عن أصل اللامساواة بين البشر وأسسها (1755)، تعمق فيه في دراسة الإنسان على حالته الطبيعية، وحاول إثبات كون اللامساواة نتيجة لتأسيس المؤسسات والملكية الخاصة، بحيث نقلت الإنسان من حالته البدائية إلى الحالة الاجتماعية والسياسية. ووصف روسو بإعجاب محاسن المتوحش الطيب الذي لا يعرف الرذائل والشهوات، إذ لا يتعامل البدائي إلا بالرحمة، ذلك الشعور الطبيعي الذي قضت عليه الحضارة.

لم تكن نظرية روسو ضد-التفكير لتلقي من كتاب وفلاسفة عصر الأنوار إلا المعارضة والرد، فأطلقوا ضده حملة انتقادات وعداء انتهت بإفقاذه عقله، فقد عاش روسو آخر أيامه مجنوناً. كان فولتير أول المهاجمين برسالة بعث بها إلى روسو، يتهمه فيها بطريقة تهكمية بالدعوة إلى التخلف والرجعية :

"ترسم بألوان حقيقية فظاعة المجتمع الإنساني الذي يعدُّ جهله وضعفه بحياة ناعمة، لم يستعمل أحد قط هذا القدر من العقل لجعلنا أغبياء. يشعر المرء بالرغبة في المشي على أربع عندما يقرأ كتابك"⁵⁵.

⁵⁵ – VOLTAIRE, *Correspondance*, La Pléiade, Tome IV, Gallimard, 1978, p 593.

يذكر فولتير مراسله بما يحققه الطب، وبما حدث لغاليلي Galilée وغيره بسبب جهل معارضيه، وبأن الحروب والثورات لم تشعلها أشعار مارو Marot ولا مسرحية السيد Le Cid، بل كان سببها المتطرفون والجهلة. ثم يذكره بأن الفن الذي يرافع ضده - أي روسو - كان هو السبب في شهرته، ويدعوه في الأخير إلى العودة إلى بلده "ليستمتع بالحرية، ولنشرب معا حليب أبقارنا ونرعى من أعشاب أرضنا"⁵⁶.

إن فولتير الذي هاجم بشراسة روسو ونظريته عن المتوحش الطيب، هو نفسه فولتير الذي أعاد توظيف هذه الأسطورة، وبالمعنى الذي أعطاه روسو إياه، في كتاب آخر عنوانه *الساذج l'ingénu*. وهي قصة شاب ينزل في ساحل منطقة بريطاني Bretagne الفرنسية، يدعي أنه من الهيرون *Huron أسره البريطانيون وجاءوا به من هناك.

استضاف الشاب راهب وأخته وأقنعه بالمسيحية فاعتنقها وصار كاثوليكيًا، ولم يكن ذلك سهلاً لأنه كان وفياً لقانون قومه الطبيعي. ثم أحب امرأة وأحبته فخطبها. أغار الإنجليز في أحد الأيام على الدير الذي كان يعيش فيه، فصد الهيروني غارتهم وأظهر شجاعة كبيرة، فأرسلوه إلى قصر لويس الرابع عشر ليكافئه، غير أنه وجد نفسه في السجن بعد سلسلة من سوء التفاهم، ولم تتمكن خطيبته التي قدمت إلى باريس من إخراجه من السجن مع أنها ضحت بشرفها، حيث استغلها أحد الفاسدين من حاشية الملك. لم تتحمل الفتاة ما جرى لها فمرضت حتى ماتت، والتحق الشاب الساذج بالجيش الملكي بعد خروجه من السجن من أجل نسيان محنته.

⁵⁶ - Ibid.

* هو اسم لثاني أكبر بحيرة من البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية، واسم كذلك لاتحاد الشعوب الخمسة التي تعيش حول هذه البحيرة ويطلق هذا الاسم على كل فيقصد به الجميع ويقصد به الشعب الواحد من هذه الشعوب.

نجد في هذه القصة، ومن خلال شخصيتها الرئيسية، نقدا لرجال الدين وللفساد الذي طغى على القصر الملكي، ومقارنة مستمرة بين الحياة البدائية والثقافة الأوروبية :

"لم يكن أبناء وطني ليعاملوني أبدا بالوحشية التي وجدتها هنا: إنهم لا يعرفونها. يسمونهم متوحشين: بل هم أناس خشنوا الطباع وطيبون، وهؤلاء رقيقوا الطباع وأنذال"⁵⁷. ويقول الهيروني أيضا:

"عشت هيرونيا عشرين سنة، يقال عنهم بربريون، لأنهم ينتقمون من أعدائهم. لكنهم لم يضطهدوا أبدا أصدقاءهم"⁵⁸.

ويبين فولتير أفضلية الحياة البدائية قائلا عن بطله:

"سبب تقدمه الذهني السريع يرجع إلى تربيته البدائية التي صانته عن الأفكار المسبقة"⁵⁹.

لم يكن ليغيب عن ذهن فولتير أنه بهذه الأفكار يوافق خصمه روسو، فيعود في الأخير لجعل بطله يقدم ما يشبه الاعتراف :

"تبدو سلالة هذه القارة أسمى من سلالة القارة الأخرى، فقد ارتقت بنفسها منذ قرون عديدة بفضل الفنون والمعارف"⁶⁰.

هذا التردد بين خرافة المتوحش الطيب وبين الأناقة الحضارية، كان حاضرا كذلك في قلب أفكار دينيس ديدرو، وقد خصص له نصوصا عديدة ومتفرقة في أعماله. في رسالة تحت عنوان الأعمال الوحشية التي مارسها الإسبانيون في أمريكا، يصف ديدرو

⁵⁷ – Voltaire, *L'ingénu histoire véritable*, Chap X, à Utrecht, 1767, p 107-108.

⁵⁸ – *Ibid*, Chap XIV, p 158.

⁵⁹ – *L'ingénu histoire véritable*, op.cit, Chap XIV, p 154.

⁶⁰ – *Ibid*, Chap XII, p 124.

في أحد هذه النصوص الكونكيستادور بالبربرية والهمجية، ويفضح تعطشهم للثروة والذهب، وتطرفهم واحتقارهم للعادات والأخلاق المحلية البسيطة، وإرادة التسلط عندهم ؛ وهي صفات دفعت الأوربيين إلى معاملة إخوانهم في الإنسانية مثلما يعاملون الحيوانات المتوحشة.

بعد ذلك يثني **ديدرو** على المجتمعات البدائية، التي جنبها نمط عيشها البسيط الفضائح والبغض والخوف من العقاب. ثم يقابل بين المتوحش والمتحضر، حيث تقتصر رغبات الأول على ما يمكن أن يحصل عليه، ويخضع الثاني لنظام ليس فيه مساواة يتمتع الأقوياء تحت ظله بحياة ناعمة غير تاركين للشعب أكثر من البؤس. وردا على فلاسفة الأنوار يقول **ديدرو** :

"أتفتخرون بأنواركم ؟ ماذا استفدتم منها ؟ [...] ما الفائدة في أن تجيدوا الكلام عن الفضيلة ولا تمارسوها ؟ ما الذي سيدين لكم به المتوحش إذا نقلتم إليه الفنون وقد كان راضيا مكتفيا دونها ؟"⁶¹

يريد **ديدرو** أن تُبنى الأخلاق على روابط أبدية، باقية بين البشر، يريد لها إذن طبيعية وكونية. فيرفض الحكم على أخلاق أوروبا بناء على أخلاق تاهيتي Tahiti، وليس العكس صحيحا، لا بد لنا من قاعدة أكد. يجب حسب **ديدرو** أن نخضع للطبيعة، والسبيل إلى ذلك هو المعرفة. مرشدنا هو الطبيعة وليست الأخلاق المصطنعة، ويضرب لذلك مثلا بالحياة الجنسية.

إن مصدر القوانين إذن، على عكس ما يعتقد **مونتاسكيو**، ليس الظروف الفيزيائية، والاجتماعية، والتاريخية. القانون الجيد لكل البشر مثل المقدمة المنطقية فهي إذا كانت

⁶¹ – DIDEROT Denis, *Politiques*, Œuvres III, Collection bouquins, R.Laffont, Paris, 1995, p 677.

حقيقية فهي كذلك لكل البشر. ما يقوم به ديدرو في الواقع إذ يريد الأخلاق طبيعية وكونية، هو أنه يحطم الأخلاق⁶².

ثم، دون أن يخشى التناقض في كلامه، يرفض في نص آخر أطروحات روسو بعد أن ساندتها. ويخاطبه قائلا: "نعم سيد روسو، أفضل الرذيلة المتجملة بثوب من حرير على غباء شديد يكتسي جلد دابة"⁶³.

يجمع بين ديدرو وروسو نصرتهما للحدثة، بمعنى المعرفة العقلية المتحررة من وصاية الدين لكن : الأول مع حتمية مطلقة ونفي تام لحرية إنسانية، والعلم هو الوسيلة للكشف عن هذه الحتمية ؛ والثاني يعترف بحتمية فيزيائية أو اجتماعية، وأيضا بالحرية وهي ما يميز الإنسان، والأخلاق مستقلة وتمتلك حق الرقابة على العلم للحكم على نتائجه بأنها مفيدة أو خطيرة.

كما يرد ديدرو في نفس النص على هيلفيتيوس Helvétius، وهو مؤلف أساسا في الرد عليه بعنوان اعترض بليه كتاب ~~ميكانيكا~~ *ز المعنون الإنسان*، حيث يعتبر هذا الأخير التربية سبب الاختلاف بين الأفراد، لأن النظام الطبيعي للبشر وبنيتهم الذهنية واحدة، وهذا ما يرفضه ديدرو إذ يقول بوجود هوة عميقة بين الرجل المتوحش ونظيره المتحضر:

"أفضل اللذات بين الأفرشة والأغطية المذهبة وفوق نعومة وسائد القصر، على البؤس الشاحب، المتسخ والبشع، مستلقيا على الأرض الرطبة القذرة، التي تشعر بالرعب بداخل كهف موحش"⁶⁴.

⁶² – *Nous et les autres*, op.cit, p 33.

⁶³ – *Politiques*, op.cit, p 697.

⁶⁴ – *Nous et les autres*, op.cit, p 34.

رغم أنه خاض معركة فكرية وناقش العديد من الأفكار ومن الفلاسفة، لم يكن ديدرو في النهاية ثورياً، بل رجل يتكلم وينتظر التغيير أو الإصلاح، وفي انتظار حدوثه يبقى ملتزماً بالواقع المفروض.

التفسير الوحيد لتناقضات ديدرو وفولتير وترددتهما في التعامل مع خرافة المتوحش الطيب، تفسير يصدق على أغلب فلاسفة القرن الثامن عشر ما عدا روسو، هو أن ثناءهم على الحياة البدائية والحالة الطبيعية للإنسان لم يكن سوى استراتيجية استعملوها لزراعة الثقافة الأوروبية المسيحية المهيمنة وتقويض بنيانها. فأرادوا بالتركيز على الجوانب ضد-الطبيعية في هذه الثقافة وعلى نسبيتها إثبات كونها ثقافة مثل غيرها من الثقافات، ولا أفضلية لها، وأنها يجب أن تخلي المكان للثقافة الكونية الحقيقية، تلك التي أسست على العقل والتقدم واحترام الطبيعة الإنسانية، والتي طالما قلل من شأنها المفكرون المسيحيون⁶⁵.

⁶⁵ – *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, op.cit, p 60.

4. سلم ترتيب الثقافات

في القرن التاسع عشر، استبدل الكتاب المفكرون الرؤية الكونية للثقافة، التي أسس لها وبسطها فلاسفة الأنوار، بتصور وطني أو حتى محلي لعدة ثقافات. بداية من الرومانتيكيين الذين دفعهم ميلهم إلى التفرد وإلى سحر أساطير الأزمنة الغابرة إلى دراسة أكثر جوانب الأمم خصوصية وتمييزا لها. مما دفعهم أيضا إلى إحياء الأساطير والخرافات التي تروي بدايات الأمم.

أيقض هذا التيار الجديد النزعة الفردانية عند الشعوب الأوروبية وزاد من حدتها، كما ساهم في إحياء الآداب المحلية: مثل الكتالانية، والبروفانسالية، والإيرلندية، والصربية، والكرواتية، وغيرها. والتي كانت تجتمع في أدب واحد ينتمي إلى المملكة أو الإمبراطورية المهيمنة.

عبر الرومانتيكيون من خلال هذا العمل عن رفضهم لتقديس الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية التي طغت على الجمالية الأدبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ثم شرعوا في البحث عن الأصول القديمة للحضارة الغربية، فيما هو أقدم من اليونان وبيت المقدس، وهكذا ظهرت الأسطورة الهندو-أوروبية.

الاهتمام بالهند كان قد ظهر في أواسط عصر الأنوار، القرن الثامن عشر، واكتشف الدارسون العاملون في هذا الميدان آنذاك النصوص المقدسة الهندية الضاربة في القدم، مثل الفيدا Vedas والزند آفيستا Zend Avesta ، تلاه اكتشاف باحثين ألمان وفرنسيين لكنوز أدبية هندية مثل ملاحم الرمايانه Ramayana والماهابهاراتا Mahabharata من جهة، واكتشاف علماء اللغة الألمان وجود قرابة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية اللاتينية والجرمانية. فأصبحت الهند القديمة، في أعين الأوروبيين، منذ ذلك الحين الرحم الذي خرجت منه الحضارة العالمية :

"مهد العالم، المنبع الرئيسي والمهيمن للأجناس البشرية، والأفكار واللغات، بالنسبة لليونان وروما وأوروبا الحديثة"⁶⁶.

أول شعب سكن الهند، حسب المختصين في الدراسات الهندية في تلك الفترة، هم الآريا Aryas أو الآريون، بناء على هذه الاستنتاجات، افترض الأوروبيون وجود عرق أو جنس آري كان هو أصل الشعوب التي انتشرت في الغرب فيما بعد: الهنديون، والفرس، واليونانيون، والرومان، والجرمانيون.

صار الآري يمثل بالنسبة للأوروبيين رمزا لجوهر الإنسان، تقابله أجناس أدنى منه مرتبة : الساميون، والسود، والجنس الأصفر. وتأسست الخرافة الآرية التي استخدمت كمبرر إيديولوجي للحملات الاستعمارية التي شنتها أوروبا بدعوى إنجاز مهمة إيصال الحضارة إلى الشعوب البدائية، مهمة كلفت بها نفسها ولم يكلفها بها أحد.

رسخت هذه الاكتشافات التفكير النسبي وأعطته المزيد من القوة، غير أنها نسبية أبعد ما تكون عن نسبية مونتاني المبنية على التسامح، إنها نسبية مبنية على الحس التاريخي بأن أحكام البشر تتغير بتغير الزمان والمكان. يقول تودوروف : "صارت النسبية الثقافية أو التاريخية للقيم محل اتفاق في مجتمعنا ؛ ترافقها في الغالب بالتصريح أو بانتمائنا إلى سلاسل أو إلا سلاسل فرعية مختلفة، أو على الأقل بالاستحالة المبدئية للتواصل بين الثقافات"⁶⁷.

يؤدي هذا الاستنتاج الأخير (استحالة التواصل بين السلاسل والثقافات) إلى التفكير في تصنيفها وترتيبها، ليكون بعضها أسمى من بعض، ثم إلى التفكير في مصير كل منها. أسهمت النسبية إذن في ظهور النظريات العنصرية.

⁶⁶ – MICHELET Jules, *La bible de l'humanité*, F. Chamerot libraire-éditeur, Paris, 1864, p 26.

⁶⁷ – *Nous et les autres*, op.cit, p 79.

نقطة البداية، يرجعها تودوروف إلى صدور كتاب *التاريخ الطبيعي* Histoire Naturelle لعالم الأحياء الفرنسي جورج لوي بوفون Georges-Louis Buffon، والذي خصصه لدراسة الإنسان. يعدّ هذا الكتاب نقطة البداية في تشكل النظرية العنصرية، أو العرقية، لأنه تتويج لنصوص عديدة من أدب الرحلة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبمثابة الخلاصة لها، ولأنه ترك بالغ الأثر في الأدبيات التي جاءت بعده، أثر حاسم يعود لنوعية الكتاب، ويعود خاصة إلى سلطة صاحبه العلمية. سلطة يلزم غيره بالخضوع لها، ولم يخضع هو لها.

هذا الكتاب امتداد للإيمان بهرم ترتيبي للقيم، قمته الحضارة الأوروبية، كان مشتركا بين العديد من كتاب *الأنسيكلوبيديا* (الموسوعة) ؛ غير أن الوقت كان لا يزال مبكرا للكلام عن النظريات العرقية : توقف هناك الكتاب عند ترتيب للثقافات وليس للأجساد.

ينطلق بوفون من "افتقاد الحضارة" كمسلمة تتيح له استنتاج قلة عدد السكان، وهذا أمر يعود للملاحظة أكثر منه إلى الاستنتاج. ومن عيش بعض الشعوب (يضرب بمثلا على ذلك العرب) دون قوانين، ودون شرطة ودون مجتمع تقريبا، ومن لغتهم البسيطة والموحدة، يستنتج ضعف الرصيد الفكري لديهم. يتساءل بعد ذلك عن ما من شأنه أن يصنع التنوع في السلالة البشرية، فيعدّ ثلاثة معايير : لون البشرة، وشكل الجسد وحجمه، وهو ما يسميه المعيار "الطبيعي".

ولا يتوقف بوفون عند هذا الحد، بل يتواصل تسلسل أفكاره حتى يخلط لديه الطبيعانية بالأنثروبولوجيا، حيث يرتبط الجسدي بالذهني ارتباطا وثيقا، سيكون إذن البربري بربريا والمتحضر متحضرا ولو وضعنا في نفس البيئة، مثلما يبقى الأسود أسودا والأبيض أبيضاً والأصفر أصفر، ولذلك كان الاستعباد أمرا مشروعاً.

وجدت الخرافة الآرية أبلغ تعبير عنها في فرنسا بقلم الكونت آرثور دي غوبينو Arthur de Gobineau، في كتاب من جزأين عنوانه رسالة في عدم تساوي الأجناس البشرية، صدر في منتصف القرن التاسع عشر (1853-1855). صار هذا الكتاب المرجع لمنظري العنصرية، واعتبر الكثير منهم غوبينو كاتباً عنصرياً ومعادياً للسامية، مع أن بعضهم لم يقرأ له واعتمد في حكمه على مجرد عنوان الكتاب، كما اعتبروه واضع أسس الإيديولوجية النازية.

لكن هذه القراءات، كما يقول إيلادان، كانت بعيدة كل البعد عن معنى الكتاب ومغزاه:

"القضية المركزية للرسالة في عدم تساوي الأجناس البشرية لم تكن في الحقيقة إثبات سمو جنس على جنس آخر، بل هي أن تاريخ البشرية عبارة عن تمازج متواصل ودائم بين الأجناس والثقافات، إلى درجة أنه لم يعد هنالك جنس أو عرق نقي منذ قرون قبل ميلاد المسيح. وأراد غوبينو أيضاً إبطال حجج من يفسرون سقوط الحضارات بتطرف أصحابها وبالبدخ في العيش أو بفساد الأخلاق أو فساد الحكومات، ويقترح هو اختلاط الأجناس كسبب لسقوط كل المجتمعات البشرية"⁶⁸.

مهما تكن قضية غوبينو فإن الأثر الذي أحدثه ثابت، أي كونه صار مرجعاً للنظريات العنصرية بعده. قد يكون سبب هذا الغموض وسوء الفهم الذي أحاط بالكتاب حجمه فهو كتاب كبير، وكذا توظيفه في آن واحد لعدة علوم كانت حديثة جداً في تلك الفترة وبعضها لم يكن قد اكتمل بعد : الإثنولوجيا، والإثنوغرافيا، وتاريخ الذهنيات، وعلم الاجتماع، والفيزيولوجيا، واللسانيات، وتاريخ الديانات، والاستشراق، والدراسات الهندية، والميثوغرافيا، وعلم الآثار. يفسر هذان السببان صعوبة فهم عمل غوبينو، بالإضافة إلى

⁶⁸ - Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive, op.cit, p 63.

غموض بعض الحجج والتعاريف التي قدمها، بل إن الاضطراب وقع حتى في تعريفه لمفهوم العرق أو الجنس، الذي يمثل مفتاح كتابه.

يعرفه في بداية الكتاب بأنه "القدرة الحضارية أو التحضيرية" (إن صحت ترجمة كلمة civilisatrice) أو أنه "الميزات الأخلاقية أو المعنوية"، لأنه لا يوجد شعب بلغ من البلادة حدا لا يمكن معه تمييز غريزة مزدوجة لديه: غريزة الحاجات المادية وغريزة الحياة المعنوية". ثم يعرفه في الفصل الحادي عشر بأنه تواصل النمط الفيزيولوجي، ويضرب مثالا على ذلك اليهود والعرب الذين حافظوا على نمطهم الفيزيولوجي -أو شكلهم- مع أنهم هاجروا واستوطنوا مناطق مختلفة من العالم.

وينتهي غوبينو دائما عند كلامه عن جنس من الأجناس إلى تقديم الجانب الثقافي على الجانب العرقي في ترتيبه وفي الكلام عن ما قدمه ذلك الجنس للإنسانية. أما السود فيصفهم بشاعرية قوية تقربهم من الحياة البهيمية، ثم يناقض نفسه بأن يعترف بامتلاكهم لعبقرية فذة في الفن. ويتجلى هذا التقديم للجانب الثقافي أكثر في ثناءه على الشعب اليهودي :

"ماذا كان اليهود في هذا الركن من العالم ؟ أقول وأعيد، كانوا شعبا متحررا، شعبا عبقريا، ترك للعالم قبل أن ينهزم بشرف وبيده سلاحه من العلماء بقدر ما ترك من التجار"⁶⁹.

قد تكون هذه العبارة جوابا على من اعتبروا غوبينو منظرا للنازية أو للعنصرية، وكذلك كونه أنكر وجود الجنس الآري النقي وأثبت اختفائه منذ عدة قرون كما قدمنا.

⁶⁹ – GOBINEAU Arthur, *Essai sur l'inégalité des races humaines*, in *Œuvres*, bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, 1983, p 84.

غير أنه اعتبار لا يخلوا من صدق، فهو يعود غير مبال بأنه يناقض نفسه إلى التصنيف ويعتبر الرجل الأبيض أسمى من الرجل الأسود، مع أن هذا الأخير كان سببا في تفجير عبقرية الأول بشاعريته البالغة عند اللقاء بينهما، لكنه لم يترك أثارة واحدة وأنشأ الأبيض حضارات عشا عدها **غوبينو** في كتابه. والغريب أنه لم يرد من بينها، مع طول الكتاب وتقريعاته، ذكر للعرب ولا الفرس ولا العبرانيين ولا الغوليين ولا اليابانيين ولا الإسكاندينافيين مع أنهم شعوب بيضاء وحضارات معترف بها.

إن سوء فهم **غوبينو** -إن كان سوء فهم- وتوظيف نصه واستغلال أفكاره من طرف منظري العنصرية والفاشية كان له بالفعل من أمثلة الكتاب وحججه ومفارقاته ما يبرره. هذا موقف يصير عليه المدافعون عن **غوبينو** -إيلادان وغيره- إلى يومنا هذا، أنه أسوء فهمه، مع أن عنصريته وتناقضاته قد كشفها ورد عليها حتى معاصروه.

من بينها أنه ينطلق من التمييز بين البشر والحيوان على أساس العقل، ثم يعود عند الكلام عن البشر إلى التمييز البيولوجي البحث ويستخدم في كلامه الكثير من الاستعارات من علم البيولوجيا، مثل **بوفون**. ثم إنه، رغم احترامه للعقيدة المسيحية القائلة بالأصل الواحد للإنسان، يتبنى تعدد الجينات أو الأصول، مثل **فولتار**، وكذا قابلية بعض الأعراق لتصبح مثالية وعدم قابلية البعض الآخر للتغيير. وبهذا يمثل **غوبينو** حلقة قوية في سلسلة النظريات العنصرية التي تبدأ عند **فولتير** و**بوفون** وتنتهي عند **رينان** و**لوبون**.

هذا على الرغم من وقوفه ضد المركزية الإثنية العمياء، وينتقد بشدة كراهية الأجنبي، وهذا حسب **تودوروف** لأنه دبلوماسي فحسب. وينقل هذا الأخير عن أحد من عارضه من معاصريه قوله بأنه -أي **غوبينو**- : "لم يقترح أن يعرف ويقول حقائق الأشياء، بل أن يريح الفيلائنتروfia (Philanthropie محبة الإنسان، الإنسانية) التي تؤنبه.

يعتقد غوبينو أنه يقوم بالعكس غير أنه في الواقع يقوم بنفس الشيء، وجعل من الفيلانتروfia إيديولوجيا⁷⁰.

وفي مشكلة الأخلاق والعلم ينتقده **توكفيل** Tocqueville، الذي يؤمن بتأثير التربية على العرق، وبأن التباين في الوسائل لا يعني التباين في الحقوق، قائلاً بأن موقفه الوضعي المادي ينتهي إلى "حصر كبير للحرية الإنسانية أو هدم كامل لها"⁷¹.

لا يتميز غوبينو إذن عن الباقيين ممن ذكرنا بنظريته العنصرية، غير أنه ينفرد بتصوره للحضارة، مصطلح يستخدمه بمعنى جديد يضعه هو له، لكنه لا يبتعد كثيراً عن تصور الحضارة لدى فلاسفة الأنوار. ويجعل منها -الحضارة- معياراً للتمييز بين الأعراق، وبعد أن يقابل "الاستقرار بالحركة"، و"الثبات بالتغيير"، يصبح مفهوم الحضارة عنده هو "حالة استقرار نسبية"، والمتحضر هو الذي تتوازن عنده المعايير المذكورة، وهو العرق الأبيض.

العرق الأبيض هو الوسط، وهو العرق المنتخب الذي دفعته الميول الحضارية التي يمتلكها إلى الاختلاط بالشعوب الأخرى. ليس الاختلاط سوى كولونيالية وأمبريالية كما يعلق **تودوروف** على الأمثلة التي يضربها غوبينو، إذ أنه لا يتصوره إلى على شكل إخضاع، يمثله بالنسبة إليه **قيصر وشارلمان**. وعن ربطه للقوة العسكرية بالسمو الروحي وجعلهما متلازمين، يعلق **تودوروف** بأن التاريخ أثبت العكس⁷².

تلقف من بعد غوبينو أطروحة سمو العرق الهندو-أوروبي **إيرنست رينان** Ernest Renan، وبينما تفرد الأول بتعريفه للحضارة وتقاؤه بأن الحضارات في النهاية ستختلط، أضاف الثاني لمفهوم العرق المتفق عليه مفهوم الأمة المكمل له. مبدأ العرق يقرنا من

⁷⁰ - *Nous et les autres*, op.cit, p 149.

⁷¹ - *Ibid*, p 149.

⁷² - *Nous et les autres*, op.cit, p 157.

الحيوان، ومبدأ الأمة يقربنا من الإنسان، فكرة ورثها رينان عن ميشلي. ويتأسس العرق على قاعدتين : قاعدة فيزيولوجية هي من شغل الأنثروبولوجيا، وأخرى ثقافية تلعب فيها اللغة الدور الكبير كما سيأتي، وهذه من شأن فقه اللغة.

ولهذا عرض رينان تصوره في كتاب عنوانه "تاريخ عام للغات السامية" (1855)، وكان على وعي بالتعقيد الذي يحيط بمفهوم العرق أو الجنس:

"يجب فهم الأحكام التي تطلق على الأجناس على وجه فيه الكثير من الاستثناءات"⁷³.

فهناك حسبه عناصر أخرى يعادل تأثيرها أو يفوق تأثير الدم (الأصل)، بل قد يحيله إلى عدم. الأعراق بالنسبة إليه عبارة عن قوالب تربية أخلاقية أكثر مما هي قضية دم. ويضرب رينان لذلك مثل بني إسرائيل المنحدرين من سلالة سكان فلسطين القدامى، والذين أصبحوا اليوم شعبا حديثا ومندمجا بفعل "تلك القوة التي تغلب العرق وتهدم الأصول المحلية، والتي نسميها الحضارة"⁷⁴.

لم يتميز العرق الساميّ -من الساميّة لا من السمو- بشيء سوى اللغة والدين، وينفي رينان عنهم أية عبقرية في ميادين الفلسفة والعلوم التي برعت فيها الشعوب الهندو-أوروبية، من أقاصي الهند إلى أبعد نقطة بلغت في الغرب، ذلك أنهم حاولوا تفسير الكون والإنسان تفسيراً عقلياً. النتيجة إذن دونية الساميّين :

"أنا إذن أول من يقف على كون الجنس السامي يمثل، مقارنة بنظيره الهندو-أوروبي، تركيبة أدنى من الطبيعة البشرية. فهم لا يمتلكون ذلك السمو الروحاني الذي لا نجده إلا في الهند وفي جرمانيا، ولا حس القياس والجمال الذي أورثه اليونان للأمم

⁷³ – RENAN Ernest, *Histoire générale des langues sémitiques*, in *Œuvres complètes*, VIII, Calmann-Lévy, 1958, p 139.

⁷⁴ – *Histoire générale des langues sémitiques*, op.cit, p 139.

اللاتينية بعدهم، ولا الحساسية المرهفة والعميقة التي تميز الشعوب السيلتية
Celtiques"⁷⁵.

ينطلق رينان بعد هذا الطرح في تفسير الاختلافات الثقافية والاحتجاج لدونية الجنس السامي التي صرح بها في البداية، وهم قوم لا يتميزون سوى بصفات سلبية. السبب الأول في الاختلاف هو الدين، فالهندو-أوروبيون لم يعتبروه حقيقة مطلقة فتحرر بذلك فكرهم وشرعوا في البحث الفردي عن الحقائق. وجعلت ديانة التوحيد بالمقابل الساميين منغلقيين، وحصرت فضولهم، وقيدت مخيلتهم، فلم يكن في أدهم إلا جنس واحد، القصيدة عند العرب والماشال عند اليهود، لا يمتلك هذا الجنس :

"ميثولوجيا، ولا ملحمة، ولا علما ولا فلسفة، ولا فنونا تشكيلية، ولا حياة مدنية في الجملة. وليس غياب التعقيد والتفريق بين درجات الشيء إلا شعورا بالوحدوية"⁷⁶.

عبرت اللغات السامية التي درسها رينان في رسالته عن هذه العيوب في الفكر، فهي -العيوب- خصائص لها، وهذه اللغات هي: العبرية، والفينيقية، والآرامية، والنبطية، والسريانية، الإثيوبية، والعربية. فاستدل بذلك على دونية واضحة في القدرات العقلية والفكرية.

لا يمكن لرينان إنكار بعض الحقائق اللغوية أو التاريخية، فاعترف لهذه اللغات ببعض الميزات مثل الميل إلى التجسيد والرقعة في التعبير عن المشاعر، كما أن لكليهما نظاما نحويا، خلافا للغة الصينية مثلا، واعترف أيضا بأن عيوب الذهن السامي لم تمنع إسرائيل القديمة من الوصول إلى الكمال المطلق في ميدان الأدب، ويقصد هنا الكتاب المقدس، إلى كمال يؤهلها حسبه إلى أن تصنف مع الإنتاجات الأدبية الكبرى لليونان.

⁷⁵ - *Ibid*, p 145-146.

⁷⁶ - *Histoire générale des langues sémitiques*, op.cit, p 155.

تقود هذه الأفكار -والحقائق التي لا يمكن إنكارها- رينان إلى القول بأن دراسة الصفات الخلقية والخلقية للجنسين السامي والهندو-أوروبي تعطي دلائل قاطعة على أنهما كانا أمة واحدة، فكلاهما أبيض، وأنهما ينتميان إلى عائلة واحدة : أصحاب الحضارة، أي أنهما لم تعيشا الحالة البربرية. خلال هذه الفترة (فترة الوحدة)، ارتبط الجنسَان روحياً بفضل التبادلات الثقافية، حيث عرّف الساميون الآريين بالأفكار الدينية الراقية، وعرّف الآريون الساميين بالفلسفة والعلوم.

لكن الفكرة الرئيسية والوجهة الأساسية سرعان ما تعود إلى الواجهة، فيخلص رينان إلى أن الساميين دخلوا، بعد أن أرادوا فرض ديانة التوحيد على شركائهم في الحضارة، في نفق مظلم وبدأت حضارتهم في السقوط ليتركوا قيادة دفة الحياة الثقافية البشرية للآريين.

يستخدم رينان كلمة عرق استخداماً مبهماً، ويحاول إضفاء الشرعية على استخدام عبارة "الأعراق اللسانية"، المصطلح الذي نحتة فقه اللغة، لكن هذه الأعراق التي يتحدث عنها لا تعدو أن تكون في النهاية سوى "الأعراق الفيزيولوجية" التي يتحدث عنها غيره من مفكري النظرية العنصرية. وما يقال في اللغات، بالنسبة لرينان، يقال في الثقافات التي يعتبرها كتيمة ⁷⁷impermeables، وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية في النظرية العنصرية، لا تقبل الأعراق التغيير والتطور فيما بينها، لكل أصله الذي يحدد مصيره.

لم يكن هذا الكتاب العمل الوحيد الذي أنجزه رينان، فقد نشر دراسات للفلسفة الإسلامية، العربية التي أفسدها بالنسبة إليه التطرف العقدي الإسلامي، ودرس كذلك التاريخ الإسلامي والفرق والمذاهب التي انقسمت إليها الأمة الإسلامية، وتميزت دراساته هذه بالعمق وبمتانة التوثيق، غير أن الخط الفكري المتبع فيها لم يتغير، لكن هذا التوسع جعله حذراً إلى حد ما في التعامل مع الخرافة الهندو-أوروبية ومع فكرة ترتيب الأجناس.

⁷⁷ – *Nous et les autres*, op.cit, p 169.

تعد أوروبا الحديثة وريثا للحضارتين، روما التي تمثل الوحدة السياسية، واليونان التي تمثل التنوع، كما أن اللغة الفرنسية وريثة للغتيهما، وهي بتعقيد نظامها النحوي وتصريف الأفعال فيها تعبر على السمو، وهي بالتالي ضرورية للنظام العام للحضارة حسب رينان، فلا بد من الحفاظ عليها والعمل على نشرها. ولا يجد رينان حرجا في يطلق العنان لقلمه متفاخرا بنفسه وباللغة الفرنسية.

يمكن تلخيص التناقضات التي لاحظها رينان، وبنا عليها تمييزه في : التفكير مقابل الإيمان، الحقيقة أو الوحي، الفلسفة (العلم) مقابل أو الدين. كانت الديانات في فكر رينان محل احتقار لكنه اهتم بدراستها مبررا ذلك بأنها تعطي علم التاريخ ما تعطيه دراسة الجنون لعلم النفس من التوضيحات. يكون الدين بهذا خاضعا للعلم، لكن رينان بلغ في ذلك مبلغا صار العلم به إلها له، وحول أفكاره اللاتينية إلى مصطلحات مقدسة، صار رينان كما يصفه تودوروف كاهن العلم الأكبر⁷⁸.

كان رينان حذرا إلى حد ما في التعامل مع هذه القضية، ومتريدا أحيانا في طرح الأفكار أو في التصريح بها، وهو حذر افنقده غيره، على رأسهم ميشلي في كتاب الإنسانية المقدسة La bible de l'humanité (1864)، ليصرح بالسمو المطلق للثقافات الهندو-أوروبية على نظيراتها السامية. فقابل بداية من السطور الأولى لكتابه "ثالوث الأنوار" المتكون من الهند القديمة وفارس واليونان، بـ"عبقريّة الجنوب المظلمة"⁷⁹ المتكونة من مصر وسوريا ويهودا. ثم خصص لكل ثقافة من هذه الثقافات فصلا تكلم فيه عنها مركزا على العلاقات التي ربطت كل واحدة بالكلام، وبالشهوة واللذة، وبالإلهيات، وبالقانون.

⁷⁸ – *Nous et les autres*, op.cit, p 177.

⁷⁹ – *La Bible de l'Humanité*, op.cit , p VI.

كانت شعوب الأنوار، وهم أجداد الرومان والسيلتيين والجرمانيين، عبقرية. تجسدت عبقريتهم في وضع نظريات وأشكال وفنون ضرورية لحياة البشر. أما شعوب الظلام فقد تجاهلت القيم، ومثلت الجهة المهلكة من العالم التي يهيمن عليها فتنة الأحلام، والسحر، والإيمان العنيف المظلم. عبدت هذه الأمم إلهة لا إلهاء، وأخذت هذه المعبودة الأنثى شكلا واسما مختلفا، في كل بلاد إيزيس في مصر، أو أستاروث في سوريا، وكانت رمزا للسفاح والدعارة والتخنث. ووصلت حتى بلاد فارس واليونان وأثرت عليهم. حيثما حلت هذه الإلهة حل السكر والرقص والعريضة.

رمزت الإلهة للصدفة، التي أدت إلى نظرية الاختيار والشرف، والتي جعل منها اليهود قطب رحى ديانتهم. أقام ميشلي هذه العلاقة ليشرع في طعن لاذع في الكتاب المقدس، ويخصص للثقافة اليهودية في كتابه فصلا تحت عنوان "اليهودي العبد" :

"اليهودي في الحقيقة عبارة عن ما يلي: أنا السعيد الذي سينصفه الإله بنفسه، لماذا ؟ أنا شعب الله المختار، ابن الخطوة الإلهية. لكن لماذا أنا مختار ؟ وبأي حق عقد الإله الحلف الأبدي مع إبراهيم ويعقوب ؟ لا حق لهما، لكنهما أعجباه"⁸⁰.

ثم يأخذ على الكتاب المقدس جفاف الخطاب فيه وصلابته. يفسر عداء ميشلي الشديد للثقافات المصرية والسريانية والعبرانية عداؤه شديد العنف للكنيسة، فهدفه من وراء هذا كله كان إثبات الأصول الشرقية للديانة المسيحية ليخرجها من ثالث الثقافات المستتيرة.

يتضح الأمر في آخر فصول الكتاب لما يركز ميشلي على أنثوية الديانة المسيحية، لتبدو دون ثقافات الهند وفارس واليونان المستتيرة والفحولية. تفسير خصوصية الثقافة بإرجاعها إلى الجنس، استخدمه غوبينو من قبل، لكنه نسب إلى الأنوثة الجنس الأسود،

⁸⁰ – La Bible de l'Humanité, op.cit, p 277.

ولم يفعل ميشلي سوى أن نقل هذه الصفة إلى المشرق. وهذا يدل على اعتبارية الفكرة وعدم تأسيسها على أية قاعدة.

لم يتوقف تطور النظرية العنصرية عند هذا الحد بل واصل سيره في خط تصاعدي إلى أن وصل إلى ذروة تم استبداله بعدها بمصطلح آخر، كما سنبين. المرحلة الموالية كانت أعمال هيبوليت تان، المؤرخ والناقد الغني عن التعريف صاحب مقولة العوامل الثلاثة التي تصنع النص الأدبي : العرق والبيئة والعصر.

من بين الأمور التي تغيرت عند تان، زاوية النظر إلى العرق الذي لم يعد يصنع التاريخ، بل التاريخ هو من يصنع العرق. وبالتالي يكون من الممكن إحداث تغييرات على العرق أو توجيهه في اتجاه معين، يمكن ذلك حسب تان من خلال تغيير المؤسسات أو أشكال الحياة الاجتماعية : أعمال كهذه "تفعل بالأمم ما تفعله التربية والمهنة والظروف والرحلة بالأفراد"⁸¹.

لم يستقر مصطلح عرق في نصوص تان على مفهوم واحد، فهو يستخدمه لكن الانطباع الذي يعطيه، أو المفهوم الذي يحيل إليه في السياق هو أنه مجرد مرادف : مرة لأمة، ومرة للعنصر الأساسي، أو القدرة الأساسية.

بعد تان، وبحاجية مزدوجة، يعارض بها بعض ما جاء به تان حول إمكانية التغيير، جاء غوستاف لوبون ليكمل الخط التصاعدي للنظرية العنصرية. وبقدر ما كانت بعض تحليلاته مفيدة لفهم حركة المجتمعات، كما أوردنا في سياق الكلام عن الإيديولوجيا سابقا، كانت أفكاره العنصرية متصلة ومتطرفة.

نعني بازواجية حاجية لوبون أن فيها شقين : شق انتقادي أو ناف، وهو النفي أو الرفض المطلق لفكرة إمكانية تغيير الذهنات، والثاني إثباتي، وهو التأكيد على أهمية

⁸¹ – *Nous et les autres*, op.cit, p 182.

العوامل الوراثية. يرد بذلك على بعض المفكرين، على رأسهم **توكفيل**، الذين يرون بأن المؤسسات التي تدير الشعوب هي التي تطورها، في حين يرى **لوبون** بأن للمؤسسات أهمية ضئيلة جدا في تقدم الحضارات. يصف **لوبون** المشروع التربوي بأنه "أحد أكثر الأوهام شؤما من بين تلك التي جاء بها منظرو العقل النقي"⁸².

من أجل توضيح هذه الفكرة، يجسدها **لوبون** في المثال الآتي : "يمكن بسهولة أن نجعل من زنجي أو ياباني يتحصل على شهادة البكالوريا أو يصبح محاميا، لن يكون ذلك سوى ملمعا سطحيا، ولن يكون له أدنى أثر على تكوينه الذهن. [...] سيجمع هذا الزنجي أو الياباني كل الشهادات الممكنة، دون أن يصل أبدا إلى مستوى الأوروبي العادي".

أو يقول أيضا : "يمكن أن ننشئ على الطريقة الأوروبية جيشا من الزوج، ونعلمهم التحكم بالبنادق والمدافع، لن نغير بذلك دونيتهم الذهنية وكل ما ينجم عن تلك الدونية"⁸³.

لا فائدة إذن من إخضاع الأعراق غير الأوروبية التربية الأوروبية، بل يذهب **لوبون** إلى أبعد من ذلك بالقول بأنها ليست غير نافعة لهم فحسب بل هي ستفسدهم، لأنها تهدم القديم ولا تحل محله شيئا؛ وحسب التعبير المتأخر لأنصار الكولونيالية، تترك هذه الشعوب الطفولية في منتصف الطريق.

على الرغم من وجود بعض الاختلافات أو حتى التناقضات بين منظري العنصرية، في توظيف المفاهيم أو في زوايا النظر إلى المسألة، لكننا نجدهم مجمعين على الحتمية الصلبة في القول ببقاء "الفرد عاجزا أمام العرق، يقرر الأجداد مصيره ولا تجدي الجهود

⁸² – *Ibid*, p 184.

⁸³ – Gustave Le Bon, *Les lois psychologiques de l'évolution des peuples*, Félix Alcan, Paris, 1895, p 61.

التربوية شيئاً⁸⁴. وما قلناه عن إيمان تان بإمكانية التغيير عن طريق المؤسسات، ينطبق على العرق لا على الفرد.

من بين القلائل الذين رفضوا هذه الأطروحات في تلك الفترة فيكتور هيجو Victor Hugo، الأديب و السياسي الشهير، ونقضها بطريقة غير مباشرة، في رسالة له عنوانها ويليام شكسبير William Shakespeare (1864)، ضمنها خلاصة أفكاره وآرائه الجمالية والاجتماعية والسياسية، ودرس فيها مفهوم العبقرية وحل وظيفة الشاعر في المدينة والدور الحضاري للأدب، ورسم قبل ذلك كله لوحة لتاريخ الأدب تضمنت أربعة عشر كاتباً، من هوميروس Homère إلى شكسبير يجسد كل واحد منهم ملكات العبقرية، كما خصص فصلاً للأعمال الجماعية من الفيدا الهندية إلى الرومانسيرو الإسبانية.

يظهر في لوحة هيجو كاتبان إغريقيان، وثلاثة من كتاب الكتاب المقدس، وثلاثة إغريقين، وحواريان مسيحيين، وواحد إيطالي، وواحد من الغول (فرنسا قديماً)، وواحد إسباني وواحد إنجليزي، أما ألمانيا فقد فضل هيجو تمثيلها بالموساكار بيبتهوفن Beethoven، وبجعل كل هؤلاء على مستوى واحد، دون ترتيب أو رفع لأحدهم على آخر أو جعل أحدهم أصلاً لغيره، فكك هيجو الخرافة الهندو-أوروبية، كما أبدى إعجابه الكبير بالكتاب المقدس في عدة مواضع من كتابه.

لم يرد في هذه الرسالة أدنى ذكر للحضارتين العربية والصينية، لكن ذلك لم يكن نسياناً منه أو حكماً مسبقاً عليهما، فقد أفرد هيجو كل واحدة منهما بكتاب، فكان للأدب العربي نصيب من ثناء الكاتب وإعجابه في كتاب *المشرقيات* Orientales، وللقصر

⁸⁴ – *Nous et les autres*, op.cit, p 184.

الصيفي في الصين نصيب في الحملة الصينية، إذ قارنه بأكبر المعالم التاريخية التي خلفتها الحضارات الكبرى، كثمرة لإبداع "خيال أمة إنسانية خارقة" ⁸⁵ Extrahumain.

ثم يؤكد هيجو على نسبية مفهوم البربرية فيقول في سياق الكلام عن الصين :

"نحن الأوروبيون، نحن المتحضرون، الصينيون بالنسبة لنا بربريون، هذا ما فعلته الحضارة بالبربرية" ⁸⁶، مشيرا هنا إلى إضرار جنديين أوروبيين، إنجليزي وفرنسي، النار في القصر الصيفي ونهب قطع ثمينة منه وتهريبها إلى أوروبا.

يلاحظ إذن أن رؤية فيكتور هيجو للثقافة كانت رؤية كونية، وهي لا يمكن أن تكون إلا كذلك بالنسبة لرائد الجمهورية الكونية ⁸⁷.

هذا ما وصلت إليه صورة الآخر في الأدبيات الفرنسية في القرن التاسع عشر، بعد مراحل من التطور وصلت بها إلى الخرافة الآرية أو الهندو-أوروبية، وإلى ترتيب الأجناس البشرية وجعل بعضها أدنى من بعض، فاستحق الأرقى استعمار الأدنى واستغلاله، وكان الأدنى أهلا لذلك. ومع وجود هيجو وقلة ممن فندوا تلك المزاعم، بقي التيار المهيمن والأكثر تأثيرا على الرأي العام وعلى القرارات السياسية هو الأول.

لقد تكوّن لوي برتران في هذا الجو، وظهر الأدب الكولونيالي، والثقافة الأوروبية على هذه الحال، وكان أثر هذا التيار واضحا عليه، بل إنه كان القاعدة التي أسس عليها ليأخذ فيما بعد شكلا خاصا بخصوصية المنطقة والظروف. فيتبادر إلى الذهن التساؤل عن هذه الخصوصية، وقبل ذلك عن ما إذا كانت صورة الجزائر في الأدب الفرنسي هي جزء مما قدمنا أو أنها أفردت بمعاملة خاصة.

⁸⁵ – HUGO Victor, *Politique*, Collection Bouquins, R.Laffont, 1998, p 527.

⁸⁶ – DIDEROT, *Politique*, op.cit, p 528.

⁸⁷ - *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, op.cit, p82.

الفصل الثاني: صورة الجزائر

في الأدب الفرنسي قبل

احتلال الجزائر وبعده

تساءلنا في نهاية الفصل السابق عن ما إذا كانت للجزائر والجزائريين خصوصية، أي معاملة خاصة في الأدب الفرنسي، بحكم قربها الجغرافي الذي فرض بين البلدين علاقات سياسية واقتصادية، وبالعودة إلى نفس التاريخ الذي انطلقنا منه في الكلام عن الآخر في الأدب الفرنسي بصفة عامة، سنتحدث عن الآخر الجزائري بصفة خاصة لتتضح بالمقارنة خصوصيته، كما سيشكل الفصل السابق الخلفية الفكرية للتعامل الأدبي مع الجزائر.

ليس هنالك بد أيضا من ربط المشروع الأدبي الفكري البرتراندي ثم الجزائري بغيره من المشاريع الأدبية تأثرا و تأثيرا، بما قبله خاصة، لكن لا سبيل إلى ذلك إلا بوضعه أولا في سياق أوسع، فقضيتنا في الأساس هي دراسة الخلفية الإيديولوجية لهذه الكتابات، بالكلام عن الجزائر في الأدب الفرنسي بصفة عامة، بهدف تبين مكانة الجزائرية والدور الذي لعبته في علاقة أدب أجنبي ببلد، علاقة يعود تاريخها إلى آماذ بعيدة.

لقد تطرقت أغلب الدراسات التي تناولت المؤلفين عن الجزائر وأعمالهم إلى ما يعود منها إلى القرن التاسع عشر، فهو قرن الحملة الاستعمارية والتوسعية التي رافقتها البعثات والزيارات العلمية والفنية. غير أن حضور الجزائر في الكتابات الفرنسية عامة، والأدبية خاصة، يعود إلى ما قبل ذلك بكثير. وسنستعرض فيما يلي ما أتيح لنا من معلومات عن تاريخ الاهتمام الأدبي بالجزائر.

نتناول الموضوع بشكل تفصيلي، باستقصاء عدد كبير من النصوص، مجموعة من الدارسين، كلهم فرنسيون :

– فجمعها تحت عنوان *الجزائر في الأدب المكتوب بالفرنسية L'Algérie dans*

*les lettres d'expression française*⁸⁸ إيمي ديبوي Aimé DUPUY،

في كتاب غطى الفترة التاريخية الممتدة من بداية العلاقة بين الجزائر وفرنسا سنة 1535 إلى أربعينيات القرن العشرين.

– سبق ديبوي في الكلام عن الموضوع شارل تايار Charles Thaillard، الذي

غطى، تحت عنوان *الجزائر في الأدب الفرنسي*، بيبليوغرافيًا هذا الأدب إلى غاية 1924.

– وألف غابرييل أوديزيو Gabriel Audisio كتابا مختصرا عنونه *الجزائر*

الأدبية، تحدث فيه من النصوص عن ما كتب من أيام الرومان إلى أيامه،

لكنه اقتصر على النصوص التي كتبت عن الجزائر في الجزائر.

– ويختتم هذه القائمة جون ديجو Jean Déjeux الذي تناول الموضوع

مستشهدا بمن سبقوه، أوديزيو خاصة، وأضاف إلى كل ذلك تحليلات

وتعليقات مهمة، وأهم منها كلامه عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

وبالعربية إلى غاية بداية سبعينيات القرن الماضي، عنوان كتابه المنشور في

سلسلة ماذا أعلم (Que sais-je ?) المعروفة هو: *الأدب الجزائري*

المعاصر.

ستكون هذه الكتب عمدتنا في السطور الآتية. بالإضافة إلى بعض الدراسات التي

أفردت ظاهرة من الظواهر أو نصا أو كاتباً بالدراسة، منها مقالات من المجلة الإفريقية

La revue Africaine المعروفة.

⁸⁸ – المقصود بالمكتوب بالفرنسية *d'expression française* هنا الأدب الفرنسي، ولا يشمل المصطلح النصوص

التي يكتبها غير الفرنسيين باللغة الفرنسية كما يستعمل اليوم، ولعل الكاتب لجأ إلى هذا الوصف لوجود كتاب ولدوا

في الضفة الأخرى من المتوسط (راندو و كامي مثلا) و لأن وصف الأدب بالفرنسي يذهب بالذهن إلى أدب

الميتروبول.

1. قبل القرن التاسع عشر:

يقول إيمي ديبوي عن بداية كتابة الفرنسيين عن الجزائر : "الرعب الذي كان يثيره الجزائريون لدى القوى المسيحية كان من القوة بحيث دفع الفرنسيين إلى كتابة العديد من القصص والرسائل، وغدّى لمدة قرنين من الزمن أدبا برمته - بما فيه المسرح - موضوعه الهجمات البحرية والمواجهات مع "الأتراك"، أو مشاهد أسر العبيد و"المتاجرة" بهم، كان مؤلفوها إما ضحايا لها أو شهودا عليها"⁸⁹. كانت الجزائر، الوصاية العثمانية القوية، مصدر إلهام ثري لكتاب عبروا عن مشاعر الرعب والهزيمة.

وأول من ذكره ديبوي من هؤلاء الأب دان Père Dan ، زعيم منظمة تسمى الثالث المقدس وتحرير الرهائن، والذي أوكلت إليه في 1634 مهمة افتداء بعض الأسرى في الجزائر. ينقل المؤلف في حكايته، الصادقة والحية حسب ديبوي⁹⁰، أحداث هجوم القراصنة على سفينة تجارية وأسره لمن بقي حيا من طاقمها، يؤخذ هؤلاء إلى الجزائر العاصمة لعرضهم في سوق العبيد، ويشتريهم أسياد يستعملونهم في الزراعة أو في السفن، حيث يعاملون معاملة سيئة جدا، ويتمتع بعضهم بنصف حرية وهم العاملون في الحانات وبيوت الدعارة التي يمارس فيها الأتراك والأسرى انحرافاتهم.

غير أن ما أثر في الأب دان وغلب على حكايته، بحكم مهمته - مهمة المخلص من الأسر ومن دين الإسلام - التي كان حريصا على إتمامها، كان إعراض الكثير من الأسرى عن دينهم ليصبحوا مسلمين، ويصبح بعضهم رياس بحارة، وكم كان حزينا لذلك.

بعد ذلك بفترة كتب السير إيمانويل داراندا Sieur Emmanuel d'Aranda تجربته بعد وقوعه في الأسر، مدة عام ونصف، شهادة تعد من أكمل ما كُتب ومن أحسنها

⁸⁹ -DUPUY Aimé, *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, Editions universitaires, Paris 1956, p 10.

⁹⁰ - *Ibid*, p 10.

بلاغة، حسب ديبوي. يتكلم داراندا، من بين الأحداث التي عاشها، عن أفضل ما كان يسليه بعد عناء العمل الشاق عند سيده، وهو لقاء غيره من الأسرى في السجن والاستماع لرواياتهم.

"كنت عندما أريد أن أتسلى أذهب إلى الحبس لألتقي فرانسوا الطالب François l'Etudiant، والذي كان دائما محاطا بعبيد من دونكيرك Dunkerque (مجينة شمال فرنسا) يسردون مغامراتهم ولقاءاتهم في عرض البحر، أو هولنديون ينقلون ما يحدث في بلاد الهند الشرقية، في اليابان أو في الصين، أما الدانمركيون فيتحدثون عن صيد الحيتان في غرينلاند Groenland وعن الوقت الذي تظهر فيه الشمس في أيسلندا Island والوقت الذي ينتهي فيه ليلهم الذي يدوم ستة أشهر. وإذا لم تعجبني محادثات كهذه ذهبت إلى الإسبانين الذين كانوا يحكمون الدول التابعة لمملكتهم كما يشاءون، أو يتحدثون عن شهوات مكسيكو وعن ثروات البيرو. وإذا جالست الفرنسيين سمعت عن الأرض الجديدة وعن كندا وعن فيرجينيا. وهذا لأن جل العبيد كانوا رجال بحر..."⁹¹

يصور هذا المقطع الطابع الكوسموبولي cosmopolite (الكوني) للجزائر، من خلال سجونها التي التقت فيها من خلال روايات الأسرى الصور من العالم كله. هذا الطابع لم يترجمه تعدد الجنسيات فقط، بل حتى المهن التي اشتغل بها الأسرى المسيحيون كانت متعددة، الذين لم يعودوا "متوحشين" منهم، وهي الصفة التي كان يطلقها الجزائريون على الأسرى و قدماء الأسرى على الوافدين الجدد. فمن أصحاب الحانات "الذين يعيشون عيشة الأمراء"، إلى الحمّالين الذين كانوا يجلبون الماء، مروراً بمالكي ألعاب الكرات الحديدية "الذين يكسبون المال الكثير"، والجراحين، وأصحاب المهن التي يُستحى من ذكرها، "كان الاختلاس أكثر المهن ممارسة".

⁹¹ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 10.

بعد داراندا جاء الدور على البروفانسالية la Provençale، عنوان واحد لكتابين أحدهما مؤلفه يدعى رينيار Regnard والثاني فيركور Fercourt. التقى الرجلان في الأسر حيث اشتراهما أحد مورشكيي إسبانيا، وكان عمل كل منهما إدارة رحي خاصة به، عمل كانا يقومان به تحت ضربات السياط التي اشتدت بعد أن حاولا مرة الفرار وقبض عليهما. ثم دفعت دية كل منهما وعادا إلى مارسيليا برفقتهم فتاة جميلة من البروفانس، كانت بدورها أسيرة، رداها إلى أهلها في مدينة آرل، ومن هنا جاء العنوان وهو نسبة الفتاة إلى المنطقة المذكورة.

كتاب رينيار كان عبارة عن رواية متقنة الحبكة تروي قصة حب يرجح أن يكون طرفاها المؤلف والفتاة البروفانسالية، ولم يتطرق رينيار في هذه الرواية إلى ظروف وأحداث الأسر. أما كتاب فيركور فهو أقرب إلى الحكاية "التاريخية"، وفيه جاءت تفاصيل التجربة التي مر بها الصديقان، تجربة يقول عنها "لم يفارقنا الخوف من العصا وذيل الثور لحظة واحدة"، ويبكي حظهما الذي كان أتعس من غيرهما أن "لم يقعا بين يدي مسلم حقيقي أو تركي أصيل"⁹². وهذه شهادة على حسن معاملة الجزائريين مقارنة بغيرهم ممن كانوا يستخدمون الأسرى.

شهدت الفترة الذي كان يعاني فيها الصديقان الأمرين، تحت سلطة "العصا وذيل الثور"، قدوم الفارس لوران دارفيو Laurant d'Arvieux، مكلفا بشؤون ممتلكات الملك، إلى الجزائر، في 1674. بعد أن أثار هذا الرجل المثير للفضول اهتمام لويس الرابع عشر بمعلوماته عن الشرق الأدنى بعد رحلة طويلة، بصفته تاجرا. وها هو دارفيو أمام الداوي يصفه "بعضاه وسيفه ولباس نظيف بما فيه الكفاية ليميزه عن مرافقيه". غير أنه لم يكن شخصا مرغوبا فيه، وكان الكل يسخر منه وفي كل مكان، ولما رفع شكواه ممن وصفهم بـ"الصعاليك والبؤساء" إلى الداوي أجابه هذا الأخير "بعد أن سرح بخياله ومشط

⁹² – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 17.

بأصابعه لحيته وقرض بأسنانه أظافره" بما مفاده أن الجميع يستعجل رحيله، "لن يفسد رحيلك شيئاً"، فعاد إلى فرنسا وطالب بتعويض عن رحلته لما وصفه في مذكراته كما يلي : "ما عانيته، في الجزائر، أسوء مكان يمكن أن يوجد في العالم، هو أقسى تجربة على الإطلاق"⁹³. ألفت هذه المذكرات بظلالها على شخصية **جوردان Jourdain** في مسرحية **موليير Molière**.

تجاوز عصر الأنوار قصص الأسر هذه، حيث وصفها **لوجي دو تاسي Laugier de Tassy** بأنها "أحكام مسبقة عند الغالبية من المسيحيين" مبنية "غالبا على عقيدة بعض الرهبان الإسبانيين الذين يصنعون ألف خرافة ليثمنوا الخدمات التي يقدمونها للجمهور بالسفر إلى بلاد البربرية من أجل اقتداء الأسرى"⁹⁴.

مما كتب في هذه الفترة رحلات في وصايتي تونس و الجزائر، و هو كتاب نشره **دورو دو لا مال Durreau De La Malle** جمع فيه رحلتين. أولاهما عبارة عن مراسلات بين الطبيب **بيسونال Payssonnel** –الذي قام بالرحلة– و **الراهب Bignon**.

يروى المؤلف لما كان في نوميديا، حيث التحق بمعسكر باي قسنطينة، لقاءه برجلين إيطاليين ارتدا عن النصرانية وأعلنوا إسلامهما، ويقول "بما أنهما كانا لا دين لهما وأن حياتهما كانت عبارة عن نسيج من الجرائم، لم يشق عليهما ترك دين ولدا فيه واتباع دين محمد" صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف المرتدين بنبرة ساخرة لما "أركبا حصانين مزينين، من ورائهما رايات الشريعة وعدد من الأتراك على الخيول ... ينطقان رافعين أصبعا إلى السماء كلمات الشريعة : لا إله إلا الله، محمد رسول الله". و تنتهي القصة بعبارة : "واليوم، يعيشان

⁹³ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 18.

⁹⁴ – Laugier de Tassy, *Histoire du royaume d'Alger*, Henri du Sauzet, Amsterdam, 1725, p 5.

البؤس في الجزائر حيث لا اعتبار للمرتدين إلا على قدر ما يستحقون، أو كعبيد يخدمون سلطة توفر لهم العناية"⁹⁵.

ميزت رحلة **بيسونال**، بين سنتي 1724 و 1725، اهتمامات علمية وفق الذوق السائد آنذاك. ذوق تجسده أيضا قصة أخرى، وهو الجزء الثاني من الكتاب أو الرحلة الثانية في 1784، لطبيب آخر من مرسيليا، كلفه **لويس السادس عشر** بالقيام بأبحاث طبية "طبيعية" في المنطقة (الجزائر وتونس). رواية هذا الأخير، المدعو **ديفونتين** Desfontaines، أكثر أهمية من سابقتها من جهة المعلومات، فقد تنقل مثلا بين الجزائر ومعسكر وتلمسان، مصحوبا بأربعة من الخدم وجندي من الوصاية، السيد **فور** M. Faure والذي كان ساعاجي الداي، يعيش في الجزائر منذ عشرين سنة، يتقن العربية ويعرف أحوال العرب، ومن هنا جاءت القيمة المعلوماتية للرحلة.

عاد إلى فرنسا قبل سنتين من رحلة **ديفونتين** السيد **تيدينا** Thédénat، بعد ثلاث سنوات وسبعة أشهر من الأسر قضاها في العمل لباي معسكر كخادم ثم خزنادر ثم قيما على ممتلكاته. فكانت حكاية مغامراته حسب **مارسيل إيميريت** Marcel Emerit⁹⁶ وثيقة قيمة حول وصاية الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر.

يمتدح المؤلف مثلا روح التسامح التي تحلّى بها سيده، على خلاف كل من سبقوه، فيقول "أين اللإنسانية التي تنسبها كل أوروبا تقريبا للشعب الذي أخضع له حاليا ؟ أم هو إنساني معي فحسب ؟ لا، بل يجب أن يكون من يسميهم بأسماء لا يستحقونها لا يعرفهم

⁹⁵ – Peyssonnal et Desfontaines, *Voyages Dans les régences de Tunis et d'Alger*, Librairies de Gide, 1838, p 46-56.

⁹⁶ – Marcel Emerit, *Les aventures de Thédénat, esclave et ministre d'un bey d'Afrique aux XVIII^e siècle*, in *Revue Africaine*, Tome 92, 1948, p 20.

ولم يكن يوما بينهم⁹⁷. الظاهر إذن أن رحلة **تيدينا** المليئة بالمغامرات لم تترك لديه ذكريات سيئة فقط.

ثم جاء الدور على **الراهب بوارى l'Abbé Poiret**، بعد رحلة إلى الجزائر، ما بين 1785-1786، لينشر قصة احتوت، بالإضافة إلى عدة فصول في تاريخ الطبيعة، على ملاحظات ورسائل تتعلق إما بأعراف السكان المحليين وعاداتهم، وإما بدينهم. كان هذا الرحالة الحر رجلا إنسانيا يحب الحياة ومجد قسنطينة موطن **يوغورطة** و**ماسنيسا**، وفيلسوبا على طريقة أهل زمانه.

لقد تأثر بوارى برؤية "الغزلان اللطيفة الحساسة التي تلين بنظرة منها أشد القلوب قسوة"، أو عند رؤية نشاط العمال الأوروبيين في الشركة الإفريقية مخاطبا إياهم "ستئن إنسانيتكم من آلام من كل نوع يتعرض لها المرتزق في السواحل البربرية، وتعبّر قلوبكم عن آمال في رؤية اختفاء تجارة تجلب العار على فرنسا". أما الآثار التي اكتشفها فهي شاهد على أن "التسلط والجهل حولا أجمل بلد في الكون إلى صحراء".

يلاحظ **ديجو** أن بوارى سبق **لوي برتران** في اكتشاف الآثار الرومانية وتمجيد حضارتها⁹⁸. كما أنه وجد في العرب البدو رجل الطبيعة، "اجتهدت في إقناع نفسي، ما كنت أعتقد أنه إلى ذلك الحين، أن الإنسان كلما كان إلى الطبيعة أقرب كان أطيّب"، وأن "الشعب الحر أرقى من شعب يعاني تحت نير الاستبداد"، لكنه ما يلبث أن ينقض كلامه

⁹⁷ – *Les aventures de Thédénat, esclave et ministre d'un bey d'Afrique aux XVIII^e siècle*, op.cit, p 20.

⁹⁸ – DEJEUX Jean, *La littérature algérienne contemporaine*, coll : Que sais-je ?, PUF, Paris, 1975, p 13.

بالقول بوجود فرق "بين وطن مستتير بالقانون وحشود تائهة معرضة لكل أشكال الفساد في طبيعة ملوثة"⁹⁹.

إنه التناقض عينه الذي وجدناه بين كتاب عصر الأنوار، بين أفكار روسو عن سمو الطبيعة على التحضر، وأفكار فولتير ومونتيسكيو الممجة للحضارة الغربية، بل وعند الكاتب الواحد كما يبدو من تردد فولتير بين أفضلية المتوحش الطيب والأوروبي الراقى.

هذه الأفكار التي سادت إذن في القرن الثامن عشر خاصة، وما قبله على وجه العموم، انتقدت إلى الواقعية. كما أن أغلب من كتبوا في هذه الفترة رحالة لم يكونوا مستعدين ولا راغبين في القيام بهذه الرحلة إلا عدد قليل منهم، فلم تكن الكتابة لهم هدفا، بالإضافة إلى تأثير الأسر وظروف الحبس عليهم. هذا ما جعل نصوصهم تغذي صورة نمطية جدا للعالم الإسلامي كما كان العالم المسيحي يراه في الحرب ضد المسلمين في الأندلس وفي الحروب الصليبية.

⁹⁹ – *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 23.

2. بداية القرن التاسع عشر واحتلال الجزائر

بدأ التوجه الأدبي المهتم بالجزائر يتغير مع بداية القرن التاسع عشر، وبالتحديد مع تولي نابوليون Napoléon الحكم. فقد ذكر أوغسطين برنار Augustin Bernard أن "فكرة احتلال الجزائر يمكن اعتبارها فكرة نابوليونية، تدمير بلاد البربريين". كانت هذه الفكرة جزءا من مشروع نابوليون الكبير في الوصول إلى الهند عبر مصر وبلاد فارس. عبر عن هذه الإرادة القنصل الفرنسي الأول في 1802 قائلا : "أفضل القطيعة مع الجزائر وتلقينها درسا قاسيا، على أن أعاني من عدم احترام أولئك القراصنة للأسطول الفرنسي، يجب أن أرغمهم على ذلك". فكتب نابوليون آنذاك إلى الداى قائلا: "لقد دمرت إمبراطورية المماليك، عليك أن تخشى نفس المصير"¹⁰⁰.

ثم كان ضم شمال إفريقيا إلى الإمبراطورية الفرنسية أحد بنود الاتفاق السري المبرم بين نابوليون وروسيا. وأرسل الرائد بوتان Commandant Boutin في مهمة سرية إلى الجزائر لينقل مخطط المدينة وضواحيها، فكانت الوثائق التي جمعها مفيدة جدا في احتلال الجزائر سنة 1830. لكن الأحداث صرفت نابوليون عن مشروعه، ليعيد نظام الإصلاح Restauration بعثه في 1827.

مع إحياء مشروع الاحتلال والقضاء على "القراصنة البربريين"، عادت الجزائر لتصبح موضة أدبية. لكن الغريب في هذه الموضة هي أن من نظموا أشعار الحماسة وتمجيد الحملة الفرنسية على الجزائر مجموعة من النكرات والكتاب الرديئين، مع التزام كبار الشعراء والكتاب في تلك الفترة الصمت التام. وهذا غريب بعض الشيء خاصة في العصر الذهبي للرومانتيكية وبروز شعرائها. ويقول مؤلف مقال شعراء حملة الجزائر، في المجلة الإفريقية، في هذا السياق مفسرا للظاهرة :

¹⁰⁰ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 23.

"أن لا يلهم حدث بحجم سقوط الجزائر في أيدي الجيش الفرنسي سوى الرديئين ولا
يثير ولو قليلا اهتمام شاعر كبير مثل لامارتين Lamartine أو هيجو Hugo ولا حتى
بيرانجي ديلافيني Béranger Delavigny ، فليس لنا إلا أن نتعجب".

لم يبال الرأي العام بحملة الجزائر تماما بل وكان أحيانا معارضا لها بشدة، فإما أن
هذا الرأي العام لم يتوقع أهميتها، وإما أنه حكم على هذا المشروع متوجسا من صاحبه،
الوزير الأول بولينياك Polignac صاحب السمعة السيئة، أو أن الوضع السياسي الداخلي
في جويلية 1830 لم يترك مكانا لانشغالات أخرى¹⁰¹.

ظهر إذن عدد معتبر من الأعمال لكنها لم تكن سوى ردود أفعال تجاه حدث كبير،
حدث ربما تنبه الأدباء والمتفكرون في المجتمع الفرنسي إلى بعض أهدافه، ومنها صرف
النظر عن ما يحدث في الداخل وتخفيف الضغط الاجتماعي على الحكومة، لكن الحشود
من عامة الناس غالبا ما تتحرك من دون تبصر ولا تحليل لخلفيات الأحداث. كانت إذن
"حاجة طارئة إلى قول شيء ما، بعد أن أثارت الأحداث لديهم فرطا في الحماس"¹⁰².

بالإضافة إلى العدد، طبع التنوع أيضا هذه الأعمال : في الحماسة، والمواقف،
والأنشيد الكلاسيكية، والمشاهد الدرامية، والمحاولات الشعرية "السياسية والأخلاقية"،
والأغاني الحربية، والمسرحيات الهزلية، والدراما، و"الأشعار الوطنية"، والقصائد الغنائية
خاصة. ومع كل هذا اعتبر إيسكيي Esquier أن ما قيل فيها "لا يستحق في الغالب أن
يقال"، وأن "من الحكمة أن توضع في طي النسيان"¹⁰³.

¹⁰¹ – Esquier Gabriel, *Les poètes de l'expédition d'Alger : la Bacriade de Barthélémy et Méry*, in *Revue Africaine*, Volume 60, Année 1919, Jourdain Librairie, Alger, p 116–117.

¹⁰² – *Ibid*, p 112.

¹⁰³ – *Ibid*, p 113.

أخذ هؤلاء المتشاعرون -بمعنى الدخلاء على الشعر المتكلفون في نظمه- على عاتقهم مهمة شحذ همم الجنود الفرنسيين وإثارة الحماسة في نفوسهم، لينطلقوا "لتدمير الجزائر". فيقول أحدهم، لم تذكر المصادر اسمه وهو حال الكثير منهم، في مجموعة شعرية سماها *الجزائريات* : les algériennes :

"... من الوحش الذي يحطم معاقلهم عن آخرها

اللهب يلتهمهم، ومن بقاياها

التي تغطي الباشوات الأنذال والجموع المتوحشة

ليستقر صمت أبدي على أبوابهم"

ويعد آخر الجنود بالنصر والمجد:

"بيلون (إلهة الحرب) تبتسم لكم، وفي ميدان الشرف

ليلمع إكليلها لتيزيين قيمته ..."

ليختم ثالث:

"كتيبة الأبطال، الجيش النبيل الباسل

انطلقوا إذن فقد آن الأوان"¹⁰⁴

النص الوحيد الذي قد يفرض نفسه من الناحية الأدبية، هو القصيدة التي كانت موضوع دراسة المقال الذي ذكرناه، في *المجلة الإفريقية*، تحت عنوان *البكرية* La Bacriade أو حرب الجزائر، صدرت في عام 1827. جاء عنوانها على وزن إلياذة triade تهكما، وهي عبارة عن قصيدة بطولية ساخرة تروي قصة بكري -التاجر اليهودي

¹⁰⁴ - *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 25.

الشهير الذي تورط في قضية الدين بين فرنسا والجزائر-، مع تفاصيل عن حياة داي الجزائر وكيف أرسل زرافة إلى فرنسا، ورواية لحادثة المروحة، إلخ. كل ذلك في شكل ساخر ولطيف.

بالإضافة إلى حسن الصنعة الأدبية التي أبداهها بارتيليمي Barthélémy وميري Méry، مؤلفا/البكرية، والتي لم تتوفر عند غيرهما من الشعراء الذين حركت أقلامهم حملة الجزائر، احتوى نصهما على اللون المحلي (الجزائري) وبعض الكليشيهات الشرقية التي ستصبح موضوعة في المرحلة التالية. وكان هدفهما جعل الحملة تبدو سخافة والتقليل من شأنها في أعين الجماهير¹⁰⁵.

نلاحظ أخيرا في نهاية هذا العرض لأدب فترة ما قبل الاستعمار، أن الجزائر التي ستتحول إلى مصدر إلهام لإنتاج أدبي غزير، لم تلهم لمدة ثلاثة قرون من النصوص المحترمة والتي بقي لها أثر سوى اثنين: نص رينيار والنص الأخير، البكرية. كلا النصين يعطي صورة سلبية عن الجزائر ولا يعطي أي رغبة في السفر إليها أو المغامرة فيها.

¹⁰⁵ – *L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 26.*

3. من بداية الاحتلال إلى استقلال إدارة الجزائر عن الميتروبول

طُبعت هذه المرحلة، وهي بداية الاهتمام الفعلي بالأرض وبأهلها، أنواع من الكتابات يمكن تلخيصها في: شهادات ومذكرات العسكريين، وآراء ومواقف كتاب الميتروبول، والكتاب الزوار أو المغامرون في فترة الحكم العسكري، ثم بعض الاستثناءات من كتاب جامعيين.

كان أول من تكلم من الكتاب المرموقين عن حملة الجزائر، منبها إلى أن ما يحدث هناك ليس "خرافة، ولا قصص أطفال، ولا روايات ما قبل الثورة، التي تجاوزها الزمن"، الشاعر والروائي والكااتب المسرحي ألفريد دو فينيي Alfred de Vigny. فالرأي العام الفرنسي وحتى الأدباء والمفكرون لم يهتموا للحدث، كما قدمنا. لم يؤلف دو فينيي عن الحدث رواية أو قصيدة، وإنما هو مقال لمجلة العالمين الشهيرة قدم فيها كتابا وأشاد به لأنه كسر الصمت الذي كان محيطا بالحملة¹⁰⁶.

رأى دوفينيي في الحدث، الذي وصف بالصدفة أو الحادث العسكري، بداية إمبراطورية جديدة. أما الكتاب فهو تفاصيل تاريخية وسياسية في خدمة تاريخ حملة الجزائر، والذي ليس مؤلفه إلا السكرتير الخاص للجنرال دي بورمون de Bourmont الذي لم يقل كلمة واحدة عن مهمته، لكنه وجد في شخص جون توسان مارل Jean Toussaint Merle مدافعا فذا عنه، بعد أن "رمته العاصفة السياسية في أرض المنفى".

فكانت هذه المذكرات بداية لسلسلة من الكتابات العسكرية دامت نصف قرن تقريبا، من روايات ومذكرات وسير ورسائل، يهدف مؤلفوها، عسكريون من رتب مختلفة، إلى التعريف بحملاتهم الإفريقية. وهي من الأهمية بحيث لا يمكن دراسة لوحة الأدب الفرنسي عن الجزائر ابتداء من 1830 إلا من خلالها.

106 – Ibid, p 29.

يروى كتاب مارل أحداث سقوط مدينة الجزائر، بتفاصيلها وجوانبها، مع وصف المدينة، كما أنه ينقل الحالة الذهنية والروحية لقادة الحملة K وما جرى بينهم من نقاشات وخلافات. وهذا الكتاب مليء بالتفاصيل كما دل عليه العنوان. فليبين مثلا لا مبالاة الجنرال لوفيردو Loverdo، اليوناني الأصل، يروي قيامه بنتف ريش عدد كبير من طيور النعام التي وجدوها في القصة، وهي حية تصرخ صراخا يقطع القلوب، وذلك ليضيفها إلى مجموعته فحسب. وكان يقول للمستمتعين من حوله بالمشهد "سيعجب هذا ابنتي أنايس Anaïs"، فصارت العبارة مثلا يتداوله الفرنسيون¹⁰⁷.

ومن بين أحداث معركة مدينة الجزائر، ما جرى للجنرال ديبورمون ومن معه مع جمال أخذوها لنقل أغراضهم. كانت هذه الدواب "حزينة وصاخبة وعنيدة"، ولم يعتد الفرنسيون على قيادتها، اثنتان منها كانتا تحملان أغراض ديبورمون يقودهما أحد الخدم، لما اقترب الموكب من المعسكر سمع الجمالان أصوات جمال أخرى من بعض خيام البدو القريبة فانطلقا باتجاهه "حاملين إلى العرب أغراض الجنرال"¹⁰⁸.

موقف مارل المساند لـدي بورمون كان في جهة النقيض لمواقف غيره من المؤلفين في الموضوع مثل النقيب روزي Capitaine Rozet والمارشال بيليسي Maréchal Pélissier. لم تكن معركة اسطاوالي، حسب روزي، لتقع لو كان ديبورمون حاضرا يومها في صفوف الجيش، فهو لم يكن يرغب في شن هجوم بل بالاكتماء بصد العدو. أما بيليسي فيأخذ على قائد الحملة كسلا مفرطا وميلا إلى الثرثرة ورواية القصص، فضيّع على الجيش أوقاتا ثمينة، كما أنه باستيقاظه من النوم في أوقات متأخرة وخروجه القليل إلى الميدان كان أشبه بالقائد الغائب، فلا يكاد ضباط الجيش يلتقونه أصلا ناهيك عن الجنود.

¹⁰⁷ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 32.

¹⁰⁸ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 32-33.

لازمت هذه السمعة السيئة **ديبورمون** حتى بعد موته، مما دفع **لوي برتران** بعد قرن من الزمن إلى الكتابة عنه في رواية سماها *رواية الغزو 1830* Le roman de la conquête، والتي سنتحدث عنها بشيء من التفصيل في الفصل الخامس *لوي برتران*، الوجه الجديد للأدب الكولونيالي. فدافع عنه وبرر مواقفه وأشاد بفضائله.

تتابعت بعد تفاصيل معركة الجزائر المؤلفات، خاصة المذكرات، وعكف مؤلفوها كل منهم على تمجيد القائد الذي عمل تحت إمرته، أو الفرقة التي انتمى إليها، غير مبالين في الغالب بالموضوعية والتجرد في نقل الأحداث ووصف الأشخاص. من فرق الإمداد، البارون **بيشون** barons Pichon أو **دينيي** Denniée و**جونتي دو بوسي** Genty de Bussy، إلى البحرية، **الأميرال دوبيري** l'amiral Duperré، مروراً بالفرق الطبية، **الدكتور بونافون** Docteur Bonnafont.

لكن هذا لا يعني أن هؤلاء لم يكونوا قصاصين مهرة، سواء تعلق الأمر ب**مارل Merle** أو **بجونتي دي بوسي**، لكن أقواهم كان **بارشو بينوين** Barchou-Penhoën، ضابط عمل تحت إمرة **بيرتينزين** Berthezène وهو زميل لعميد الرواية التاريخية في فرنسا **بالزاك** Balzac في فاندوم. وقد تميز نصه بالدقة في التوثيق وإتقان الشكل، ولا يطيل أبداً في وصف ما ليس في قلب الموضوع، يقول مثلاً عند رؤية الجزائر لما اقتربوا من سواحلها: "صخرة طباشيرية كبيرة ... إنها الجزائر". غير أن البورتريهات التي يرسمها من خلال عرض ذكرياته مهمة جداً.

من الأحداث المهمة، من حيث الدلالة، إلقاء الجنود الفرنسيين القبض على رجل بدوي "لم تقطع تلك المسافة بسهولة : كان الجنود، بدافع الفضول لرؤية عربي حيا، يسرعون ملتفين حوله، محيطين به، كاد يختنق؛ لو لم تحضر كتيبة من رماة القنابل اليدوية، يوزعون يمينا وشمالا ضربات بمؤخرات بنادقهم، لما فتحت له طريق".

أو بورترية النساء اليهوديات اللاتي لقيهن في مدينة الجزائر، "ليس لهن مثيل في الشحوب، والوسخ، لا أظن أن أحدا من رماتنا صار يحتمل من مجرد رؤيتهن". بالإضافة إلى مترجمي الجيش الفرنسي الذين لعبوا دورا هاما لحظة التوقيع على وثيقة الاستسلام. أبدى المؤلف من خلال كل هذا قدرته كضابط فيلسوف على بسط الأفكار وتحليلها¹⁰⁹.

كانت أحداث الحملة مادة لرواية **أوسيب دوسال** Eusèbe de Salle، **عفى الثعلب** Ali-le-Renard، التي قد تكون الرواية الوحيدة في تلك الفترة. وأوسيب هذا مستشرق عمل كضابط سام مترجم في المقر الرئيسي، ومحتواها عبارة عن مجموعة من الأحداث ينقلها المؤلف بصفته شاهد عيان عليها وعنصرا فاعلا في مجرياتها، ولجأ لئلا يبدو الأمر كذلك إلى تغيير كتابة بعض الأسماء، وتشويه أخرى عن طريق ترجمتها مباشرة أو بعد استبدالها بمرادفات لها. فكادت هذه الرواية أن تكون مذكرة أو سيرة ذاتية لولا بعض اللمسات الأسلوبية التي تذكر بأسلوب الروائيين **مارمونتيل** Marmontel و**فلوريون** Florian، كما يقول **ديبوي**.

من أهم النصوص الشاهدة على تلك الحقبة من تاريخ الاحتلال، الفترة العسكرية، المراسلات. بحيث تعتبر الرسائل التي بعث بها المشاركون في حملة غزو الجزائر إلى مراسلين لهم في فرنسا أصدق تعبير عن الأدب العسكري وخير ممثل له.

ويعتبر مجموع الرسائل التي تلقاها مثلا **المارشال دي كاستيلان** De Castellane، بين سنتي 1835 و1848، تأريخا مرتجلا لكنه حافل بأخبار احتلال الجزائر. المرسلون هم **بيجو**، **كلوزيل**، **فالي** Valée، **كانروبير** Canrobert، **فوري** Forey، **بوسكي** Bosquet، **شانغارنيي** Changarnier، **لاموريسيير**، إلخ. وهم من صاروا فيما بعد واحدا تلو الآخر ماريشالات وحكاما للجزائر المستعمرة.

¹⁰⁹ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 34.

أكثر هذه الرسائل حدة وحيوية، رسائل **شانغارنيي**، رجل مثقف وجندي من النخبة، يروي فيها حدث خروجه إلى التقاعد ومعه الكتيبة التي كانت تحت إمرته، والتي كان عملها وسلوكها مثاليا، ثم يتوجه بالانتقاد إلى من جاؤوا بعدهم وافنقدوا العزم والهمة والقيادة الرشيدة، فهم يستحقون الطرد ليعودوا من حيث أتوا. كل ذلك بأسلوب جميل ومهذب وجذاب¹¹⁰.

أعلى هذه المجموعة من النصوص شأنًا رسائل **سان-ت-آرنو** Saint-Arnaud، أحد أبرز ممثلي مشروع "إفريقيا الجديدة". نشرت رسائل هذا الكاتب العسكري الطموح، منعدم الضمير، المتشبع بالأدب الكلاسيكي، المولع بالمرسح - هكذا وصفه **ديبوي** -، مفردة وأعيد طبعها مرات، كتب تصدير ثالثتها **سانت بيف** Sainte-Beuve واصفا إياها بأنها نصوص أفضل مما يكتبه كثير ممن يمتنون الكتابة، وأن المؤلف جمع بين الفنان والعسكري والإنسان خاصة¹¹¹.

الأحداث المنقولة في هذه الرسائل هي ما قام به **سان-ت-آرنو** نفسه، وزميله **بيليسي** من جرائم ومجازر في كهوف الظهرة وغيرها، وقد ذكرتها كتب التاريخ بالتفصيل. قال **غوتيه** Gautier واصفا الكاتب ونصوده :

"مراسلات **سان-ت-آرنو** تبين حالة استثنائية من الخبث، حيث جاء إلى الجزائر في 1837 برتبة ملازم ليصبح في 1847 جنرالاً"¹¹².

وغير هذين المثالين من المراسلات كثير، لكن يجب التنبيه عند قراءتها إلى أن قيمتها التاريخية جد نسبية، فكل مؤلف وضع فيما كتب نظرته إلى الأحداث ومشاعره

¹¹⁰ - *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 40.

¹¹¹ - Saint-Arnaud, *Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud*, Tome premier, Michel Lévy Frères, Paris, 1858, page XXXVIII.

¹¹² - *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, 43.

تجاهها وموقفه منها. يجب الحذر إذن عند تناولها ومقارنتها بغيرها من النصوص والوثائق التي تناولت أحداث تلك الفترة مقارنة نقدية، فهي إلى الأدب أقرب منها إلى الرسالة أو الوثيقة التاريخية.

كما تميزت هذه الرسائل بالروتين الممل من حيث المواضيع المطروقة، نفس القضايا ونفس الوقائع تعود وتكرر في كل مرة، مع اختلاف في النبرة. أما الأسلوب فيدل على المهنة القاسية التي مارسها أولئك، مع بعض المبالغات الرومانتيكية السائدة في تلك الفترة، لكنه بقي أسلوبا عاريا وفحوليا ومباشرا¹¹³.

تستثنى من ذلك بعض النصوص التي اشتغل عليها بالتعاون رجل الميدان ورجل القلم، مثلما كان من المارشال كلوزيل الذي كلف فريديريك سوليي Frédéric Soulié بتحرير تعليقاته على حملاته العسكرية على تلمسان وعلى قسنطينة في 1837، واستعان الدوق دورليان Duc d'Orléans بشارل نوديي Charles Nodier لكتابة مذكرات حملة أبواب الحديد 1830. واستعان بيجو أيضا بعدد من الكتاب والمؤرخين، مع أنه يكتب بأسلوب محترم كما يبدو من مراسلاته.

وأخيرا يجدر بنا أن نذكر أيضا أسطورة ليون روش Léon Roche ولغز يوسف - Yusuf-Yosouf-Joseph عدة كتابات وعدة روايات-. روش بمذكراته ويوسف بالمشير من النصوص والروايات التي كتبت عنه.

أما الأول فعمل مترجما لبيجو ألف مذكراته، أسلم أو على الأرجح ادعى ذلك وعمل مدة من الزمن سكرتيرا للأمير عبد القادر. ولما بلغ الثمانين من العمر ألف مذكراته، روي فيها مقتطفات من حياته، ورحلة قادته إلى البقاع المقدسة، إلى مكة والمدينة، مروراً بالقاهرة وصور نفسه كبطل ساهم بشكل كبير في هزيمة الأمير وتنشيت قواعد الاستعمار

¹¹³ – *ibid*, p 40.

الفرنسي في الجزائر. واستطاع **مارسيل إيمريت**، المتخصص في أدب تلك الفترة، بعد مقارنة نصه بنصوص أخرى إثبات كون تلك المذكرات تليفًا لم يتعد عمل **روش** فيها الجمع واللصق، وأنه انتظر بعد أن بلغ الثمانين ونسيت أحداث والنصوص التي ألقت عنها لينشر عمله لئلا يرد عليه أصحابها¹¹⁴.

وأما **يوسف** فشخصية اختلف القصاصون في نسبتها وفي كونه بطلا أم خائنا، لكن ملخص قصة هو أنه رجل من أصل إيطالي، من يهود مدينة ليفورنو، أخذ من والديه وهو صبي، تربى في قصر داي تونس وخدمه. ثم هرب وخدم في الجيش الفرنسي وقلد رتبة نقيب، وفي سبب هروبه من خدمة الداي عدة روايات. وصف **إيمريت** يوسف بأنه من "أولئك الأبطال الذين شقوا الطريق أولا ليعبره البناة الفعليون للإمبراطورية"¹¹⁵.

كانت الكتابات التي تناولت هاتين الشخصيتين أقرب إلى الرواية منها إلى التاريخ أو المذكرات مع أن أغلبها كان كذلك.

¹¹⁴ – EMERIT Marcel, *La légende de Léon Roches*, in La revue Africaine, n° 91, OPU, Alger, 1947, pages 81 – 105.

¹¹⁵ – EMERIT Marcel, *Le Mystère Yusuf*, in La revue Africaine, n° 430-431, Institut de Géographie, Alger, 1952, page 385.

4. كتاب الميتروبول الكبار واحتلال الجزائر

لم تكن الحملة العسكرية على الجزائر في البداية محل اهتمام الكتاب الكبار في فرنسا آنذاك، لأسباب ذكرناها في سياق الكلام عن الذين كتبوا عنها من كتاب مغمورين ورديئين. لكن الحملة وقعت وسقطت الجزائر العاصمة، ومضى الجيش الفرنسي قدما في إخضاع باقي مناطق البلاد، وتيقن الفرنسيون النصر، فلم يكن ذلك ليمر مرور الكرام. فظهرت هنا وهناك في فرنسا ردود أفعال لكبار الأدباء في تلك الفترة.

كان هذا الاهتمام تمهيدا للمرحلة التالية وهي رحلة الأدباء الفرنسيين إلى الجزائر والكتابة عنها. مرحلة اقترح فيها الصحفي والكاتب الفرنسي **بريفو بارادول** Prévot Paradol، كحل للضعف الذي كانت تعيشه فرنسا أمام القوى الصاعدة، ألمانيا خاصة، بناء "فرنسا جديدة" (وهو عنوان كتابه) على الأرض المستعمرة.

بعد الكتابات التي رافقت الحملة العسكرية، والتي وصفها الدارسون بالردئية، نصوص شعرية في أغلبها، أراد ناظموها انتهاز الفرصة لعلمهم ينالون الشهرة، غير أن نصوصهم لم تلبث أن نسيت بعد ذلك بقليل، جاء الدور على كتابات أخرى أعلى شأنًا ومستوى من الأولى لكنها أرادت أيضا ركوب قطار الأحداث، بأشعار غنائية على الأسلوب الكلاسيكي القديم، تناولت مواضيع مثل حملة مدينة معسكر، واتفاقية التافنة، حملتي قسنطينة، انتصار **إيزلي** Isly، استسلام **الأمير عبد القادر**، ...

كتب أحدهم، **آنتوني دوشين** Antoni Duchène، مشيدا بموقف الأمير:

مع أنني عدوك فأنا أبسط يدي إليك

يا ابن الأطلس القديم، الفخور بقضيته الجميلة

وتبكي **لويز كولي** Louise Collet أحداث ضريح **الولي سيدي ابراهيم** :

لقد أبادوهم حتى آخر صف منهم

كتيبتنا من صيادي أورليان

ألف رصاصة دوى صوتها في الأجواء، والقائد

أخذ من الملازم الشاب شابدولان Chapdelaine

حزاما أحمر، ومنديله الأزرق

هذه القصة التي تأسر كل روح

أكبر من الفن ومن الشعر...¹¹⁶

وكانت معركة مازاغران 1840 أوفر حظا، وهي معركة واجه فيها ثلاثة وعشرون ومائة جندي فرنسي، تحت قيادة لوليفر Lelièvre، اثني عشر ألف مقاتل عربي، فصارت بالنسبة للفرنسيين ملحمة. عد شارل ديوجب Charles Dejob في مقال عن هذه القصة اثني عشر عرضا مختلفا لأحداثها في مسارح باريس. ومع أن كانت هذه المسرحيات لا تصمد فنيا أمام التحليل والنقد، بحيث صارت لدى نقاد الأدب في تلك الفترة محلا للسخرية، إلا أن الجمهور صفق لها بحرارة لما وجد فيها من حماسة¹¹⁷.

والمسرحيات غير التي تروي أحداث مازاغران كثيرة في هذه الفترة، لكن أغلبها كما يقول ديبوي لم يكن فيها من الجرائر وأحداثها إلا العنوان، مثل مسرحية يهودية قسنطينة للكاتب الشهير تيوفيل غوتيي Théophile Gautier.

¹¹⁶ – *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 46.

¹¹⁷ – Charles Dejob, *La défense de Mazagran dans la littérature et les arts du dessin*, in *Revue d'histoire littéraire de la France*, Année 19, Armand Collin, Paris, 1912, pages 318-340.

يمكن لغوتيه أن يفخر بأنه أول من زار الجزائر من كتاب فرنسا الكبار آنذاك، كان ذلك في 1845. ولم يبد غيره، على غرار بالزك أو لامارتين Lamartine أو هيجو أو جورج ساند Georges Sand، أي رغبة في زيارتها، وكان أغلبهم على مذهب دي موسي De Musset إذ قال عن الجزائر "الشرق ... إنه كبير جدا، بعيد جدا". لكن هذا لا يعني أن الجزائر غابت تماما عن كتاباتهم¹¹⁸.

كانت الجزائر بالفعل واحدا من أهم انشغالات هؤلاء الكتاب. فبالزك هنا الجيش الفرنسي في جويلية 1830 بنجاح ينبئ "بمستعمرة قوية، تعيد إلى الحضارة بلادها الجميلة". كما أنه كان على اطلاع جيد بما كان يحدث في الجزائر، إذ أن مصدر معلوماته كان صديقه القديم في فاندوم، بارشو بينوان الذي ذكرناه آنفا. يدل على هذا الاطلاع وعلى اهتمام بالزك بقضية الجزائر، أنه خصص لها فصلين من فصول مشروعه الكبير الذي هلك دونه، الكوميديا الإنسانية، عنونهما الأمير والبحار الجزائري وتناول فيهما موضوع الحياة العسكرية في شمال إفريقيا.

تظهر الجزائر أيضا عند بالزك في رواية *ليّة ابنة العم*، حيث يرسل هيلو Hellot (الشخصية الرئيسية) عمه إلى الجزائر، لأن هذه الأرض كانت ملجأ لمن لديهم أزمة ضمير. لكن الجزائر حاضرة عند بالزك الصحفي أكثر مما هي عليه عند بالزك الروائي، فقد تناولها في عدة مقالاته وسلاسله التي كان يكتبها لسلسلة الجرائد السياسية، وأخبار باريس، وفي مراسلاته.

¹¹⁸ – *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 46-48.

من ذلك موقفه المعارض لبيجو ودفاعه عن **ديبورمون**، ففرنسا على رأي **بالزك** مدينة لهذا الأخير بالحملة الإفريقية. كما أنه مجد احتلال الجزائر الذي كان "معنويا، دون إطلاق قذيفة واحدة"، وتنبأ "بمستقبل كبير للمستعمرة"¹¹⁹.

في نفس الفترة تقريبا، أدلى **لامارتين** بدلوه في أحداث الجزائر، وكانت مساهمته بصفته سياسيا أكثر مما كانت بصفته أدبيا. فانتقد بشدة السيطرة العسكرية على الإدارة، وطالب في 1837 بعدم التخلي لأي سبب كان عن الأرض الجديدة. وأن الحفاظ عليها واجب وطني :

"الجزائر في رأيي إرث كبير تركته الحكومة السابقة، وهي منها هدية وداع وذكرى نبيلة منحت لفرنسا في الوقت الذي ظننا أنها ضاعت من يديها، يجب في رأيي أن تكون الجزائر امتدادا للأرض الفرنسية، وأنا لا يجب أن نحافظ على السواحل التي تمنحنا تأثيرا كبيرا في البحر المتوسط فحسب، بل وأن نحتل أيضا المناطق الداخلية، وأن نختر المواقف المهمة ونبسط سيطرتنا عليها إلى الأبد"¹²⁰.

أما **فيكتور هيجو**، فكانت علاقته مع الجزائر علاقة بالأشخاص الذين زاروها وبالأشياء القادمة منها. مثل المدفع الذي سقط أمامه لما كان يتجول في ميناء غريف وكاد يقضي عليه، مدفع يتم نقله من الجزائر نحو مدينة فانسان في 20 مارس 1844. وفي نفس الكتاب *أشياء رئيته* Choses vues، يتحدث عن أول رجلين وطئت أقدامهما أرض الجزائر في 1830، **إبيلي Ebly** زميله قديما في ثانوية لويس الأكبر، و**داري Daru** زميله في الغرفة البرلمانية.

في 1941، دعي **هيجو** إلى مأدبة عشاء عند السيدة **جيراردان Gérardin**، وكان الجنرال **بيجو** من الحاضرين بعد تعيينه حاكما عاما على الجزائر، فوصفه المؤلف

¹¹⁹ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 50.

¹²⁰ – *ibid*, p 51.

ب"بعض الخشونة لا تصل حد الفظاظية، يلتقي فيه الفلاح والرجل النبيل، حاد وسهل، لا يبدو عليه أثر ماضيه العسكري، روحاني ومهذب (...). كان الجنرال شديد الانفعال ضد الجزائري. زعم أن عجز فرنسا عن خطاب أوروبا بنبرة عالية سببه هذه الحملة، وأنه لا أسهل من احتلال الجزائر، ومن السهل إيقاف مقاتليها والقبض عليهم كجرذان وأكلهم في لقمة واحدة، لكن الصعوبة بالنسبة إليه تكمن في إعمار الأرض فهي غير منتجة، وقد تفقدها بصفته ملاحظاً أن بعد سنبل القمح عن مثيلتها قدم ونصف القدم"¹²¹.

برع فيكتور في وصف من رآهم أو سمع عنهم ممن سمو "الأفارقة"، أي عمال فرنسا في المستعمرات، الجزائري خاصة. من بين هؤلاء سان-ت-آرنو، لكنه ذكره في معرض النقد والذم، فوصفه بقاطع الرؤوس، غير المؤدب، لديه جانب دموي يغطي بذاعته، شجاع وعنيف وخجول.

وتعود الجزائر إلى كتابات هيجو بعد انقلاب الثاني من ديسمبر 1851، حيث شبهها بكايان، المستعمرة السجن أو المنفى، هي الجزائر السجن، بونة ولامبيز التي عاد إليها مرات عديدة في ديوانه *العقوبات* Les Châtiments :

"انطلق المنبوذون، على متن السفينة،

إلى الجزائر، إلى كايان،

لقد رأو بونابرت في باريس، وسوف يرون

في إفريقيا الضبع ..."

وأخيراً، من بين الشخصيات التي تطرق إليها هيجو الأمير عبد القادر، "الأمير المتأمل، الشديد اللطيف، أسد الصحراء، سلطان ولد تحت النخيل، مصاحب الأسود

¹²¹ - HUGO Victor, *Choses vues*, G. Charpentier éditeurs, Paris, 1888, P 51-52.

الحمراء، الحالم الغامض ... الذي كان يروي عطش السيوف"، ويقابله برجل قصر
الإيليزيه "المضحك الذي سماه التاريخ نابوليون الثالث"¹²².

¹²² – HUGO Victor, *Châtiments*, Nouvelle édition, Hachette, Paris, 1932, p 217-219.

5. الكتاب الذين زاروا الجزائر خلال فترة الحكم العسكري

في شهر فيفري 1841، قدم **لويس فويو** Louis Veuillot و**كزافيي مارمي** Xavier Marmier إلى الجزائر كل منهما في مهمة، عقب تنصيب **بيجو** حاكما عاما على الجزائر.

كانت مهمة **فويو** مزدوجة، فقد كان سكرتيرا خاصا ووفيا **لبيجو**، ومبعوثا من طرف **غيزو** Guizot، أحد وزراء الحكومة الفرنسية، لدراسة القضية الجزائرية بالتفصيل. زار **فويو**، خلال الأشهر العشرة التي مكثها في الجزائر، البلدة والمدية والإقليم الوهراني، وشارك في إحدى الحملات العسكرية، وجمع في 1853 بعد رحلته هذه مجموع رسائله إلى أخيه في كتاب تحت عنوان *الفرنسيون في الجزائر* يعد واحدا من "أكثر الكتب التي ألهمها الاستعمار أصالة"¹²³.

تحدث المؤلف في رسائله عن عدة مواضيع وشخصيات، عن الحاكم العام وعن أبرز القادة، وعن جنود إفريقيا، وعن المعمرين وعن الجزائريين، ومن أغرب ما جاء به تنبؤه بنهاية قريبة للإسلام في الجزائر: "اقتربت الأيام الأخيرة للإسلامية. لن يكون للجزائر بعد عشرين سنة إله غير المسيح [...] لن يكون العرب فرنسيين إلا إذا صاروا مسيحيين"¹²⁴. فحث **فويو** العسكريين على محاربة غير المتدينين في الجيش، ودعا الحكومة المدنية إلى نشر المسيحية وإقامة شعائرها وتشجيع الدخول فيها. وفي مواضع أخرى بيدي **فويو** استبصارا وإدراكا جيدا في الأمور لما يتطرق بالانتقاد إلى أخطاء فرنسا في قراراتها التي تخص الجزائر.

¹²³ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 56.

¹²⁴ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 57.

أما **مارمي** فزار الجزائر بناء على دعوة وجهت له للمشاركة في الزيارة الرسمية التي قام بها الوزير **دو سالفودي** de Salvaudy إلى الجزائر، نشر بعدها، في 1847، رسائل عن الجزائر، احتوت على وصف جيد للبلاد وللعاصمة التي اعتبرها "معسكرا ضخما، وملجأ لعدد كبير من القبائل، تبت فيه أنواع الصناعات الحياة، وتدوي كل أصوات الحرب".

في الجهة المقابلة لهؤلاء الكتاب الذين كلفوا بمهمات في الجزائر، زار البلاد أدباء تركوا الميتروبول بمحض إرادتهم ورغبتهم، انطلقوا في رحلة "رؤية إفريقيا"، أو كما قال **تيوفيل غوتيه** "ليروا فيها من الشرق". في الفترة ما بين 1845 و 1860، زار الجزائر أربعة أدباء فرنسيين كبار، أولهم **غوتيه**، وبعده **أوجين فرومونتان** Eugène Fromentin، والأخوان **غونكور** Goncourt و**فايدو** Feydeau، وأطلقوا موضة أدبية جديدة، موضة "الرحلة في الشرق" التي انتشرت حينها انتشارا واسعا.

جاء هذا النوع الجديد من الكتابة كردة فعل على أدب الحرب الذي كان يكتبه العسكريون، وكان أصحابه مولعين بالاستشراق، واستغل هؤلاء الكتاب الزوار الحضور الفرنسي في أغلب أرجاء البلاد بطريقة إيجابية وقدموه في صورة إيجابية كذلك.

وقبل أن نتطرق إلى الكتاب الأدباء، لا بد أن نعرض على أحد قامات الفكر والسياسة في فرنسا، ونسلط الضوء على زيارته للجزائر، **ألكسي دو توكفيل** الذي ذكرناه عرضا في الفصل السابق في انتقاده للفكر العنصري. زار **توكفيل** الجزائر مرتين بهدف دراسة قضية الشؤون الإفريقية الشائكة، الأولى في ربيع سنة 1841 وكتب عنها مقالا رحلة في الجزائر، والثانية في شتاء 1846 تمخض عنها تقرير قدمه في العام الموالي لغرفة البرلمان بصفته عضوا فيها ومبعوثا عنها، موضوع التقرير هو السياسة الاستعمارية المعتمدة في تسيير الجزائر، وجدنا كلا النصين في أعماله الكاملة التي نشرتها السيدة **توكفيل**.

لن نخوض في تفاصيل هذه النصوص حتى لا نخرج عن موضوعنا، وبما أننا في سياق ذكر الرحلة إلى الجزائر والانطباعات والصور التي كتبها الفرنسيون في هذه الفترة، سنقتصر على رحلة في الجزائر. الرحلة مقسمة إلى فقرات على رأس كل منها تاريخ، وعلى الأولى بتاريخ 7 ماي 1841 عنوان "المظهر العام للبلد"، نجد في هذه الفقرة التي هي بمثابة المقدمة ما نجده عند جميع الكتاب الفرنسيين آنذاك وحتى لوي برتران، وهو الإعجاب بالطبيعة الخلابة واللون الأبيض الناصع لمدينة الجزائر والتنوع العرقي واللساني الكبير فيها.

بعد المنظر العام ينتقل **توكفيل** إلى الكلام عن هندسة المدينة عربية ويصور المنزل العاصمي التقليدي، وفي نفس السياق يصف النشاط الكبير في الجزائر وأعمال البناء بحيث لا يُسمع فيها إلا صوت المعاول، ويصف كيف تحل الشوارع الواسعة على النمط الأوروبي محل الأزقة العربية الضيقة. يتخذ منها موقف المتأسف ويبرر ذلك :

"ترسم الهندسة الحاجات والعادات. لا تتجم معالمها عن حرارة الطقس فحسب ؛ بل ترسم أيضا بامتياز الحالة الاجتماعية والسياسية للسكان المسلمين والمشرقيين : تعدد الزوجات، احتجاز النساء، غياب الحياة العامة، حكام مستبدون وظالمون يجتهدون في إخفاء حياتهم ويلقون بكل مشاكلهم العاطفية داخل الوسط العائلي".¹²⁵

يمكن أن نفهم طريقة تفكير **توكفيل** فيما يخص تسيير المستعمرة، وهي مبنية على أن هذه الأخيرة لا يصلح لها ما يصلح في فرنسا من وسائل ومن مناهج، الطريقة المثلى والتي يمكن أن تعطي نتائج على المدى البعيد هي، بالنسبة إليه، الحفاظ على طابع المستعمرة العمراني والاجتماعي والديني والعمل على محاولة فهمه. يتأكد هذا الموقف كلما تقدمنا في قراءة الرحلة.

¹²⁵ – TOQUEVILLE Alexis de, *Œuvres complètes*, Tome 8, Michel Lévy Frères, Paris, 1865, p 477.

وهاهو المؤلف ينتقد تطبيق قوانين الميتروبول على المستعمرة : "لا يصلح فيها واحد، أو لا يكاد، من قوانيننا السياسية"، ويصف الموقف الداعي إلى إقامة الدولة الاجتماعية في الجزائر بأنه لأصحاب "الرأي الخاطئ والمشؤوم"¹²⁶. كما يحذر من الحجر على ثروات المعمرين، عن طريق الضرائب المستوردة من فرنسا، فما ذلك إلا حسد من العسكري للمدني.

من الأماكن التي زارها **توكفيل** ثانوية الجزائر العاصمة، التي كانت في الحقبة العثمانية ثكنة للجنود الانكشاريين. أول ما علق عليه **توكفيل** بعد إبداء إعجابه بجمال البناية، هو إجبارية درس اللغة العربية على جميع التلاميذ، فكرة أعجبتة، على خلاف النظام التعليمي بصفة عامة والذي كان منقسما إلى كلاسيكي فيه أقسام للإغريقية واللاتينية مثل ما هو معتمد في الميتروبول، والقسم الثاني نظام غير كلاسيكي، وهو الأنسب لحاجات البلد.

يتساءل **توكفيل** مستكرا : "أتساءل لماذا خلفية التعليم كلاسيكية ؟ [...] أغلبهم (التلاميذ) يبقى في الثانوية بضعة أشهر، أبناء ضباط يأتون من أوروبا ويعودون إليها"¹²⁷. الملاحظ أنه ليس في هذه المؤسسة تلميذ عربي واحد، وفيها بعض التلاميذ يكفلهم القس ويدفعون نصف ثمن التمدرس والإيواء، وكان هذا لا يعجب المدير الذي يرفض منح تعليم بثمن بخس (à bon marché).

أستاذ العربية في المؤسسة هو أحد تلاميذ **دو ساسي** De Sacy المستشرق الشهير، انطلق **توكفيل** معه في نقاش حول الفروق بين العربية الدارجة والعربية الفصحى، وحول ترجمة القرآن الكريم التي كان يراها من أهم المهمات. وبعد أن مر بسرعة على بعض الأحداث : خرق الهدنة مع الأمير عبد القادر وتبادل الاتهامات بين الطرفين وأعطى

¹²⁶ – Ibid, p 478.

¹²⁷ - Œuvres complètes, op.cit, p 497.

الحق للأمير بنص الوثيقة، واستحسن **توكفيل** فكرة استدعاء اللجنة العلمية لرسام محترف لتصوير الطابع العام للبلد.

كل هذه الأفكار تصب في موقف الكاتب الذي قدمنا الكلام عنه، أي أنه يرى الاحتفاظ بالطابع العمراني والاجتماعي للبلد وتخصيص الوسائل اللازمة لدراسته وفهمه، وتجري التغييرات فقط على المستوى العسكري والسياسي، فهو قد أكد في كلمته أمام غرفة البرلمان على ضرورة الحفاظ على مستعمرة الجزائر. وتؤيد الخاتمة هذه الفكرة إذ يناقش **توكفيل** فيها غياب مؤسسة دينية مثل الكنيسة في الإسلام.

ننتقل إلى **غوتيه** الذي زار الجزائر مرتين، ونقل كلتيهما في كتاباته التي يفهم من المقارنة بينها حدوث تحسن في الأوضاع. في المرة الأولى، 1845 كان سعيدا بالرحيل عائدا إلى فرنسا: "أطلق عائدا إلى فرنسا بعد أن زرت قسنطينة وكل ما يمكن زيارته في هذا البلد الرائع من دون أن تقطع رقبتني ... الجزائر بلد رائع ليس فيه شيء زائد سوى الفرنسيون". ثم رجع بعد سبعة أعوام ليعبر عن شعوره حيث صار "مطمئنا تجاه اللون المحلي، الجزائر لم تصبح بعد مرسيليا إفريقية..."

أما **فرومونتان** فرثى عند أول لقاء بالجزائر العاصمة : "البناء العالي للأسوار التركية، هذا الحزام العتيق المتقد الأسمر المحطم من كل نواحيه، وأن المدينة العالية فقدت مآذنها ... وأن برج المنارة لم يعد يرعب أحدا وهو يحمل العلم الثلاثي (علم فرنسا بألوانه الثلاثة) كعلامة على الإخضاع. [...] فقدت الجزائر شرفها فقد صارت فرنسية".

أبدى الأخوان **غونكور** إعجابهما، بعد شهر قضياه في الجزائر بالجزائر العاصمة حديقة الفنانين، المدينة العربية بشوارعها الفرنسية الثلاثة. كما أنهما تجاهلا تماما الحضور العسكري ووجود السماسرة والمعمرين.

أجمع هؤلاء الأدباء السياح الذين ساروا في هذا التيار على تجاهل الإنجازات العسكرية وبدايات الاحتلال، كان تركيزهم بالمقابل على الجزائر التي لا وجود للفرنسيين فيها. ذلك أنهم وجدوا غايتهم، بصفتهم رومانتيكيين متحمسين، في ذلك العرض الذي يقدمه شمال إفريقيا باعتبارها جزءا من الشرق، شرق تدور أحداثه في وسط طبيعي وإنساني محلي.

لكن الجمهور لم يلبث أن مل هذا الاستشراق وتعب من سهولته، فأصحابه الكتاب يستمتعون بتقليد لوحات الرسامين مثل **دولاكروا Delacroix** و**ديكامب Descamps** و**ماريلا Marilat** تقليدا رديئا، في فترة من التخمّة الثقافية العامة.

من بين هذه الأعمال، قد تكون أكثرها أهمية وتجديدا أعمال **فرومونتان**، ويصفه **بيار مارتينو** بأنه صانع "الجزائر الأدبية" وعد كتابيه صيف في الصحراء وجيش في الساحل، "أثن قطعة في كنز الأدب الجزائري" (أي المكتوب عن الجزائر). ويكمن الدور الذي لعبته هذه الأعمال، **فرومونتان** بالدرجة الأولى ثم غيره من مدرسة الفن للفن الرومانتيكية، أنها صنعت عن الجزائر أفكارا وصورا نمطية ثم تداولتها وأورثتها أجيالا بعدها، مثل: الجزائر العسكرية، جزائر الفروسية، جزائر رحلات الصيد الكبرى، جزائر العشق، جزائر ألف ليلة وليلة، إلخ.

تعددت هذه الرؤى وتعددت الصور النمطية بتعدد مشارب الرومانتيكيين الذين صنعوها ومذاهبهم، فقد جاء كل منهم -حسب **مارتينو**- من فرنسا بقالب جاهز للجزائر وضع فيه ما كان يلاحظه. فأسقطت الرومانتيكية العسكرية التي كانت في البداية ذكريات الحملة المصرية على الجزائر، واعتقدت الرومانتيكية الكاثوليكية في عودة الحروب الصليبية، وعبرت الرومانتيكية الملحمية عن شغفها بالحضارات البدائية، وبحثت الرومانتيكية التاريخية عن الإنجيلية أو مناظر الحقبة الإقطاعية، واستعمل أنصار الفن للفن القلم كما استعمل الرسامون الريشة، وتغنت رومانتيكية المنفى بالشاعرية الفلسفية.

بعد ذلك جاء الواقعيون ثم الطبيعيون فانقلبوا على الرومانتيكية، وفرضوا طريقتهم على الأدب الفرنسي، وفضلوا الرواية على باقي الأجناس، وما كان الأدب المكتوب عن الجزائر (ومن الجزائر) بمنأى عن هذا التغيير الذي حصل في الميتروبول. من أول من ثاروا على الصور النمطية الرومانتيكية، الكاتب الفرنسي الشهير، الذي يعتبره لوي برتران أستاذاً له، غوستاف فلوبيير Gustave Flaubert.

مثلت ملاحظات فلوبيير التي نشرها بعد رحلته إلى قرطاج بحثاً عن سالامبو Salammbô، والتي مر خلالها بالجزائر وتوقف بعدة مدن، في الفترة ما بين أبريل وجوان 1858، ردة فعل واقعية قوية على الرومانتيكيين.

كانت مدة أحد عشر يوماً قضاها فلوبيير في الإقليم القسنطيني كفيلاً بأن تشكل لديه صورة دقيقة إلى حد ما عما كانت عليه الجزائر "تحت حكم السيف". كانت ملاحظات المؤلف رصينة وبلغية، على الرغم من الاختصار الذي تميزت به. ثم إنها اتسمت بالقسوة لأن الذهن المتحرر لرائد المدرسة الواقعية لم يجد ما يرضيه، في بلد استحوذ عليه الجنود وأخضعوه لسيطرتهم وسيروه على مزاجهم.

كانت التكنات والحصون في كل مكان، الضباط البيروقراطيون الحمقى، الموظفون الأغبياء بلباسهم القتالي، أهال مثيرون للشفقة، تفوح من المكان رائحة المنبوذين، حالة متقدمة من الفقر ومن اللعنة، نساء يعملن في الزراعة يلبسن سترات وقبعات الرجال، ... إنها الحضارة في أحقر وجه لها. لخص فلوبيير بهذه المشاهد صورة الجزائر تحت الحكم العسكري.

بعد عودته إلى فرنسا، وكان قد زار مصر كذلك، عزم فلوبيير على تأليف كتاب انطلاقاً من ملاحظاته التي دونها في رحلتيه، الأولى في 1949 والثانية في 1958، الموضوع الرئيسي للكتاب سيكون الشرق نو الرداء الأسود. خاصة الجزائر التي استنتج

مرات عدة رداءة سياسيتها وبؤس العيش فيها. غير أنه لم يتمكن من تحويل هذا المشروع إلى واقع، وتركها فكرة ألهمت فيما بعد صديقه إيرنست فايدو.

كان فايدو ينسب نفسه إلى المدرسة البيتورسكية *Pittoresque* (التصويرية) في الأدب، وقد ألف ثلاثية روائية عن الجزائر: *الجزائر العاصمة* (1862)، و*سر السعادة* (1864)، و*سونة Souna* (1874). كانت هذه العناوين أعمالا روائية وتوثيقية في آن واحد، مزيج من جزائر *فرومونتان* وجزائر *فلوبيير*، غير أن النقاد أخذوا عليه السطحية في معالجة المواضيع.

كانت قضية مستقبل المستعمرة حاضرة بقوة في أعمال فايدو، مع انتقاد شديد للنظام القائم في الجزائر، فهو قد أمضى فترة زيارته للمستعمرة في النقاشات مع أهلها والحديث إليهم وأعطى في النهاية خلاصة عما كان يحدث في البلاد، و تحديدا في العاصمة. "نصفها عربي والنصف الآخر فرنسي"، فضل فايدو تقديمها كما هي بما فيها من قبح وبما فيها من جمال. في الرواية الثالثة، التي نشرت بعد موت المؤلف، طرأ تغير على أسلوب المؤلف حيث امتزجت الفكاهة بالنقد، ويرجع النقاد ذلك إلى تأثير كتاب *تارتاران دو تاراسكون* *Tartarin de Tarascon*، لألفونس دودي *Alfonse Daudet* والذي نشر في الوقت الذي ألفت فيه رواية *سونة*.

بدأت مع ألفونس دودي مرحلة ثانية من ردود الفعل الواقعية على الرومانتيكية، فقد سخر دودي في روايته *تارتاران دو تاراسكون* -التي حققت نجاحا عريضا- من اللوحات التي رسمها الرومانتيكيون قبله، رسامين كانوا أو أدباء، وقدم الشخصيات بشكل

كاريكاتوري ملخصا الحلم الشرقي، حسب ديجو، في كونه غرائبية فوضوية exotisme de bazar¹²⁸.

تارتاران عبارة عن رد مكرر تميزه حيوية ساخرة على فرومونتان، يظهر هذا جليا من خلال توظيفه لشخصيات تشبه تلك التي عند فرومونتان، مثل سيدات القسبة اللائي يتحدث هذا الأخير عنهن باحترام وبإعجاب، أما دودي فيجعل منهن موضوعا للسخرية. كأن دودي يقول أن الجزائر التي يحكمها العسكريون فيها عدة أمور يجب أن تقال وظواهر يجب أن تنتقد، عوض هذا الاستشراق البالي الذي يقدم صورا أكثرها خاطئة.

لم لا يتحدث أحد عن رائحة الخمر ورائحة الثكنات العسكرية التي تختنق بها المستعمرة، وعن معاناة المعمرين الذين يستصلحون الأراضي من غزو الجراد وغيره من المشاكل، وعن سلوكات الفجار والسكران من قادة الجيش، وعن مظاهر البؤس والشقاء في قرى الأهالي، وعن التردد الذي طالت مدته بشأن تقرير مصير المستعمرة ومن يديرها، كل هذه مواضيع تطرق دودي إليها وأظهر في طرحه لها قدرة عالية في الملاحظة الدقيقة وتوظيف الخيال وكتابة الشعر.

الموهبة التي فجرتها زيارة دودي وابن عمه رينو Reynaud -الذي سيصبح تارتاران- ترجمت في عدة مؤلفات، بالإضافة إلى تارتاران : بغلة القاضي، فندق القوافل، صاحب وسام 15 أوت، الجراد، البرتقال. ثم إن الملاحظات التي دونها دودي عن الرحلة ونشرها ألهمت عددا كبيرا من المسرحيات التي عرضت في باريس بين 1862 و1884،

¹²⁸ – DEJEUX Jean, *La littérature algérienne contemporaine*, coll : Que sais-je ?, PUF, Paris, 1975, p 40.

والتي شارك في كتابة بعضها، كما جاء في دراسة هنري بورناك Henri Bourneque¹²⁹.

مثل دودي إذن نقطة تحول في الأدب الفرنسي المكتوب عن الجزائر، لأنه كان ذلك الملاحظ المستبصر الذي ألقى الضوء على المعاناة التي كانت تعيشها الجزائر تحت الإدارة العسكرية.

بعد سقوط الحكم العسكري في المستعمرة وانتقال الإدارة إلى المدنيين، كان أمل المعمرين كبيرا في أن تتحسن أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لكن غي دو موباسون Guy de Maupassant، أحد أبرز كتاب المدرسة الطبيعية، لم يجد خلال زيارته للمستعمرة ما كان متوقعا من الإدارة المدنية للمستعمرة. تجول موباسون في الجزائر والتقى بعض المعمرين وتحدث إليهم، من بينهم امرأة من الألّراس لقيها صدفة ليكتب بعد ذلك نصين فندق القوافل وتحت الشمس.

عبر المؤلف عن استنكاره لفشل الاستعمار الرسمي الذي تسيّره إدارة مدنية مقصرة في مهمتها، وفيها بقية من عادات وسلوكات المحتلين الأوائل الهمجيين والخرقى. يقول موباسون :

"نحن من يبدو بريريا وسط هؤلاء البرابرة"¹³⁰.

لم يستثن موباسون من وصفه الكاريكاتوري وسخريته السوداء المتشائمة أحدا، حتى القادة العسكريين والجنود الذين كانوا -بالنسبة لفرنسا- يقومون بواجبهم تجاه وطنهم، خاصة بعد أن أخمّدوا ثورة بوعمامة في الإقليم الوهراني. وذلك في روبرتاج أنجزه لمجلة لوغولوا Le Gaulois.

¹²⁹ – CABANES Jean-Louis et SAIDAH Jean-Pierre, *La Fantaisie post-romantique*, Presses Universitaires du Mirail, Toulouse, 2003, p 277-278.

¹³⁰ – *La littérature algérienne contemporaine*, op.cit, p 17.

عاد الكاتب إلى الجزائر مرة ثانية في 1887، وبقي موقفه على حاله، بحيث ترك من خلال مراسلاته انطبعا بأن هذه الأرض ملعونة، ملعون من يبقى فيها لولا بحرها وسمائها الصافيان. يقول ذلك مع أنه وجد راحته والشفاء من مرضه، النفسي أو العقلاني، في سحر الصحراء وهدوئها.

هذه مجمل مواقف كتاب الميتروبول الذين زاروا الجزائر ومجمل أعمالهم، بقي أن نذكر في الأخير حالة استثنائية، كاتبان جامعيان نشطا على هامش المدرسة الطبيعية، يمكن اعتبارهما إرهابا للحركة الأدبية التي ستنشأ في الجزائر وسيجتمع الفاعلون فيها تحت مسمى الجزائرية :

إميل ماسكيري Emile Masquerey الذي درّس لسنوات عديدة في المدرسة العليا للآداب في الجزائر العاصمة، ثم صار مديرا لها. كان ماسكيري خير ممثل للروح الوطنية الفرنسية في الجزائر، بصفته إثنوغرافيا وعالم لسانيات ومؤرخا تعتبر أعماله مرجعا في تاريخ الشعوب البربرية. يقول تايار عن كتابه *ذكريات ورؤى إفريقية* (1894) :

"واحد من أكثر الكتب إثارة، وألوانا، ونورا، يأخذك إلى سماء الجزائر، وشمسها، وجوّها، وأرضها ... يتجول فيه المورسكي، والعربي، والبربري، ويفكرون ويتكلمون. يفكرون، ويتكلمون، ويتصرفون كما لو كانوا في الواقع، لأن ماسكيري عاش بينهم طويلا"¹³¹.

حقق ماسكيري نجاحا وبريقا لم يكن من حظ مواطنه **جول لوماتر** Jules Le Maitre، الذي كان أيضا أستاذا في المدرسة العليا للآداب. كان لوماتر يتردد في الجزائر على ورشات الفنانين، وعلى أوساط مجتمع بورجوازي متعلم، وكان يمكث الساعات

¹³¹ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 72.

الطوال في ساحة قصر الحكومة ينظم أبياتا على طريقة البارناسيين Parnassiens¹³²، قصائد أخرجها في ديوان أعطاه عنوان شرقيات قصيرة Petites Orientales، لاقى نجاحا كبيرا.

تتحرك في هذه القصائد شخصيات مختلفة تعيش في البيئة الجزائرية، فكما تتحدث عن أطفال بسكرة الذين يمسخون الأحذية في شوارع، تتحدث أيضا عن اليهوديات اللاتي خرجن للتو من الكتاب المقدس، عن أولاد نايل ورقصهم، عن مرتادي المقاهي العربية، عن الشباب القادم من فرنسا، بالإضافة إلى الطبيعة والمناخ القاسيين في الجزائر.

لكن هذا النجاح لم يتم، وتغير مجرى الأمور لما أراد لوماتر اقتفاء أثر فرومونتان والقيام برحلة إلى الصحراء، إلى واحات الأغواط. كانت رحلة مرهقة لم يطقها الكاتب المتعود على الرفاهية ورغد العيش، وقضت هذه المغامرة على أحلام الكاتب نهائيا لما تاه خلالها في الصحراء الواسعة. تلى هذا الكابوس مغامرة عاطفية فاشلة جعلت لوماتر يرجع إلى فرنسا فرار من هذه الأرض غير المضيافة. ثم ظهر أثر هذه التجربة في موسوعة ألفها لوماتر للأدباء الفرنسيين في تلك الفترة وسمها المعاصرون Les contemporains، حيث لم يقل فيها حرفا عن الأعمال التي تناولت الجزائر ولا عن أصحابها¹³³.

¹³² – البرناسيين، الشعراء المنتمون إلى مدرسة البرناس Parnasse : تيار شعري ظهر في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من مبادئه تهذيب الفن الشعري، الابتعاد عن الذاتية ونبذ الالتزام الاجتماعي أو السياسي في الشعر، شعاره كان "الفن للفن".

¹³³ – L'Algérie dans les lettres d'expression française, op.cit, p 75.

6- ظهور التيارات الجديدة في المستعمرة

في مطلع القرن العشرين، ما بين 1900 و1935 تقريبا، تغير أسلوب كتابة الفرنسيين عن الجزائر ومواضيعهم. يتعلق الأمر هنا بثلاثة من كبار الأدباء الفرنسيين الإنسانيين في تلك الفترة أندري جيد André Gide، وإيزابال إبرهارت Isabelle Eberhardt، وهنري دو مونتييرلان Henri de Montherlant. جيل جديد من زوار الجزائر، تنوعت أسباب زيارتهم للمستعمرة واختلفت عن من قبلهم، فاختلفت بذلك الرؤى وأهداف الكتابة. فبعد أن زار من قبلهم الجزائر ملاحظين ومحققين ورسامين، جاء هؤلاء بهدف العلاج -جيد ومونتييرلان- أو بداعي الرابط الروحي -إبرهارت-، وتجولوا فيها بأرواحهم وقلوبهم وحواسهم فاكتشفوا فيها أخلاقية مثيرة وجمالية أصيلة.

كتب أندري جيد مجموعة من الكتب تجمع بينها الجزائر، مثل *أقوات الأرض* 1897 Nourriture terrestre، *لو ماتت الحبة* 1927 Si le grain meurt، *اللا-أخلاقي* 1902 l'Immoraliste، *آمينتاس* 1905 Amyntas. كانت هذه المؤلفات ثمرة لهذه الأرض التي جاء إليها جيد بهدف العلاج، من حالة متقدمة من السل، فأنقذت حياته.

ما يميز جيد عن غيره هو أنه الكاتب الذي سيبقى أثره حاضرا في الجزائر حتى بعد أربعين سنة، مثل جون سيناك Jean Sénac وغيره من كتاب الجزائر الفرنسية. قدم جيد من خلال المجموعة المذكورة رؤية خرافية لبلد تحرير الحواس، والهروب، والعيش السعيد، وهو الباحث عن شفاء الجسد ونشوة الروح.

غير أن المؤلف لم يتحدث في أعماله من الناس إلى عن من وافق هواه، كما أن الاستعارة والتشبيه بالحيوان -الذي سنجدها عند برتران وغالبية كتاب تلك الفترة كما سبين

في موضعه- كانت حاضرة بقوة لديه، مثلما شبه أحد الأطفال ممن كانوا يزورونه ويرافقونه في جولاته في مدينة بسكرة بالكلب في شكله وفي بعض سلوكاته وحتى في وفائه¹³⁴. وجد **جيد**، حسب **ديجو**، في هذه الأرض مناخا مناسباً ساعده على التحرر، لكنه لم يجعل قراءه يكتشفون الجزائر الحقيقية¹³⁵.

كانت الرحلة الجزائرية الاستشفائية مفيدة جدا لشخص **جيد** أكثر بكثير مما كانت مفيدة لصورة الجزائر أو للقراء، فقد قدم إليها كما يقول **ديبوي** منطويا على نفسه ومنغلقا، لأسباب دينية في البداية ثم فنية، ثم اكتشف فيها العالم الخارجي¹³⁶. أوصلت الأرض الجديدة **جيد** إلى الإحساس بالسعادة الحقيقية، وإلى السكينة وهدوء النفس عبر انسجام حواسه وروحه مع المنظر الغريب الأجنبي الذي غذاه بقدر ما أسعده، انسجام تحول شيئا فشيئا من تأثر غير واع إلى رؤية، فتعدى أثر الجزائر على **جيد**، من أثر على الجسد والروح إلى أثر على الأسلوب، وتفتقت موهبة كتابة نثر شاعري.

بعد **جيد**، لا يمكن أن نمر على هذه الفترة دون التطرق إلى **إيزابال إبراهيم**، أو **إيزابال** فحسب كما يسميها محبوبها، أو حتى **سي شريف** كما سماها **روبير راندو** في رواية *الجزائريون* Les Algérienistes بحيث أحيّا ذكرها بجعلها إحدى الشخصيات، أو **سي محمود السعدي** كما كانت هي تسمى نفسها.

ثم إن هذه الكاتبة التي يصنف أدبها في خانة الأدب الفرنسي سويسرية المولد، من أبوين روسيين، أب مسلم وأم مسيحية، قدمت إلى عنابة في البداية، ثم إلى مدينة الوادي حيث تزوجت رجلا جزائريا كان ضابطا في فرق الصباحية ثم سكرتيرا في بلدية مختلطة،

¹³⁴ – GIDE André, *l'Immoraliste*, Nouvelle édition, Symphonie Classique, Beyrouth, 2011, p 26-27.

¹³⁵ – *La littérature algérienne contemporaine*, op.cit, p 18.

¹³⁶ – *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, op.cit, p 78.

طردت من الجزائر بعد محاولة اغتيالها ثم عادت في 1902، وكانت بالنسبة للسلطات الفرنسية شخصا غريبا وخطيرا فوضعوها تحت المراقبة.

اجتماع كل هذه المتفرقات في شخص **إبرهارة** أحاطها بالغرابة، ولازمته الغرابة طوال حياتها ولازمت أعمالها الأدبية التي لم تتمكن من إتمامها. وصفت الكاتبة الرحالة نفسها *بالمغامرة*، وجابت بوادي الجزائر وصحراءها ترتدي لباس الرجال الجزائريين وتعيش عيشتهم وتدون الملاحظات. لم يكن وصف خصائص أرض الجزائر وسمائها أولوية بالنسبة **لإبرهارة**، بل كان همها اكتشاف ذاتها وروحها المسافرة من خلال بلد لم تسكن أرضه بقدر ما سكن هو روحها¹³⁷.

التقت في **إبرهارة**، أو بالأحرى تصارعت بداخلها سلامة النية والخبث، الانحراف واللامبالاة، التوجه نحو العدم وتسامي التصوف الإسلامي، فجعلت منها شخصية معقدة، وامرأة متفهمة ومتعاطفة في نفس الوقت. عاشت بين سكان الصحراء والبوادي وسجلت حياتهم ثم ماتت بينهم في فيضانات عين الصفراء. قرب **إيزابال** من الوسط المجتمع المسلم وفهمها له وتعاطفها معه، جعلها تصنف في قائمة الأدباء الذين اجتهدوا في مد الجسور وربط الصلات بين الشرق والغرب.

مثلت الجزائر إذن بالنسبة **لجيد وإبرهارة** أرض التحرر واستكشاف الذات، أما **هنري دو مونتيرلان** فقد ذهب إلى أبعد من ذلك فاعتبر نفسه "مواطنًا جزائريًا إلى إشعار آخر". بعد قدم هذا الأخير إليها بدوره للعلاج من داء التيفوئيد ومن جروح أصيب بها في الحرب، فاستعاد عافيته الجسدية والنفسية. وبعد أن كان ذا طبع حاد ومزاج سيئ، أصبح سهلاً ليناً، بعد الاتصال بفراغ الصحراء ورمالها وهدوئها وفراغ المدن وسكونها .

كان **مونتيّرلان** في الجزائر ميّتا باعتبار العالم الباريسي، غير أن هذه الميّطة هي الحياة الحقيقية بالنسبة إليه. فالجزائر تمثّل في نظره كوكبا آخر يقع على بعد بضع ساعات من فرنسا، كوكب آخر لا من حيث الفرق الكبير في الصورة الطبيعية فحسب، بل وعلى مستوى الصورة الإنسانية كذلك: فقد وصف الأهالي في تحركاتهم والمهن التي يشتغلون بها وقارنهم بجيرانهم التونسيين والمغاربة وبين اختلافهم الشديد عنهم، كما وصف أوروبيي الجزائر في لباسهم وسلوكهم ونمط عيشهم.

كان الجانب الإنساني هو الأهم عند **مونتيّرلان**، بحيث جعل الاختلاط بالأجناس المختلفة المجتمعة في الجزائر **مونتيّرلان** المتشائم يتصالح مع الحياة ومع نفسه. لقد انصب تركيزه على الشخصيات التي تنتمي إلى المجتمع الخاضع للاستعمار، وعلى العنف الذي كان يمارسه المجتمع المسيطر الأقوى ماديا، الأوروبيون. وحضرت الحيوانات بقوة في كتاباته بصفاتها جزءا لا ينفصل عن المجتمع المحلي، مثل وصفه لعلاقة صداقة حميمة بين بنت وحمارة، أو رقص مجموعة من الصبيان حول جثة نسر أخذها أحدهم وضمها إلى صدره، فينضم **مونتيّرلان** إلى من استعملوا الاستعارة الحيوانية في وصفهم.

أسهمت الجزائر في كشف **مونتيّرلان** الجديد، جسد جديد وروح جديدة وأسلوب جديد، وكان أثرها عليه كبيرا كما كان على **إبرهارة** وعلى **جيد**، وصارت زيارة الجزائر والمكث فيها بالنسبة لهؤلاء ضرورة، ومصدرا ألهمهم صفحات لا تنسى من الأدب الفرنسي غيرت صورة الجزائر التقليدية التي كان يقدمها، ووسعت المواضيع الكلاسيكية التي كانت متداولة، ومهدت لظهور أدب فرنسي خاص بالجزائر. فقد فعل **برتران** مثلما فعلوا غير أن التوظيف كان مختلفا.

الفصل الثالث: ميلاد تيار أدبي وفكري جديد في الجزائر المستعمرة

1. السياق السياسي والاجتماعي لبروز التيار الجديد

لقد كان للجزائر، كما رأينا، في الأدب الفرنسي النصيب الأوفر من كلامه عن الأجنبي، لأسباب تاريخية وسياسية لا تخفى وقد أشرنا لبعضها، كما أن تناول هذا الأدب لها لم يكن كتناوله لغيرها، في خصوصية تتضح بمقارنة صورة الآخر بصفة عامة وصورة الجزائري، واتسعت المساحة التي شغلتها الجزائر في النصوص الفرنسية بعد الاستعمار، وزادت اتساعا مع تغلغل الاستعمار في الأرض إلى أن استقلت الجزائر المستعمرة بأدب خاص بها سمي باسمها : الجزائرية ثم مدرسة الجزائر العاصمة.

ليس المقصود بالكلام عن السياق أن نتناول تاريخ الاستعمار برمته، فليس بحثنا موضعا لذلك ولا هو موضوع له، بل ما يتعلق من هذا التاريخ بالأدب الجزائري الذي رأى النور استجابة لحاجة مجتمع جديد نشأ وتطور ثم تمكن وهيمن. إنه المجتمع الاستعماري في الجزائر، وضعنا إذن للجزائرية في سياقها التاريخي يعني الكلام عن هذا المجتمع فهو قطب رحي هذا التيار الأدبي، بحيث لا مجال لفهم نصوصه وتحليلها دون تصور واضح لهذا المجتمع.

ظهرت البوادر الأولى للأدب وللأيديولوجية الجزائرية في نهاية القرن التاسع عشر، وترسخت كتيار أو مدرسة فكرية أدبية خلال السنوات العشرين الأولى من القرن الموالي، وصمدت إلى غاية سنة 1935 تقريبا. كما أنها ترسخت كأيديولوجية عنصرية لا زالت حاضرة مشاهدة، ولو أن المدرسة الجزائرية صارت من التاريخ المنسي أو المُخفى، في السياسات الفرنسية، الاجتماعية خاصة، وفي المخيال الجماعي الفرنسي، كما يكشف عنه ستورا وجيني JENNI في *الذاكرات الخطيرة* Les mémoires dangereuses، أو آلان روسيو RUSCIO Alain في *نوستالجيري: التاريخ اللامنتهي للمنظمة السرية المسلحة* *Nostalgie : l'interminable histoire de l'OAS*، وغيرهما من المؤرخين والدارسين الفرنسيين.

لقد ظهرت في الفترة المذكورة، بداية القرن العشرين على وجه الخصوص، نتائج لتحوّل كان قد بدأ في منتصف القرن التاسع عشر، تحوّل من الحكم العسكري والسيطرة العسكرية إلى الحكم المدني والسيطرة الإدارية. لم تكن الجزائر بداية من تاريخ احتلالها إلى غاية عام 1850 تقريبا سوى معسكر شاسع، يشكل فيها المدنيون، ممن سموا بالمعمرين فيما بعد، الاستثناء. كما أن السياسة التي انتهجتها فرنسا في السنوات الأولى من الاحتلال كانت سياسة إخضاع بالقوة العسكرية، سواء تعلق الأمر بالجزائريين (الأهالي) أو بالأوروبيين.

صدرت في هذه المرحلة، مرحلة الإخضاع، مراسيم وقوانين تتعلق بالإدارة، مثل المرسومين الصادرين في جويلية 1834 وفي 1845، بحيث وصف الأول بأنه يشرع لحصار أكثر مما هو يؤسس لتنظيم إداري، ووصف الثاني بأنه تقليص لصلاحيات الحاكم العام لصالح وزير الحرب¹³⁸. أما المدنيون الذين وصفناهم بالاستثناء فقد كانوا إما تجارا نهمين أو مغامرين غربيي الأطوار.

لكن هذا الواقع الميداني سرعان ما تغير، وكان التغير معتبرا. ذلك أن الفرنسيين أدركوا أن القوة العسكرية ليست كافية لإحكام السيطرة على هذه الأرض المترامية الأطراف، وأن أفضل طريقة هي العمل على إعمارها بشريا واقتصاديا. ففتحت أبواب الهجرة إلى المستعمرة، فنتابعت أمواج المهاجرين من مختلف أنحاء أوروبا والبحر الأبيض المتوسط: من إسبانيا، ومن جزر الباليار، ومن مالطا، و من إيطاليا، ومن غيرها.

ذلك بعد أن أصدرت الحكومة الفرنسية قرارات تحفيزية، من بينها منح الهكتارات من الأراضي أو بيعها بأثمان حقيرة، بالإضافة إلى منح السكنات، لمن يريد العمل عليها واستصلاحها. كان هذا جزءا من سياسة المارشال بيجو Bugeaud الذي جعل الحكومة

¹³⁸ – PERREAU PRADIER Pierre et BESSON Maurice, *L'Afrique du nord et la guerre*, Librairie Félix Alcan, Paris, 1918, p 33.

تتولى بنفسها نقل المهاجرين، وتعبيد الطرقات، وإنشاء المساكن، وإمداد الوافدين بالحبوب وبالمواشي حتى يصيروا قادرين على استغلال أراضيهم بأنفسهم¹³⁹.

بنيت المستوطنات لاستقبال المهاجرين وتكاثرت ليبلغ عددها سنة 1851، مائة وستة وثلاثين في المناطق الثلاث : الشرق والوسط والغرب. وبدأ صوت مجتمع جديد متكون من هؤلاء الوافدين يعلو ويُسمع، منهم الفلاحون ومنهم التجار ومنهم الجنود العاملون في مهن مختلفة، ثم طرأ ما يحدث غالبا في حالات مثل هذه، أي احتكاكات وصدامات بين عنصري التركيبة الاجتماعية، المدني والعسكري. فنشب منذ 1845 الصراع على الأرض بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية.

استولت صحافة الميتروبول على مطالب المعمرين وروجت لها، وخاض بعض البرلمانيين معركة لصالح الحرية السياسية لمستوطني الجزائر، فهاجموا النظام القائم آنذاك دفاعا عن هذه القضية. يتعلق الأمر بنظام **لويس السادس عشر** Louis XVI الذي أطاحت به ثورة 1848، وأتاحت للمعمرين الفرصة لتحقيق طموحاتهم، ومن أهمها ضم الجزائر بصفة رسمية إلى فرنسا كجزء منها، ومنح المعمرين مقاعد في البرلمان. لم تخيب الجمهورية الثالثة، التي قامت للتو، آمالهم في الدستور الجديد الذي صدر في 4 نوفمبر 1848، بحيث نص في المادة 109 منه على اعتبار الجزائر أرضا فرنسية. سمي هذا الحدث "الإدماج الأول"¹⁴⁰.

حقق المعمرون كل هذه المكاسب، بحيث تم وضع الأوروبيين في الجزائر تحت إدارة مدنية متطورة مستوحاة من النظم الأوروبية الحديثة، لكن هذه السياسة قامت، في وجهها الآخر، على التفرقة العنصرية بين الأوروبيين والجزائريين. فقد بقي هؤلاء، بسبب

139 - حسينة حمّاميد، "المستوطنون الأوروبيون و الثورة الجزائرية"، منشورات الحبر، الجزائر، 2007، ص 23.

140 - المرجع نفسه، ص 27.

إصرار المستوطنين على عدم تسويتهم بهم، خاضعين لإدارة مركزية عسكرية لا تختلف عن الإدارة السابقة من الناحية التنظيمية ولا من الناحية الاجتماعية.

تواصلت سياسة الإدماج المذكورة خلال فترة حكم نابليون الثالث Napoleon III، وكان يشرف عليها الأمير جيروم بوناپرت Jérôme Bonaparte الذي كان على رأس وزارة الجزائر و المستعمرات. لكن بعد تعيين المارشال بيليسي Pélissier حاكما عاما، عاد النظام العسكري إلى الواجهة، وأعلن نابوليون عن مشروع سياسته العربية، وضحي النظام الجديد بجزء من مصالح المستوطنين.

لم يقف المعمرون أمام هذا الوضع مكتوفي الأيدي، بل قاوموا لأجل استعادة "حقوقهم" (والتي هي عبارة عن امتيازات)، كما أن عدد السكان الأوروبيين كان في تزايد مستمر، بالإضافة إلى عدد الممنوعين من الإقامة في الجزائر في 1848، وقد استمات هؤلاء في الدفاع عن حقوق المستوطنين¹⁴¹.

نشر أحد هؤلاء كتابا تحت عنوان فرنسا الجديدة صرح فيه بأنه :

"لا يجب أن تكون إفريقيا بالنسبة إلينا مجرد محل تجاري كما هو الحال بالنسبة للهند، ولا مجرد معسكر أو حقل يتدرب فيه جنودنا، ولا حتى حقل تجارب لعلماء الإنسانيات، إنها أرض فرنسية يجب أن يعمرها في أقرب وقت فرنسيون ويمتلكوها ويزرعوها إذا ما أردنا ترجيح كفة الميزان لصالحنا في حل القضايا العالمية"¹⁴².

حدث فيما بعد أن انهزم الجيش الفرنسي ضد الألمان في معركة سودان Sedan سنة 1870. وهو الحدث المهم الذي ترك بالغ الأثر في نفس لوي برتران كما سنتبين من مذكراته، وهو ابن اللورين التي ضمها الألمان بعد الانتصار، بحيث سبب لديه كبتا أراد

¹⁴¹ -L'Afrique du nord et la guerre, op.cit, p 34.

¹⁴² - Ibid.

التنفيس عنه في الجزائر فيما بعد، وحمل الفرنسيين مسؤولية الهزيمة لفتور همتهم وضعف الروح الوطنية لديهم، ويعتبر برتران أن بعث الروح من جديد في الفرنسيين سيكون من الجزائر الفتية القوية.

هذا وقد وفد العديد من الألزاسيين واللورينيين بعد استيلاء الألمان على المنطقة إلى الجزائر واستقروا فيها مستوطنين.

"بعد هذه النكسة إذن، وإلقاء الألمان القبض على نابليون، ضعف موقف العسكريين ومالت الكفة لصالح المستوطنين "وجاءت حكومة الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالحهم وتحقق جميع مطالبهم"¹⁴³.

ترزع أدولف كريميو Adolf Crémieux، المسؤول الأول عن الشؤون الجزائرية في هذه الحكومة حركة تغييرات جديدة لصالح أوروبيي الجزائر بصفة عامة، فأصدر بموجبها ستة وثلاثين مرسوما تتعلق جميعها بالجزائر في نفس السنة التي نتحدث عنها 1870. تلخصت أهم محتويات هذه المراسيم في: رفع عدد مقاعد ممثلي المعمرين في البرلمان الفرنسي، وتوسيع صلاحيات الحكم المدني، كما صار الحاكم العام للجزائر يتعامل مباشرة مع الوزارات الفرنسية المختلفة دون المرور بوزارة الحربية كما كان في الماضي، وصار اختيار ولاية المناطق الجزائرية من شأن المعمرين، بعد أن ألغيت المكاتب العربية وبسط هؤلاء نفوذهم على المناطق التي يسكنها المسلمون، وأخيرا قرار تجنيس اليهود.

مثلت هذه التغييرات بداية للعمل على برنامج جديد بشأن مستقبل الجزائر المستعمرة. يدور هذا البرنامج حول ثلاثة محاور رئيسية : منح الجنسية الفرنسية لجميع الأوروبيين القادمين للإقامة في الجزائر ولأبنائهم المولودين فيها بشكل آلي، مصادرة أراضي الجزائريين والاستيلاء عليها خاصة في الفترة التي تلت الثورات الشعبية بين

¹⁴³ - "المستوطنون الأوروبيون والثورة الجزائرية"، مرجع سابق، ص 27.

1870 و 1871 بحيث كانت ذريعة للمصادرة، دعم التمثيل السياسي في الميتروبول وفي الجزائر وتقويته بحيث لا تتخذ الدوائر السياسية المختلفة قرارا بشأن الجزائر إلا بعد مراجعة المستوطنين¹⁴⁴.

كان كل هذا على حساب الجزائريين الذين حرموا من التمثيل السياسي، وكانوا ضحية للعديد من القرارات والمراسيم التي تقمعهم وتضيق عليهم، تقابلها قرارات ومراسيم أخرى توسع من صلاحيات المستوطنين وتزيد من امتيازاتهم بل وتضاعفها.

من بينها قانون الأهالي الصادر في 1881، وغيره مما ذكرته وفصلت فيه كتب التاريخ والدراسات المؤلفة قبل الاستقلال خاصة، فلا يكاد بعد ذلك هذا التاريخ الأسود يذكر إلا في بعض البحوث الأكاديمية أو المحاولات الفردية، وتتطلق أحيانا دعوات من بعض المؤرخين الفرنسيين المنصفين إلى دراسة تاريخ الجنوب واستغلاله في فهم الكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية الحالية ومعالجتها، لكنها لم تجد تجاوبا من أصحاب القرار.

كانت المرحلة التالية هي العمل على إنشاء ميزانية خاصة بالجزائر ومجلس مالي في الجزائر، بحيث لا تتدخل الميتروبول في شؤونها الداخلية. وبعد محاولات عديدة نجح المستوطنون في إنشاء حكومة مستقلة. لم تعد الجزائر بعد قانون التاسع عشر من ديسمبر 1900 مجرد امتداد لفرنسا فحسب، بل صارت لها شخصية مدنية واستقلال ذاتي، وانحصر دور الجيش في العمل على توفير الأمن للمستوطنين. وبدأت مشاريع الاستيطان والاستثمار والإعمار، من إنشاء للمؤسسات وبناء للسكك الحديدية وأشغال عمومية، وأحكمت السيطرة على البلاد.

144 - "المستوطنون الأوروبيون والثورة الجزائرية"، مرجع سابق، ص 30-31.

فرض الأوروبيون في الجزائر أنفسهم على السلطة المركزية في باريس بعد كل هذه الإنجازات، مع أنهم كانوا قلة بالنسبة للجزائريين. وصارت هذه الأقلية قادرة على ممارسة الضغوطات إذا أرادت اتخاذ قرارات أو سن قوانين تخدم مصالحها، على حساب الأغلبية من الجزائريين المسلمين المغلوبين على أمرهم.

رافقت هذه التغييرات السياسية والاقتصادية الكبرى إرادة في تكوين فرد جزائري جديد يتمثل في المهاجر الأوروبي، له ثقافة وعادات وتقاليده وثروة ونفوذ، مستقل بشخصيته فلا هو ينتمي إلى المجتمع الميتروبولي ولا هو يشبه الجزائري الأصل.

يتعلق الأمر إذن بمجتمع جديد بنى ما وصفه بيار بورديو بـ"إمبراطورية داخل إمبراطورية"، مجتمع لم يستبق من أصله الميتروبولي إلا "الأصول والبنية". خاصة بعد صعود الجيل الجديد من أبناء المعمرين المولودين في الجزائر، والذين "أنشأهم وكونهم آباء لطالما حركتهم روح من أنشأ الثروة ويسعى لحماية ثروته وامتيازاته سعيا حثيثا". بقي هذا المجتمع يشكل الأقلية بالنسبة للجزائريين، لكنه "الأقلية الغالبة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي"، كما أنه نجح في تحويل امتيازاته إلى حقوق ليبقى المسيطر مسيطرا و الخاضع خاضعا"¹⁴⁵.

بعد تحقيق هذا الاستقرار والاستقلالية على المستويات : الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ظهرت الحاجة إلى إيجاد خلفية أيديولوجية ودينية وثقافية لهذا المجتمع الجديد، تحقق لأفراده الاستقلالية و الاستقرار من الجانب الثقافي أيضا. فلم يكن لهم في هذا الجانب سوى رصيد هزيل يتمثل في كتابات "رحالة أدباء من الميتروبول ... لم ير بعضهم في المكان (الجزائر) سوى كليشيهات شرقية : الحريم - النخلة - الجمل، ووجد

¹⁴⁵ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 112, 116, 117.

البعض الآخر فيه فرصة لتحليل حالته النفسية¹⁴⁶، وما كان هذا ليعبر عن واقع المجتمع الجديد المعيش.

صار هذا المجتمع إذن بحاجة ماسة إلى من يعبر عنه ويصور حياته ويوصل صوته، من يفعل ذلك من الداخل لا من الميتروبول، من يكتب لهم وعنهم وهو يشعر بهم. فكان ظهور **الجزائرية** خاصة، وتلتها مدرسة الجزائر العاصمة، كتيار أدبي يتولى هذه المهمة، قدم كتابها أنفسهم على أنهم لسان حال المجتمع الجديد.

عبر مجموع الأعمال الأدبية التي كتبت في الجزائر وعنها من بداية القرن العشرين إلى خمسينياته، كما لاحظ ذلك جون روبير هنري، عن "حاجة إلى القول أكثر مما هي إلى التلقي"¹⁴⁷، استنتج ذلك من كمية إنتاج هذه الأعمال واستمراريتها على الرغم من ضعف المقروئية واهتمام الناشرين بحيث كان العديد من الكتب ينشر على حساب المؤلف، باستثناء كبار المؤلفين الذين كان لهم جمهورهم الخاص، من أمثال برتران Bertrand و راندو Randau وأوديزيو Audisio وروبليس Roblès وكامي Camus. وسنعود إلى بسط هذه الفكرة في سياق الحديث عن نشأة **الجزائرية**.

وسم الكتاب الجزائريون، على رأسهم برتران، هذا المجتمع الناشئ "بالعرق الجديد" La nouvelle race، أو "الشعب الجديد" Le nouveau peuple، وبقيت التسمية متداولة حتى عند **كامي** ورفقائه. وقد أطلق عليه، من طرف السياسيين أو الإعلاميين أو الباحثين تسميات أخرى. فقد استعمل المؤرخان **مانوني** Mannoni و **نورا** Nora عبارة Les Français d'Algérie فرنسيو الجزائر، واستبدل غيرهم فرنسيين بأوروبيين Les

¹⁴⁶ – Pierre Mannoni, *Les Français d'Algérie : vie, mœurs, mentalités*, L'Harmattan, Paris, 1993, p 192.

¹⁴⁷ – Jean-Robert Henry, *Quelques remarques sur le roman colonial*, in Cahiers de littérature Générale et Comparée, N° 5 automne 1981, p 111.

Européens d'Algérie، ومن التسميات الأكثر تداولاً في الإعلام Les Pieds Noirs الأقدام السوداء، أو Les colons المعمرين أو الكولون كما يقال في الجزائر.

كل اسم من هذه الأسماء يعكس صفة من صفات هذا المجتمع وجانباً من جوانبه، كما أنها تحمل تمييزاً لهذا المجتمع من جهتين قد ينسب إلى إحداها، وهو ما لا يقبله أفراد. فهو من حيث سبب نشأته المتمثل في الاستعمار الفرنسي للجزائر، قد ينسب إلى فرنسا ويكون جزءاً من المجتمع الفرنسي وهو ليس كذلك. وهو من حيث مكان تواجده ومجاورته للجزائريين قد يكون جزءاً من المجتمع الجزائري، لكنه أبعد ما يكون عنه.

أكثر الأسماء دلالة على هذا التمييز هي عبارة "العرق الجديد" الذي لا ينتمي إلى فرنسا ولا إلى الجزائر. ويعرفه بيار بورديو بمقابلته بالفرنساوي¹⁴⁸ "السقاء والفحولة وتمجيد الجسد، أي المتعة، والقوة وجمال الخلقة، تمجيد محله معبد الشاطئ من جهة؛ ومن جهة (أي الفرنسي) أخرى الشح والضعف والثقافة والتزهد، إلخ. ولكنه يعرف أيضاً بمقابلته بالعربي الذي يجسد، في نظره، الحياة الغرائزية وانعدام الثقافة والجهل والروتين، إلخ. فكان تعريفاً بالنفس متناقضاً بما فيه الكفاية"¹⁴⁹.

أما تسمية المجتمع الأوروبي أو أوروبيو الجزائر، فتدل على التنوع في تركيبته فإنه جمع أناساً من جل أنحاء البحر المتوسط، حتى كان عدد الفرنسيين فيه قلة. لكنهم القلة المسيطرة لأنهم شغلوا المناصب السياسية والإدارية، في حين عمل غيرهم في مهن مختلفة: سيطر الإيطاليون مثلاً على ميدان البناء، والإسبان على النقل، والمالطيون على الزراعة.

¹⁴⁸ - فرنساوي أو الفرنكاوي Le Francaoui هي التسمية التي كان يطلقها أوروبيو الجزائر على أهل الميتروبول، وكانت تشير في استخدامها إلى كونهم -الفرنكاوي- أصحاب نعومة ورغد في العيش، لم يخرجوا من أسوار المدينة، لا يمتلكون فحولة وشدة المعمرين.

¹⁴⁹ - *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 113.

كانت وضعية الأقلية الفرنسية بالنسبة للأغلبية الأوروبية مماثلة لوضعية المجتمع الأوروبي عموماً بالنسبة للجزائريين والتي ذكرناها آنفاً، أي هرم سيطرة رأسه الفرنسيون وقاعدته الجزائريون ولهذا وصفه **بورديو** "بنظام طوائف"¹⁵⁰. وتدل على هذه السيطرة الفرنسية تسمية فرنسيي الجزائر.

من وجهة نظر كرونولوجية، كان أول هذه التسميات ظهوراً وتداولاً تسمية فرنسيي الجزائر، وكانت آخرها تسمية الأقدام السوداء التي نقلت عدة روايات في أصلها وتاريخ أول استعمال لها وكذا معناها، "على كل حال، لم يكتشف فرنسيو الجزائر أنهم ينعتون بهذه الصفة إلا بعد عودتهم إلى الميتروبول في 1962"¹⁵¹.

لكن مدار هذه الروايات في الجملة على فكرتين : فكرة العمل وفكرة القوة العسكرية أو التفوق المادي عموماً. فمن قائل بأنها أقدام الجنود الفرنسيين الذين غزوا الجزائر يلبسون أحذيتهم العسكرية السوداء والتي تقابلها أقدام الجزائريين الحافية، إلى قائل بأنها أقدام أصحاب الكروم الذين يدوسون العنب بأقدامهم ليعصروه ويصنعوا منه الخمر، وغير هذين التفسيرين كثير لكن مؤداها لا يتعدى المعنيين المذكورين. ولم يعرف الأقدام السوداء أنهم كذلك إلا بعد أن عادوا بعد استقلال الجزائر إلى فرنسا¹⁵².

وأخيراً تسمية المعمرين ذات الدلالة الواضحة على وظيفة القوم وهي إعمار الأرض بسكانها وبالعامل على استصلاحها واستخراج ثمراتها، وقد جعلها **راندو** عنواناً لإحدى رواياته *المعمرون*، كان هذا المصطلح يطلق خاصة على أصحاب المزارع والمستثمرين في هذا المجال.

¹⁵⁰ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 116.

¹⁵¹ – STORA Benjamin, *Histoire de l'Algérie coloniale*, Hibr éditions, Alger, 2012, p 25.

¹⁵² – *Ibid*, p 25.

لم يزدد هذا المجتمع الناشئ مع مرور الوقت إلا ثباتا وصلابة، وصار يفرض نفسه أكثر فأكثر على الميتروبول من جهة، وعلى الجزائريين من جهة أخرى. على الميتروبول بتحقيق مكاسب كبيرة في اتجاه الاستقلال في اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي، وعلى الجزائريين بأن صار ينظر إليهم من زاوية العلاقة الاقتصادية فحسب، إذ ليس لهم وجود بالنسبة للأوروبي إلا كيد عاملة توكل إليها الأعمال الشاقة أو القذرة فهي لها أهل كما حاول الأدب الجزائري إثباته، ولا يمكن الوثوق بها.

تجسد هذه الفكرة عائلة *قدور* في رواية *ملكية السيدة بوتيجون* La concession de Madame Petitgant، أو *أحمد مساعد رافايل* Rafael في رواية *دم الأعراق* Le sang des races، كلاهما لبرتران، أو الأشباح التي ترتدي "البرانيس" في *مدن الذهب* له أيضا. الجانب الأهم من هذه العلاقة هو علاقة المعمرين بالجزائريين، فالعلاقة بالميتروبول وبالفرنسيين كانت إدارية أو اقتصادية، أما مع الجزائريين فكانت علاقة ميدانية بما أن المجتمعين كانا في اتصال واحتكاك مباشر ويومي. وفي هذا الجانب من العلاقة ظهرت أبلغ الصور والتجسيّدات للتمييز والعنصرية التي تأسس عليها هذا المجتمع وسوف تتأسس عليها أيديولوجيته وثقافته، التي سينقلها إنتاجه الأدبي.

في هذا الاحتكاك اليومي، أو لنقل الصدام، تعرض المجتمع الجزائري الذي كان قبل الاستعمار "يحقق توازنه على أعلى مستوى ممكن في حدود تفرضها رداءة التقنيات" التي كانت تمثل نقطة قوة المستعمر، إلى إعادة نظر جذرية، بل إلى زلزال هدم أسسه. ثم أعيد بناؤه بصورة فوضوية لم تراعى فيها القيم التي كانت تشد أركانه، السبب في ذلك اصطدام حضارتين متناقضتين "وفرض قواعد إدارية وقانونية فرنسية دون مبالاة بالوقائع الاجتماعية"¹⁵³ للجزائريين كونهم عربا مسلمين.

¹⁵³ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 113.

مكنّت القوة المادية إذن المستعمر من زعزعة استقرار المجتمع المحلي ليحل محله وعلى حسابه المجتمع الجديد. وفسر بورديو كيفية حدوث هذا التغيير على مستويات أربعة، هي في الواقع قوانين تحكم ظاهرة التحول الاجتماعي¹⁵⁴:

أولها مستوى أو قانون النسب غير المتفاوتة، بحيث تتحول بعض جوانب النظام الثقافي بشكل أسرع من البعض الآخر، مثلا : عدد السكان من جهة، والاقتصاد من جهة أخرى، فقد كان عدد السكان الجزائريين مستقرا ويزيد أحيانا، إلا ما كان في المرحلة الأولى من الاستعمار من إبادة ومجاعات وأوبئة حصدت عددا هائلا من الأرواح، ومع أن الجزائريين كانوا على كل حال أغلبية السكان، لكن اقتصادهم كان هزيلا جدا بفعل استيلاء المستعمر على أملاكهم المختلفة. أما الفرنسيون فكانوا القلة القليلة، التي تمسك زمام الاقتصاد.

الثاني هو قانون الملائمة المتفاوتة، بحيث يتم التعرف على الاقتراضات الممكنة بين حضارتين، وفيها حد لا يمكن تجاوزه إلا بدفع الثمن بتحول شامل في المجتمع ومن فعل ذلك كان يلفظه مجتمعه لفظا، فالتناقض كان كبيرا بين القيم العربية الإسلامية من جهة والقيم اللاتينية المسيحية من جهة أخرى، وكان الجزائريون متمسكين بترائهم ولم يكن الفرنسيون ليقبلوا جزائريا مسلما بينهم، وبقيت معاملتهم لمن وعدوهم بالإدماج -إذا تخلوا عن مبادئهم- على حالها، عنصرية.

ثم قانون تغير السلم وتغيير إطار المرجعية، فتحرف الخصائص الثقافية المعروفة في دلالتها العميقة بوضعها في سياق ثقافي جديد، فيصير المهر في إطار الاقتصاد المصرفي الجديد ثمنا للبيع، وتصير علاقة الشرف بين رب المال والخماس مجرد علاقة بين رأس المال والعمل. وتفرض هذه الدلالات الجديدة المناقضة لقيم المجتمع عليه، ويجبر إلى الاحتكام إليها.

¹⁵⁴ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 115.

وأخيرا، قانون ترابط العناصر الثقافية بحيث يكفي تحريف التفاصيل في إحداث انقلاب جذري وشامل، حيث قد يعد تغيير في أحد تفاصيل الشريعة الإسلامية التي كان الجزائريون يحتكمون إليها خروجاً عن الشريعة بأكملها لكونه في نظر الفقهاء كفراً مثلاً، أو لاستلزامه تعطيل أحكام أخرى. فإما أن تكون ردة الفعل مقاومة أو سقوطاً مبرراً بالاضطرار قد يصير فيما بعد إرادياً.

بعد هذا الانهيار من جهة، انهيار المجتمع الجزائري، والتشييد من جهة أخرى، تشييد المجتمع الاستعماري الذي زادته الامتيازات التي منحتها إياها الإدارة الاستعمارية متانة وقوة، نشأت هوة صارت تزداد عمقا مع مرور سنين الاستعمار، "وصار بين الجزائري والأوروبي ألف حاجز، وألف حجاب، يدل على ذاك تطور الصورة التي يقدمها عنه الأدب والرسم والتي انطلقت من الرومانسية ومن الغرائبية" لدى الأدباء الرحالة القادمين من الميتروبول "لتصل إلى التجاهل وإلى الكاريكاتير"¹⁵⁵ في كتابات الجزائريين ومن بعدهم.

صار الأوروبي أقل فأقل معرفة بالأهالي بالقدر الذي أسس لنوع من التمييز، يعتمد هذا الأخير على الفروق في المستوى المعيشي وعلى التمييز الاقتصادي المحلي. لم يعد ينظر إلى العربي إلا من زاوية العلاقة الاقتصادية بالأوروبي. وكانت العلاقات على الدوام تكتسي صبغة الأبوية والعنصرية.

بقدر ما كان الأوروبي يرسخ قدميه، كان وضع العربي يزداد سوءاً، ليعطي الأوروبي مبرراً إضافياً لتجنبه واحتقاره. تركز السكان الأوروبيون في المدن، في الشوارع الأوروبية في المدن الأوروبية، كانوا يعيشون فيما بينهم ويجدون في صحافة منقادة كل المبررات لجهلهم وتجاهلهم للمآسي والبؤس والثورات الجزائرية.

¹⁵⁵ – *Sociologie de l'Algérie*, op.cit, p 113.

شبه المتخصص في القانون إيميل لارشى Emile Larcher وضعية المجتمع الأوروبي في الجزائر المستعمرة في مطلع القرن العشرين بوضعية عائلة الفرونك Franks (الذين حكموا فرنسا وسميت باسمهم) في الغول Gaule (فرنسا قديما)، في القرون الوسطى، في زمن الإقطاعية، حيث "يفرض عرق منتصر سلطته على العرق المهزوم. فيصبح هنالك أسياد ورعية.

تحدد وضعية أحد الفريقين وضعية الآخر، أي حقوقا مدنية وحقوقا سياسية مختلفة المواطنين (أصحاب الجنسية الفرنسية) هم النبلاء أو السادة والأهالي هم العامة أو عبيد الأرض¹⁵⁶. وهكذا منح القانونيون الفرنسيون في تلك الفترة، بموجب سلطتهم، الغطاء التشريعي لهذه البوتقة melting-pot الاستعمارية أصل العرق الجديد.

¹⁵⁶ – RENUCCI Florance, *La doctrine coloniale en république. l'exemple de deux jurisconsultes : Marcel Morand et Emile Larcher*, in *Historiques* 978-2-84867-318-9, Presses Universitaires de Franche-Comté, 2011, p 461-478.

2. بداية أدب جديد

نشأ إذن في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، في الجزائر المستعمرة مجتمع جديد، ورافقت هذه النشأة تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت في نفس الوقت من عواملها، كما ستكون سببا في ظهور التيار الأدبي الجديد، الأدب الجديد كما يصفه أصحابه، الذي سنسميه في مرحلة أولى الأدب الاستعماري أو الرواية الاستعمارية، ثم نقسمه وتكون **الجزائرية** أحد قسميه. تتلخص هذه التحولات في عوامل ثلاثة :

الأول هو الطابع الديموغرافي والاجتماعي، يتمثل في تشكل كتلة إثنية جديدة قوامها ما يقارب ستمائة ألف نسمة، يمثل المولدون في الجزائر منها النسبة الأكبر مقابل الوافدين. وانتسبت الفئتان إلى الجزائر، فإذا طرح السؤال : "هل أنتم فرنسيون ؟" على بستانيّ ماهوني، أو عامل إيطالي، أو بناء ببيمونتي، أو سائق عربية بلنسي، أو أحد الضباط القدامى أو الفلاحين القادمين من الميتروبول، أجابك "جزائريون نحن" Algériens nous sommes، كما عبر عن ذلك الكاتب **ميرزات Musette** على لسان بطله **كاغايو Cagayous**.

العامل الثاني هو الطابع الاقتصادي، القائم على الزراعة، زراعة الكروم على وجه الخصوص. ظهرت أهمية هذا العامل مع الأزمة الاقتصادية التي ضربت الجزائر في تلك الفترة، عندما انخفضت عائدات هذه الزراعة بسبب انخفاض الطلب عليها، وحمل المعمرون اليهود المسؤولية في ذلك، وانطلقت ضدهم بقيادة **ماكس ريجيس Max Régis**، حملات عدائية وأعمال عنف، عدا سيبودو جليا في الأدب ويصير ملازما له ولمجتمع أوروبيي الجزائر.

يترتب عن هذه التحركات الشعبية، وعن القوة التي اكتسبها المجتمع الجديد، العامل الثالث وهو منح الميتروبول الاستقلال الإداري والاقتصادي للمستعمرة، حيث صارت تسير أمورها وميزانياتها من الداخل، دون أن يكون لباريس تدخل مباشر في قراراتها.

من الضروري معرفة هذه العوامل لفهم السياق الذي جاء فيه برتران والظروف التي بدأ فيها نشاطه الأدبي وطور فيها مشروعه ونظريته.

منحت الميتروبول الاستقلال الإداري والاقتصادي لكن قبضتها كانت لا تزال محكمة على الأجهزة الإيديولوجية للدولة، على رأسها الأدب والإعلام. فالأدب كان إلى ذلك الحين عبارة عن إنتاجات للرحالة الرومانتيكيين مولعين بالغرائبية، يعبرون عن أحاسيسهم وانطباعاتهم، ولا يلقون بالا لوجود مجتمع جديد صار قويا واعيا بوجوده وقوته.

ونقلت هذه النصوص إيديولوجية تتناقض تماما مع مصالح المعمرين، فكان لا بد من ردة فعل من طرفهم، من شأنها تصحيح نظرة الرأي العام ونظرة السياسيين في الميتروبول إلى الجزائر المستعمرة، وقد صرح **جون بومي** Jean Pomier، أحد رواد الجزائرية، بأن أدبه "طريقة في معرفة البلد".

بدأ أوروبيو الجزائر يعيشون واقعا متناقضا، فهم يشكلون مجتمعا قويا بعدد أفرادهم، مسيطرا سياسيا واقتصاديا على الأرض التي امتلكها، واعيا بكل ذلك، لكنه تابع مؤسساتها إلى الميتروبول التي لا تمثل مؤسساتها خصوصيته. تضع هذه التبعية سيطرة الأوروبيين على الأرض في خطر، ومن هنا تكونت لديهم مخاوف وهواجس وقلق، وأحقاد ومطالب صاروا في أمس الحاجة إلى التعبير عنها.

بما أن منابر التعبير المؤسسية كانت تحت سيطرة الميتروبول، وجد هؤلاء في الأدب المتنفس والطريقة والوسيلة المتاحة لتعبير. فكان ظهور الأدب الاستعماري نتيجة لهذه الظروف والعوامل، وكانت الحاجة إليه توافق حاجة إلى القول والتعبير أكثر مما

كانت حاجة إلى التلقي، يدل على ذلك بقاء هذا الأدب واستمراره إلى غاية 1935 تقريبا مع ضعف مقروئيته، حتى إن بعض المؤلفات كانت تنشر على حساب الكاتب، باستثناء الأسماء الكبيرة التي كان لها جمهور ثابت، كما ذكرنا في الفصل السابق.

هذا ما استنتجه جون روبير هنري من خلال تحليله للرواية الاستعمارية في الجزائر، ملاحظات يؤكد بها روبير راندو، واضع كلمة *الجزائرية* التي ظهرت كعنوان لإحدى رواياته *الجزائريون* Les Algérienistes، باعتباره للرواية "منبرا للاستعمار الاستيطاني يحاول من خلاله الترويج لقيمه"¹⁵⁷.

فبدا الأدب أنسب طريقة ليعبر المجتمع الناشئ عن استقلاليتها وعن خصوصيته، فالغطاء الجمالي يجنب المطالب بشيء ما المواجهة المباشرة مع الخصم، أي مع الدولة خاصة في المراحل الأولى التي تكون سيطرتها على الآلات الإيديولوجية لا زالت قوية، أدب لا يطلب من الميتروبول سوى اللغة الفرنسية ليعبر عن شمال إفريقيا.

لقد مثّلت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر منعرجا حاسما في تاريخ التحولات التي طرأت على الجزائر المستعمرة، بالتحديد عامي 1895 و 1899، فهي السنوات التي "اقتحم فيها الشعب الجزائري (أوروبيو الجزائر) الكتب بغتة، بصورة تشبه تماما الطريقة التي نزل بها إلى الشارع والتي ارتقى بها المنابر الانتخابية" بتعبير غابرييل أوديزيو، هو إذن وعي المجتمع يتجسد أخيرا في الكتابة الأدبية.

دخل أفراد هذا الشعب كشخصيات أدبية من بابين مختلفين وفي نفس الوقت تقريبا، أو لنقل تجسد هذا الوعي في تعبيرين مختلفين تمام الاختلاف مع الاتفاق في أصل الموضوع وفي القضية الأساسية، وذلك لاختلاف زعيمي هذه الحركة الأدبية الجديدة، الذين يمثل كل منهما طريقة أو مدرسة :

¹⁵⁷ – Roman colonial et idéologie coloniale en Algérie, op.cit, p 100.

زعيم المدرسة الأولى هو المثقف وأستاذ البلاغة ذي التكوين الكلاسيكي، القادم من الميتروبول، وصاحب الأسلوب الراقي والطرائق المتميزة والإبداع في الوصف الدقيق وفي التصوير، الذي سيصبح فيما بعد عضوا في الأكاديمية الفرنسية، لوي برتران. بشخصيات مثل رافاييل Rafael أو بيبيت Pépète، سنورد صفاتها وخصائصها في محلها.

الشخصية الرمزية الأخرى هي الصعلوك المحلي، والبطل الشعبي ابن ضاحية من ضواحي الجزائر العاصمة، باب الوادي، والذي يتحدث بلهجة مجتمعه الجديدة والغريبة، وهو شخصية كاغاويو، التي صنعها الصحفي أوغيسست مورييس فيكتور روبيني Auguste Maurice Victor Robinet المدعو ميزات، الزعيم الثاني، وهو ابن لمطبعي ومترجم استقر في شارع البحرية بين باب الوادي وباب عزون، وهي الأحياء التي ترعرع فيها ميزات ثم صارت فضاء لبطله.

كان برتران يكتب بأسلوب راق وبلغة سلسلة جميلة، على طريقة فلوبيير الواقعية، ويقربه البعض من كتابات زولا الطبيعية، وكانت كتبه من روايات وسير ورسائل فلسفية وتاريخية وفي علم الآثار وغيرها تباع بأثمان باهظة، كما أنه كان يلقي محاضرات لا يحضرها إلا القلة من سكان الجزائر العاصمة فالكثرة لم يكونوا في مستوى المحاضرات العلمي والثقافي كما لم يكونوا يملكون ثمن الدخول أو يعتبرون حضورها تبذيرا للمال، ووظفت محاضراته لأغراض سياسية، وانتهزها أطراف كفرصة لجني المال.

لم تكن أعمال برتران إذن في متناول الغالبية من أوروبيي الجزائر مع أنها تتحدث عنهم وتسطر ملحماتهم، فكان لا بد لها من تكييف وإعادة صياغة لتؤدي دورها، في التعبير عن المجتمع الجديد، وهذا ما فعله من جاء بعده على رأسهم روبير راندو وسموا الجزائريين كما سيأتي لاحقا.

صنع برتران للمجتمع الجديد ملحمة، أما مميزات تقدمه للقراء في حياته اليومية، بكلامه اللفظ وسلوكاته البذيئة، وبلغته العجيبة التي هي عبارة عن خليط من الإسبانية والإيطالية والمالطية والفرنسية والعربية". ونشرت قصصه على شكل صحف تباع بثمن بخس، عشرين سنتيما، يروي كل عدد منها مغامرة من مغامرات كاغايو التي دامت عشرين سنة، ولم تتعد شهرتها الحدود الجزائرية. والسبب الرئيس لذلك هو لغة الباتاوات Pataouètes التي كتبت بها والتي لم تكن مفهومة بالنسبة لقارئ الميتروبولي.

هكذا كانت بداية أدب جديد، انطلق على مستويين: المستوى الأدبي الروائي الراقى، والمستوى الشعبي الحكائي اللفظ، وفي نفس الفترة تقريبا فليس بين نشر أولى مغامرات كاغايو ، وأولى روايات برتران دم الأعراق سوى أربعة أعوام 1895 و 1899.

لم تكن بين الاثنين علاقة مباشرة أو تعاون، ولم ير كلاهما القضية أو الموضوع من وجهة نظر واحدة، برتران قدم من فرنسا وتجول في الجزائر فانتبه إلى غياب أدب يعبر عن أهلها فكتب بواقعية، ومميزات كان ابن البلد ودفعته الحاجة والواقع المعيش إلى التعبير عن نفسه وعن بيئته إلى الكتابة بذاتية كبيرة.

يظهر بين الكتابتين التناقض الشديد في بعض العناصر، في اللغة والأسلوب وطريقة نقل الأحداث وفي المواقف منها، التبئير مثلا في كاغايو داخلي والسارد هو نفسه البطل في حين يبقى برتران مسافة بين السارد والشخصيات حتى ينقلها بواقعية مع هيمنة على المشهد، لكن بينهما اتفاقا في عناصر أخرى على رأسها خصائص الشخصيات ومن بينها العنصرية ومعاداة اليهود.

تعتبر العلاقة بين العاملين علاقة تكامل كما يقول ديجو : "وصف برتران الفرنسيين الجدد بواقعية ودقة، وعرف مميزات كيف يوثق اللغة المتداولة"¹⁵⁸. مع بعض المفارقات،

158 - *La littérature algérienne contemporaine*, op.cit, p 25.

يلاحظ أوديزيو : "برتران وكاغايوس، هكذا كان المنبعان اللذان تدفقت منهما في هذا البلاد مياه الأدب العنصري. وكانت مياه المنبعين تختلط في الغالب محدثة بعض الدوامات"¹⁵⁹.

ومن الباحثين من يذهب إلى القول بأن برتران "ركب قطار كاغايو الذي كان يسير، ووصل عمله بشرّيان البيكاريسكية Picaresque "الجزائرية" الجديدة"¹⁶⁰، بحكم أسبقية ميزات وكونه ابن البلد الذي يعرف أهله ويعيش تفاصيل واقعه، فقد أخفى الاسم المستعار مدير مصلحة المساعدات العمومية، الذي كان على اتصال دائم بسكان باب الوادي.

وهذه الملاحظة وجيهة إلى حد كبير لأن الملاحظ للشخصيات البيكاريسكية لبرتران، كما سنرى في الفصول القادمة، سيجد أنها مطابقة في صفاتها وخصائصها لكاغايو وأنه لم يضيف سوى بعض التفاصيل الطفيفة، لكن يبقى برتران "أول من جمع بين مميزات التأليف الكلاسيكي والموضوع الجزائري"¹⁶¹، وأوصل الصوت الذي لم يستطع ميزات إيصاله.

كان كاغايو إذن بمثابة الانفجار التلقائي لمشاعر المجتمع الجديد ورغباته ومخاوفه التي لم تجد من يخرجها، وقد يكون هذا من المؤثرات التي جعلت برتران أيضا يكلف نفسه بمهمة التعبير عن المجتمع الجديد، فقد كان يعمل ويعيش في الجزائر العاصمة في الوقت الذي كانت مغامرات كاغايو تحقق نجاحا كبيرا، وكان العدد منها ينفذ من الأكشاك في الساعات الأولى من الصباح.

¹⁵⁹ – AUDISIO Gabriel: *Cagayous. Ses meilleures histoires*, Gallimard, Paris, 1931, p 13.

¹⁶⁰ – صفة تعني الصعلوكي أو التصعلكي أو التشردي كما تترجمها بعض القواميس، الأدب البيكاريسكي هو إذن، بتعريف بسيط، الأدب الذي يضع في دور البطولة شخصية من هذا النوع.

¹⁶¹ – CALMES Alain, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, L'Harmattan, Paris, 1984, p 87 et 109.

لقد عبرنا إلى حد الآن بمصطلح المجتمع الجديد عند الحديث عن مجموع سكان الجزائر الذين جاؤوا من ضفاف المتوسط الشمالية وشكلوا كتلة بشرية كانت تزداد صلابة مع مرور الوقت، وهذا ما نعتقده، أي أنه مجتمع. لكن رواد الأدب الجديد لهم رأي آخر، فهذه الكتلة السكانية الناشئة بالنسبة إليهم عرق جديد أو جنس جديد، ليست الصلة بين أفرادها اجتماعية فحسب، بل هي صلة دم أولاً.

وسياتي لاحقاً تفصيل هذه الفكرة فهي المحور الرئيسي للمشروع البرتراندي الذي تحول إلى المشروع الجزائري وسبب وجوده، وحتى من جاؤوا بعده، أي مدرسة الجزائر العاصمة، الذين وسعوا فقط الفكرة وغيروا صياغتها. فإذا استعملنا فيما يأتي مصطلح العرق أو الجنس فمن باب الإحالة على نصوص هذا الأدب لا موافقة للفكرة.

بل إن هذا المجتمع لا يمثل حتى وحدة اجتماعية بالمعنى الحقيقي، معنى التكافل والتعاون ووحدة العادات والأخلاق وغيرها، ويتبين من خلال ملاحظة نشأة هذا المجتمع وتطوره أن الروابط بين أفرادها سياسية واقتصادية في أغلبها، صاغ بيار نورا في كتابه فرنسيو الجزائر هذه الخاصية في عبارة "مجتمع بلا وحدة" التي جعلها عنواناً لفصل من فصوله، وقال تحت هذا العنوان :

"إنهم -فرنسيو الجزائر- يشكلون مجموعة من الفردانيات أكثر مما يشكلون جماعة مؤطرة [...] يفتقر هؤلاء الرجال [...] بالإضافة إلى الشعور بالقيم الروحية، إلى مفهوم أقل مادية وأنانية للعلاقات بين الناس ثم لمشكل الأهالي. تنقصهم خميرة الكرم من ثقافة غير أنانية والذوق الفكري الذي يزيد غيابه حدة مع مرور السنين"¹⁶².

كانت إذن كلمات كاغايو أول كلمات نابغة من المجتمع الاستعماري في الجزائر، بتعبير بول سيبلو Paul Siblot، كما أنها أول رد أدبي على الكتابة التصويرية

¹⁶² – NORA Pierre, *Les français d'Algérie*, ed Julliard, France 1961, p 121.

Pittoresque التي أنتجها على مدى نصف قرن أو أكثر أدباء مولعون، رد قابل البيتوريسك pittoresque بالبيكاريسك picaresque، وراج المصطلح الثاني للشبه الصوتي بينه وبين سابقه¹⁶³، وبعد أن كان صفة لأدب روبييني صار فيما بعد صفة للأدب الاستعماري في الجزائر بصفة عامة، وهو أدب يجعل من خبث الشخصية وفضاظتها لقب نبليها، يجعل منها نوعاً من البطل-المضاد Anti-héros.

يحمل اسم كاغايو معنى هذا النمط من الشخصيات، سواء ترجمناه حرفياً إلى اللغة الفرنسية من لغته الأصلية، أو رددناه إلى الجذر اللاتيني الذي اشتق منه، فكلمة Cagayous في اللغة الأوكسيتانية أو الكاتالانية يقابلها في الفرنسية Chassieux¹⁶⁴ والتي يمكن أن نترجمها بالعربية إلى لزج أو لصوق أو حتى صعب، أما الجذر اللاتيني فهو cacare وهو يعني بكل بساطة التخلص من الفضلات البيولوجية أو التغوط، فكان كاغايو علماً على الخبث والقذارة بالمعنيين.

لأنه "أكبر صعلوك في الجزائر العاصمة"، يتزعم كاغايو مجموعة من الصعاليك والمتشردين، ينطلق وإياهم في مغامرات هي عبارة عن بحث متواصل عن مقلب خبيث أو نكتة مأكرة. يضعه كاتبه ميزات في كل مرة في مكان ما أو في موقف يقوم فيه بعمله القذر: كاغايو في الثكنة العسكرية، كاغايو في السباق، زواج كاغايو، كاغايو في دار البلدية، كاغايو الفيلسوف، كاغايو في المعرض، إلخ.

كل عبارة من هذه العبارات التي ضربناها أمثلة هي عنوان لعدد من أعداد مغامرات كاغايو، تدل سطحية هذه العناوين على أن هذه المغامرات ليس إلا نكتاً ومواقف يومية تافهة حولت إلى سلسلة قصصية، غير أن قيمتها تكمن في أننا نقرأ من خلالها فترة زمنية

¹⁶³ – SIBLOT Paul, *Cagayous Antijuif : un discours colonial en proie à la racisation*, in Mots, n°15, octobre 1987, p 61.

¹⁶⁴ – *Ibid*, p 60.

معينة، ليست فترة عادية بل هي حاسمة في تاريخ فرنسا الاستعمارية، وفي تاريخ الجزائر، فالجزائر للجزائر العاصمة يجد إلى اليوم الكثير من الصور والمظاهر التي بدأ انتشارها آنذاك، كما أننا نشاهد خليط الأجناس الذي يشكل قاعدة المجتمع في حياته اليومية وفي طريقة عيشه وتعايشه داخل بوتقة الجزائر العاصمة.

هي قيمة مادية وتوثيقية، شأن **كاغايو** في ذلك شأن كل النصوص المكتوبة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين المندرجة تحت الأدب الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وهذا يؤكد الدافع الرئيسي لهذا الأدب : الحاجة إلى التعبير لا إلى التلقي.

مغامرات **كاغايو** هي في الواقع مغامرات أصحاب الأقدام المطلية بالنيكل -nickelés (ويقصد بها الملمّعة) أو من يعرفون بالأقدام السوداء. كانت الأزمة الاقتصادية أهم انشغالات هؤلاء في الزمن الذي كان يؤلف فيه ميزات قصصه، يتحمل اليهود المسؤولية الكاملة في هذه الأزمة بالنسبة لأوروبيي الجزائر، فصار التخلص منهم القضية الكبرى لكبير صعاليك العاصمة، الذي لم يكن يدعو إلى أعمال العنف والتخريب والقتل ضدهم فحسب، بل وإلى الإبادة الجماعية، وكان شعاره: **En bas les juifs !** (الموت لليهود).

أعطت المعركة ضد اليهود لخطاب **كاغايو** بعدا آخر، يتمثل في كونه خطابا إقصائيا، يقصي الآخر في محاولة لإثبات الذات أو الأنا. يتكفل البطل بالسرد ويظهر ضمير المتكلم المفرد "Je" كثيرا، ويتكرر أكثر في اللحظات الحاسمة من قصة ما أو في نهاية مقطع من مقاطعها للتأكيد على الموقف (أنا لا أريد، أنا سأقضي عليهم، هذا رأيي الخاص، أنا سأخلق شاري، ...)، لكن هذا الضمير يعود على فاعل ليس له وجود إلا بصفته متحدئا باسم فاعل جماعي يمنحه هويته، فما يلبث ضمير المتكلم المفرد أن يتحول إلى ضمير الجمع الذي يظهر بصيغة **Nous autres** (أموالنا، ليس لنا حق في ...، سنصيح دائما، ...)، وإلى هذا المتكلم الجماعي نفسه يتوجه الخطاب، فهو المتحدث

باسمه وهو المتلقي، ويتحول الضمير أحيانا إلى المخاطب Vous (يضعون كلما ما هو موجود في جيوبكم، كلما يجدون في سراويلنا، ...).

يقابل الضميرين المذكورين اللا-شخص المعبر عنه بضمير الغائب Ils، أي اليهود. هذه الثنائية، بين الأنا ونقيضه الآخر، بين الهوية والغيرية أو الآخريّة تستلزم وتؤكد كذلك تناقضا بين هنا وهناك. فينتج عنها وضع للآخر على مسافة بعيدة وينطلق إنتاج متكرر لمعنى "الدخيل"¹⁶⁵.

هذا العداء لليهود، والذي جعل منه ميزات قضية رئيسية في سلسلته، التي تحمل إحدى حلقاتها بكل صراحة عنوان كاغايو المعادي لليهود Cagayous Antijuif، يخفي في حقيقة الأمر عداء آخر. فبالإضافة إلى السبب الاقتصادي للعداء، والذي يستلزم سببا سياسيا كذلك لأن قرار كريميو 1870 بتطبيع (عبر التجنيس) اليهود سوف يعطيهم الحق في الممارسة السياسية والتمثيل البرلماني، وهو ما يحتاجون إليه لأنهم يمتلكون المال الذي سيعطيهم التأثير الكبير في اتخاذ القرار، هذا ما يفسر الحراك الكبير والحملات السياسية والإعلامية العنيفة ضد اليهود، لكنه لا يفسر إلا جزئيا الحراك الشعبي ضدهم.

حقوق يهود الجزائر نشاطا وتقدما لا بأس به من حيث اندماجهم في الاقتصاد الاستعماري وفي الثقافة الفرنسية، في العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر بالتحديد، غير أن لغتهم ولباسهم، وطعامهم، وزواجهم من بعضهم البعض، وطقوسهم بقيت على حالها، ممثلة في أعين الأوروبيين جزءا من الشرق، فاعتبروهم من الأهالي وعاملوهم كذلك في مجاورتهم وتعايشهم معهم في المدن الأوروبي، بل كانوا هم الأهالي بحكم الحضور القليل جدا للعرب في هذه المدن. ويلاحظ أ. سيفان E.Sivan أن :

¹⁶⁵ – Cagayous Antijuif : un discours colonial en proie à la racisation, op.cit, p 64.

"يرتبط ميلاد معاداة السامية المعاصرة كحركة جماهيرية ارتباطا حتميا ببغض اليهودي على أنه عربي"¹⁶⁶.

هنا يكمن الدافع الرئيسي لخطاب كاغايو الذي يصف العربي، الذي يظهر خلصة في مغامراته، باللص ويكافأه بصفعة. وحيثما ظهر العربي، في مواضع قليلة جدا، ظهر بلا اسم ولا هوية فردية بل هو العربي فحسب، وهذه التقنية معروفة وحاضرة في الأدب الكولونيالي حتى جيل ألبير كامو، كما أنه يظهر بصورة سلبية، مثل خروج عربي في طريق شابة أوروبية أصيبت بالخرس من شدة الخوف الذي أثاره لديها.

الأمر الذي يخشاه المجتمع الاستعماري هو أن الحقوق التي تترتب على تجنيس اليهود، وهم جزء من الأهالي، سيعصف بالهرم التصنيفي الذي يتأسس عليه النظام الاجتماعي الاستعماري، فيفتح الباب أمام احتمالية توسيع دائرة التجنيس والإدماج فتشمل بقية الأهالي، ويتزعزع بالتالي النظام القائم الذي يضمن للمستعمر السيطرة ويبقي المهيمن مهيمنا والخاضع خاضعا، بتعبير بيبير بورديو.

خطاب كاغايو صريح ومباشر في عنصريته، عنصرية تتجلى في أبشع صورها من خلال تصرفاته وفي كلامه البذيء، وهو ليس إلا سلوك وكلام المجتمع الجديد، فكان نجاح العمل شعبيا ومحليا لم يجاوز حدود المستعمرة، لأن المستوى الذي وصل إليه الأدب في الميتروبول في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والإشعاع الأدبي والثقافي الذي كان لباريس آنذاك لم يكن يسمح بتقديم خطاب مثل خطاب ميزات يجعل القارئ، كما يقول سيبلو، يتردد بين الرعب وعدم التصديق بوجوده¹⁶⁷.

أما برتران فقد خصصنا جزءا من الفصل الخامس لموقفه من القضية اليهودية، أو بالأحرى من أزمة اليهود في الجزائر، من خلال عرضه لها أحد أعماله.

¹⁶⁶ – Cagayous Antijuif : un discours colonial en proie à la racisation, op.cit, p 68.

¹⁶⁷ – Ibid, p 59.

تبدو في هذه الوضعية الحاجة ملحة إلى تهذيب الخطاب في تعبيراته وأفكاره باستخدام استراتيجيات كنائية تلطيفية، أو تمويهه بالطرائق العلمية، ثم رميه وسط الجدل السياسي واللباسه لباس الدفاع عن الاختلاف الثقافي. ذلك أن أولى أولويات مجتمع أوروبيي الجزائر أو العرق الجديد كانت إثبات الوجود وانتزاع الاعتراف به وبالهوية المستقلة من الميتروبول، من السياسيين ومن الرأي العام على حد سواء.

آن الأوان لتعترف فرنسا بميلاد العرق الجديد وبخصوصيته، فكان لزاما تحرير شهادة ميلاده بلغة الميتروبول آنذاك، النص الأدبي، الروائي خاصة، ذي اللغة الراقية والأفكار المنطقية والحجة البالغة. من هنا كانت الحاجة إلى رجل مثل لوي برتران، وهذه هي المهمة التي سيضطلع بها، وهو لب المشروع الجزائري : الظهور المنظم لهذا المجتمع يؤطره جهد بنائي نظري وتطبيقي.

لا بد إذن من إثبات الذات، وهذا يتم بتعريفها مقابل الآخر، والمجتمع الاستعماري ليس له خصائص ولا هوية بقدر ما هو ردة فعل على المجتمع الفرنسي الميتروبولي من جهة وعلى مجتمع الأهالي من جهة أخرى، فخصائصه هي بكل بساطة نقيض خصائص المجتمعين الآخرين، وقد قدمنا ذلك من كلام بورديو في الفصل السابق.

هذا الآخر، العنصر المحلي خاصة، لا يمكن تصويره في الوضعية الاستعمارية إلا على أنه تهديد أو خطر، فلا يمكن تعريف النفس إلا بممارسة العنف. تجسد هذا على المستوى السياسي في تعامل السلطات الاستعمارية مع الجزائريين، وعلى المستوى الاجتماعي في تعامل المجتمع الأوروبي مع الجزائريين ومع اليهود (أحداث 1898)، وعلى المستوى الأدبي والإعلامي من خلال الخطابات العنصرية المباشرة الصريحة (كاغايو) وسكوت الإعلام عنها، بل وتواطئه معها.

لكن الاستعمال التعسفي للسلطة والقوة المادية والضغط المعنوي يعد بمفاهيم الجمهورية الفرنسية آنذاك اعتداء على القيم الإنسانية، لهذا كان على المفكرين والكتاب المتحدثين باسم مجتمع المعمرين أن يهذبوا هذه الممارسات، ومثلت بامتياز أعمال برتران ذات النمط والأسلوب الكلاسيكيين، وبعدها الأعمال الجزائرية عموماً، وسيلة لذلك.

كانت الشخصية البيكاريسكية تصدم الذوق الأدبي والاجتماعي للميتروبول، حتى في المستعمرة لم تكن الدوائر الرسمية لترغب في نشر أدب كهذا، ولا حتى بعض نصوص برتران، لولا أنه انفجر في وجهها. يلخص بيار نورا أهمية دراسة هذه النمط من الشخصية بقوله : "يشبه كل فرنسيي الجزائر كاغايو، حقيرون ومحتقرون. كان دائماً في كل فرنسيي الجزائر كاغايو بداخلهم". كما أن كاغايو "المعادي لكل شيء هو المثال غير المعلن للناخب الجزائري"¹⁶⁸، فيشتغل الآلة الدعائية حوله.

في أكتوبر 1891، نزل بالجزائر العاصمة شاب في الخامسة والعشرين من العمر، تحصل على منصب مدرس في الثانوية، قدم أستاذ البلاغة لوي برتران من منطقة اللورين شمال شرق فرنسا على الحدود مع ألمانيا، في فترة كان الصراع بين الجارتين على أشده فقد ألحقت ألمانيا الهزيمة بالفرنسيين وألحقت أجزاء كبيرة من الألزاس واللورين بأراضيها، وهو أشد ما يكون نفورا من مثالية البورجوازية الصغيرة التي عاش فيها ومن الذهنية البروفانسيالية، ومن الطقوس الأكاديمية. كان الحزن والكآبة أهم صورتين تمثلان بالنسبة لبرتران الفرنسيين في تلك الفترة.

بمجرد وصوله إلى الجزائر العاصمة، أحدثت أرضها وطقسها في نفس برتران صدمة عميقة، فهو الذي عاش صغره في البرد والتلج وأوحال منطقة الهوفر، تملأ ذهنه ذكريات لورينية يطبعها الحزن، ليجد نفسه الآن في بلد الشمس والسعادة كما يصفه في

¹⁶⁸ – *Les français d'Algérie*, op.cit, p 47.

أعمال عديدة. ثم صدمة أخرى ثقافية باكتشافه لحشود من الناس في الأحياء الشعبية، وجد في فظاظتهم الصارخة وخفقان حياتهم بالحرية والشاعرية علاجا لمزاجه الذي عكرته البرودة الفرنسية، برودة الطقس، برودة الناس بشكل خاص.

شهد برتران في الجزائر الأحداث المهمة والتحولت الكبيرة التي حدثت على جميع المستويات في آخر عشر سنوات من القرن التاسع عشر، كما اغتتم أثناء تواجده في الجزائر فرص العطل المدرسية، للخروج برفقة صعاليك الأحياء الشعبية الذين يعملون في قيادة عربات النقل على ربط الشمال بالجنوب، في ديسمبر 1891 كان برتران في المدينة، وفي وسارة العام التالي، وفي الأغواط في 1894، واكتشف تيبازة في 1895، ووجد نفسه في 1898 في العاصمة وسط المظاهرات وأعمال العنف والشغب ضد اليهود.

مرت على برتران وهو في حلّه وترحاله تسعة أعوام تقريبا، اكتشف خلالها شخصيته الحقيقية واكتشف الجزائر التي جهلها أو تجاهلها الأدب الفرنسي من قبل، شخصيته الحقيقية، كما جاء في عنوان كتاب موريس ريكور Maurice Ricord، ليست فرنسية، بل هو لوي برتران الإفريقي Louis Bertrand l'Africain. كما أدرك برتران ما عليه القيام به بعد هذا الاكتشاف، بصفته كاتباً وليس مجرد مدرس، وهو أداء الرسالة المستعجلة من الجزائر إلى الميتروبول، رسالة الشعب الجديد.

في 1899، نشر برتران أول أعماله الأدبية، في مجلة باريس، رواية دم الأعراق التي اقتحم بها ميدان الأدب بنفس الحماسة التي يدخل المرء بها في دين جديد بعد أن اقتنع به.

بعد هذا العمل، تتالت دون انقطاع أعمال برتران العديدة والمتنوعة، روايات ورسائل وسير ودراسات ومحاضرات وأبحاث ومئات المقالات في الجرائد والمجلات، مشكلة في

مجمّلها سلسلة إفريقية تعد شهادة أدبية هامة يدلي بها ملاحظ فذ بأسلوب فني رفيع المستوى وبالغ الحجة.

ألف برتران أغلب هذه الأعمال بعد عودته إلى فرنسا في 1900، بعد عشر سنوات قضاها في الجزائر وبقي يكتب عن شمال إفريقيا حتى آخر أيامه، وحتى الأعمال التي لم تتناول الجزائر وشمال إفريقيا مباشرة كانت قواعدها وخطوطها العريضة مبنية على الطروحات التي صاغها برتران في المنطقة. هذا الوفاء يبين مدى امتنان المؤلف لهذه الأرض التي أعادت إليه الحياة الروحية بعد أن كاد ييأس كما بعثت الحياة الجسدية في أندري جيد وغيره.

خرج برتران، خلافا لميزات، من أسوار العاصمة ووسع مجال الكتابة والوصف، ليشمل الجزائر ثم يعمم ملاحظاته ونظرياته على شمال إفريقيا ثم على الحوض المتوسط، وهذا بعد رحلة زار فيها جميع ضفافه، مع زيارات متقطعة إلى الجزائر، ولهذا شكلت أعماله مشروعا متكاملا كانت بدايته ومرجعيته الأساسية الجزائر.

برتران أستاذ بلاغة ذو تكوين كلاسيكي متين، وقد درس في المدرسة النورمالية l'Ecole Normale - أرقى مؤسسة في فرنسا آنذاك - مع أنه رسب في امتحان التبريز، هذا التكوين أعطى كتاباته جمالا في ذاتها خاصة في نقل المشاهد ووصف المناظر، فكان لها ثقل في الساحة الأدبية الفرنسية، واستحققت أن تكون التعبير الرسمي عن المجتمع الجديد في الميتروبول، وهي المهمة التي قصرت مغامرات كاغايو عن تأديتها، فكان هذا الأخير انفجارا لمشاعر العرق الجديد ونزواته، وكانت شخصيات برتران تهذبا لها ورفعوا لمستواها الأدبي كفيل بأن يضمن لها مكانا في الثقافة الفرنسية ويجعل الميتروبول تعترف بوجود هذا المجتمع وتميزه.

يقول سيبلو: "رفع لويس برتران سلوكات كاغايو إلى صف المبادئ"¹⁶⁹.

كان مثال برتران وقودته في الأدب فلوبيير، وفتحت شخصية سالامبو أمامه الطريق نحو إفريقيا، وهو أثر سيبدو جليا في أعمال برتران الروائية، كما أنه عبر عن امتثانه لهذه الشخصية الأدبية (فلوبيير) بكتابات ومقالات ألفها عنه.

هكذا إذن كانت، في الجزائر المستعمرة التي استوطنها الأوروبيون، بداية تيار أدبي جديد، إن لم نقل أدبا جديدا "أدب العرق الجديد" كما سماه برتران وغيره، تيار يعبر عن مجتمع جديد غرسه الاستعمار غرسا كوسيلة من وسائل بسط السيطرة على أرض صارت بثرواتها مخزن أوروبا. بعد بيان دوافعه وكيفية ظهوره سنشرع من خلال قراءة في أعمال برتران في تحليل بنيته وأفكاره الأساسية وأهدافه والآثار التي ترتبت عنه في مجالات مختلفة.

¹⁶⁹ – *Cagayous Antijuif : un discours colonial en proie à la racisation*, op.cit, p 60.

3. لويس برتران ما قبل الجزائر: الحاجة إلى البعث الروحي

قبل الشروع في قراءة برتران، ومع أن المناهج التي تضع حياة الكاتب وبيئته مع نصه في علاقة سببية مناهج قد ولّى زمنها، فإن هذا لا ينفى حضور هذا العامل في عملية إنتاج النص. خاصة إذا كان النص إلى الواقعية أقرب كما سيظهر لاحقا، وكان تاريخيا كما هو حال أغلب نصوص برتران، رأينا إذن لزاما علينا أن نعود إلى أهم المحطات في حياة هذا الكاتب ليتسنى لنا فهم الكثير من عناصر إنتاجه الأدبي فهما قويا.

تزيد هذه الضرورة إلحاحا بعد أن تحول برتران من التدريس إلى الكتابة الأدبية جاء فجأة، وأنه تبنى مشروعا فكريا لم يكن يخطر على بال أحد ولا حتى على بال برتران نفسه، وأن مجرد اللقاء مع الجزائر ومع سكانها كان بمثابة المنبه لردة فعل أفنى فيها برتران عمره، فما الذي كان وراءها.

نقطة التحول في مسيرة برتران كانت إذن زيارة الجزائر، زيارة كانت لأجل منصب عمل، لو كان شخص غيره لجعلها مرحلة مهنية عادية وفرصة للحصول على ترقية ثم العودة إلى فرنسا في وضعية أفضل. لكن برتران اندمج كلية في الحياة الجزائرية -في جانبها الأوروبي بالطبع- وتماهى مع الفضاء الجديد والمجتمع الجديد الذي اتصل به إلى درجة أنه جعل ما قدم لأجله إلى الجزائر في المرتبة الثانية وسخر نفسه لمهمة جديدة.

كان في سيرة برتران مرحلتان : ما قبل الجزائر وما بعدها، وكأنهما من التغير العميق الذي حدث فيها، والنقلة النوعية الكبيرة التي جرت من إحداها إلى الأخرى، سیرتان لشخصين مختلفين، ثم إن مرحلة الما-بعد كانت هي الأكثر إنتاجا وثراء من الناحية الأدبية وكانت مرحلة الراحة النفسية، أما مرحلة الما-قبل فكانت حبلى بالتجارب الفاشلة والإحباطات من جهة وبالأحداث الكبرى، مرحلة عناء نفسي بل مأساة نفسية.

لم يكن انفجار موهبة برتران وانطلاقه في مجال الكتابة صدفة بالتأكيد، بل كان تحوله من حالة إلى نقيضها وخروجه عن الخط المرسوم لأي فرنسي ذي تربية وتكوين تقليدي محافظ مثله إلى أن يصير بحياته وبأعماله فاصلا بين فترتين أدبيتين، نتيجة لمكبوتات وذكريات، بدأت تتراكم منذ أن بدأ برتران يعي مايجري حوله، ضغط بعضها على بعض وضغطت على نفسيته.

ذكريات ومشاعر وتجارب يرويها في مذكراته التي عرضها على شكل روايات سيرة ذاتية، يمثلها فيها بطلها الذي سماه **جون بيربال** Jean Perbal، في أجزاء ثلاثة. تبدأ أحداث هذا النص من سبعينات القرن التاسع عشر، سنوات طفولة **لوي الأولى**، يسرد الكاتب أول الذكريات التي علقت بذهن الصبي مع صغر سنه: أول أغنية سمعها، وأل رحلة، وأصوات أجراس الكنيسة، إلخ. مع وضوح في الصورة يعكس الأثر العميق الذي تركته هذه الفترة في نفسه.

ولد برتران في 1866، أي قبيل الغزو الألماني لشمال شرق فرنسا واستيلائها على جزء من منطقة اللورين Lorraine بموجب معاهدة فرانكفورت (ماي 1871)، تقع في هذه المنطقة قرية سبانكور Spincourt التي ولد فيها برتران، والتابعة لدائرة لا موز La Meuse، لم تكن القرية داخل المنطقة الملحقة إلا أن الألمان كانوا على مرمى حجر منها، وكان هذا مصدر قلق وخوف دائم بالنسبة لسكانها.

فتح **لوي** إذن عينيه على جو من الحزن والأسى والكآبة والقلق المتواصل، وكل ما يعقب الحرب من آثار من جهة المنهزمين فيها، كانت أول ذكرياته مثلا :

"بالنسبة لي، أول الأغاني التي سمعتها تغنى هي أغاني الهزيمة. وأول أسفاري كانت للصلاة عند بعض القبور وحضور مراسيم لتذكر الموتى. ولطالما حاولت فيما بعد أن ألهي نفسي وأن أقاوم هذه الانطباعات الأولى في حياتي، ولم أقدر أبدا على إخماد

أسى المعاناة اللورينية تماما في نفسي. كنت أجد خلف طبول الاحتفالات المتتالية دقات أجراسنا الحزينة والمؤلمة معلنة الموت، وأرى خلف المناظر الأكثر سحرا سهول بلدي الرمادية ترتسم محدودة ببعض الهضاب ومزروعة بالصلبان السوداء...¹⁷⁰.

هذا ما علق بذهن اللوريني الصغير : مخلفات الحرب على الأرض وفي نفوس السكان الذين خابت كل آمالهم وقضى الألمان على معنوياتهم، الألمان الذين فاقت ماكنتهم الحربية بانضباطها وبتجهيزاتها القوات الفرنسية بكثير، خاضت هذه الأخيرة الحرب بمدفعية عاجزة ومؤونة غير كافية وقيادة غير مؤهلة، فشده اللورينيون، يملؤهم الهم والأسى، سقوط مدنها وقراهم الواحدة تلو الأخرى على يد القوات الألمانية.

يقول رابح بلعمري مسجلا ملاحظة حول أثر الأحداث على برتران :

"يبدو أن ل. برتران لم يحتفظ من العمليات العسكرية في حد ذاتها في ذاكرته بحدث مؤثر، إما لكونه صغيرا ليتأثر بأحداث لا يعيها، أو لأن دوي أرض المعركة الذي كان يهز أذنيه الصغيرتين كان من القوة والتأثير بحيث أحدثت لديه كبتا للذكريات المؤلمة"¹⁷¹.

وكانت هذه أول نقطة سوداء طبعت في نفس لوي برتران.

إلى جانب هذه المشاعر السلبية التي تركتها الهزيمة في النفوس، يتذكر برتران من هذه الفترة جوا من الروح الوطنية ساد في مقاطعات شمال فرنسا خاصة، أي المعنية بالحرب، روح حركتها رغبة قوية في الانتقام وحركها كذلك الخوف من غزو ألماني جديد، يقول برتران :

¹⁷⁰ – BERTRAND Louis, *Une destinée I, Jean Perbal, A.Fayard, Paris, 1925, p 193.*

¹⁷¹ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale, op.cit, p 4.*

"في هذا الشهر أكتوبر 1875، عند وصولي إلى بريي، كانت حالة التوتر لا تزال في ذروتها. وكنوع من الكذب على النفس، كنا نتظاهر بالأمل، أمل جريء. كانت كل سهراتنا الموسيقية تنتهي بنفس المقطع الشهير، والواجب نوعا ما:

لن تحصلوا على الألنراس واللورين

و رغما عنكم سنبقى فرنسيين ! ..."¹⁷²

لكن الإرادة السياسية لم توافق الإرادة الشعبية اللورينية، حيث لم يتجاوز الحماس الوطني مستوى الاستعراض والاحتجاج الكلامي، بل استغل السياسيون الانشغال بالانتقام وبالغزو الألماني في صرف الرأي العام عن المشاكل الداخلية والاضطرابات الاجتماعية، فالمعطيات في الواقع كانت تنبئ عن دونية اقتصادية وعسكرية جد واضحة لفرنسا أمام ألمانيا العملاقة، لا مجال إذن لإعلان حرب خاسرة مسبقا.

"بل بعيدا عن كل هذه الاعتبارات، كيف يمكن تصديق إرادة البرجوازيين الحرب على نفس ألمانيا التي أنقذتهم من الهلاك في أحداث باريس 1871. ثم ألم يمكن أن نُنقِذ Bismarck أصحاب قصر فرساي من رفع أعداد قوات الأمن الباريسية من 40 ألفا إلى 100 ثم إلى 150 ألف رجل، عندما أطلق سراح عشرات الآلاف من السجناء بناء على طلب من **جيه ك غنغز** Jules Fevre تحت غطاء "المصلحة المشتركة". إذن أنقذت البرجوازية الألمانية يمثلها بسمارك نظيرتها الفرنسية. كان موضوع الإمبريالية والعسكرية الألمانية في مقدمة ردود الفعل بأوروبا. لهذا السبب، كما سنبين لاحقا، يكنّ برتران إعجابا كبيرا للقوة الألمانية، مع أنه يعتبر نفسه عدوا لدودا لألمانيا"¹⁷³.

¹⁷² – *Une destinée I, Jean Perbal, op.cit, p 192.*

¹⁷³ – *Louis Bertrand, miroir de l'idéologie coloniale, op.cit, p 10.*

ثم ترجمت أحداث باريس في 1871، هذه الاضطرابات السياسية والاجتماعية، وترجمها كذلك إنشاء المنظمة العالمية للعمال A.I.T، وتضامن العمال من جميع بلدان أوروبا وغيرها، بعضهم مع بعض. كانت علامات هذا التضامن البروليتاري مصدر فزع وخوف بالنسبة للطبقة البورجوازية، هذا ما يفسر تحالف حكام فرنسا مع بسمارك في قمع حراك باريس.

جاءت وضعية الصراع التي تلت الحرب، والتي طبعتها المخططات والتحركات السرية والمعلنة، وتناقضت فيها مشاعر الناس في الأرض الواحدة، في أكثر مراحل عمر برتران حساسية :

"عندما يكون المرء مغموسا، منذ طفولته، في وسط مشحون بمشاعر كهذه، فليس بمقدوره أن يكون مثل من ولد في مكان آخر، من حيث الأمان ومن حيث السعادة"¹⁷⁴.

خيبة أمل ونقطة سوداء أخرى في نفس برتران ويبدأ التراكم والكبت.

زاد انتماء برتران والتربية التي تلقاها من حدة أثر الأحداث والإحباطات، ومن عمق النلم الذي خلفته في نفسيته. فقد ولد في قرية أغلب سكانها فلاحون، بما فيهم عائلته اللورينية الأصلية. لكن وظيفة كاتب المحكمة التي اشتراها أبوه، وأصول أمه البورجوازية، وضعت آل برتران في طبقة أعيان البلد، فعدوا بورجوازيين مع أنهم لم يكونوا ماديا كذلك. فحصلوا على امتيازات كان لا بد لهم من الحفاظ عليها.

حرص السيد والسيدة برتران على تربية ابنهما بطريقة محكمة موافقة للتقاليد ولذوق المجتمع البورجوازي وروحه، وهو المجتمع الثابت على مبادئه وأخلاقه التي تحرسها الكنيسة، التي احتلت المكانة المهمة في نفوس أفرادهم، والوفي للملك ولرايته. فأحس الولد في سن مبكر بمشاعر الارتباط الوثيق بالروح التقليدية المحافظة للوسط الذي تربى فيه،

¹⁷⁴ – Une destinée I, Jean Perbal, op.cit, p 192.

وزاد الارتباط قوة في منزل جدته التي أحاطته بمساعدة خالتيه ببالغ العناية، عناية أنثوية في منزل أرستقراطي.

"كان كل شيء، يقول بلعمري، يكلم برتران بلغة التقاليد : الأثاث، والأخلاق والسلوك الملاحظ، والمحادثات، والذكريات، والزيارات الراقية وحتى العبارات المهذبة"¹⁷⁵.

كان نمط التربية التي تلقاها رقيقا ومحافظا بالقدر الذي جعل التأقلم مع البيئة التي واجهها خارج المنزل فيما بعد شاقا، بل مستحيلا في الغالب، بداية من عناصر الحياة الريفية التي أثار في نفسه المرهفة الرعب سماع أصوات الحيوانات فيها والنظر إلى أكوام فضلاتها وإلى الأوحال والذرق :

"لم أكن أحب الفوبور"¹⁷⁶ لأنه كان يلخص بالنسبة لي كل ما في الحياة الريفية من البشاعة و الهمجية"¹⁷⁷.

وأخوف ما كان يخافه التعايش الشاق والحتمي مع الحيوانات، إذ كانت مناقير الإوز وقرون الثيران تطارده حتى في منامه، جعل هذا العالم المزعج الغريب برتران يحس بضعفه وتفاهته، كان ينتابه دائما الشعور بأنه عالم يسحقه :

"كل هذه الحيوانات المزعجة، الصائحة، الخائضة في الوحل والمندفعة كانت تغزونا، تطغى علينا"¹⁷⁸.

¹⁷⁵ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 14.

¹⁷⁶ – الفوبور Faubourg، كلمة مركبة تعني حرفيا القرية المزيفة أو المدينة المزيفة -غير الحقيقية، وتطلق على ضواحي مدينة أو قرية كبيرة أو على الأحياء الكبيرة المحيطة بها، كما نجده كثيرا عند برتران وغيره عند كلامهم عن ضواحي مدينة الجزائر العاصمة، أما في هذا الموضع -في قرية برتران- فكانوا يطلقون الفوبور على الحي الخاص بالفلاحين يقطنونه ويقيمون فيه أسواقهم.

¹⁷⁷ – BERTRAND Louis, *Ma lorraine*, A.Delpeuch, Paris, 1926, p 88.

¹⁷⁸ – *Ibid.*

ولم يكن حال أهل الفوبور أفضل فقد جسد الجزائريون مثلاً، بالنسبة إليه، بلباسهم الملطخ بالدماء، يحمل كل منهم مجموعة من السكاكين، البربرية في أبشع صورها، منهمكين في ذبح الخنازير وسلخها وتقطيعها في ساحة القرية خلال الاحتفالات التي يقيمها السكان. مشهد كان مسلياً بالنسبة لأطفال القرية، إلا برتران الذي رأى فيه وحشية محضّة، وجعله هذا العالم القروي اللوريني القاسي يعيش في عزلة، وكون شعوره بالدونية الجسدية لديه عقدة عانى منها طوال حياته.

كان لا بد لهذا الشعور بالإقصاء من تعويض، وكان ملاذ برتران الوحيد بيت العائلة، للهروب من همجية القرية ونمط عيش الفلاحين، لكن وضعية آل برتران كانت تزداد صعوبة بفعل الحرب وآثارها، وصارت مكانتها غير واضحة لأن إمكاناتهم المادية لم تعد تسعفهم في حياة البورجوازية التي كانوا يعيشونها، والتي يفترض أن تمنحهم احترام المجتمع واعتباره، لكن احترام المجتمع ينبني على رؤيته لعلامات الثراء الظاهرة.

زادت هذه الوضعية المادية الصعبة إحساس برتران بالاضطهاد حدة، فلا هو امتلاك من قوة الجسد والقلب ما يضمن له مكاناً بين الفلاحين والفحول في قريته، ولا من المال والثروة ما يجعل منه بورجوازيًا، كانت أمامه فرصة وحيدة للنجاة وهي إتمام دراسته، والدراسة مكلفة أيضاً.

انتقل برتران لإتمام المرحلة الثانوية إلى بار-لو-ديك Bar-le-Duc، غير البعيدة من سبانكور، كان وراء اختيار هذه المؤسسة في الأساس أسباب مادية ولم يكن ذلك يخفى على برتران ليزيده حسرة وغماً، والتحق في النظام الداخلي تلاحقه عقده النفسية ومشاعره الحزينة، وأحس بأنه انتزع انتزاعاً من حياة ناعمة حالمة وأمنة في بيته وبيت جدته كانت تنسيه هموم العالم الخارجي، ليجد نفسه وجهاً لوجه مع همجية هذا العالم :

"كنت أرى نفسي، يكتب برتران، تائها، كنت وكأنني طفل ألقى به في الماء بدأ يغرق- بكل بساطة. كان عالمي المألوف ينهار. أعز علاقاتي قطعت. كل عاداتي تغيرت بين عشية وضحاها. يا له من اختلاف بين هذا المنزل الذي يشبه الثكنة، هذا الانضباط بلا روح وبين العش العائلي الناعم الذي خرجت منه، عناية ذوي الدافئة ! هل سأرى مرة أخرى خالتي الطيبتين وجدتي العجوز اللاتي كانت دارهن تبدو لي مكانا ساحرا، جنة صارت الآن مستحيلة"¹⁷⁹.

هنا كذلك، أبدى الطفل المدلل مشقة في التأقلم مع محيطه، بل كان ذلك مستحيلا بالنسبة إليه، ذلك أن الحياة في مجموعة تتطلب انفتاحا وقوة وجراءة لم يكن لدى برتران كما رأينا أدنى قدر منها، خاصة في هذه المرحلة العمرية، أي المراهقة التي هي بالطبيعة مرحلة المخاطرة وخوض التجارب والطيش أحيانا، كما أنه سن البلوغ واستيقاظ الغرائز الجنسية، عبر زملاء برتران عن كل ذلك في ألعابهم ومغامراتهم داخل المؤسسة وخارجها، وكبته هو في نفسه فازداد وضعه سوءا.

لم يكن إذن هروبه من سبانكور المرعبة إلا ليجد نفسه في دائرة مغلقة بصحبة عقده النفسية ونزواته المكبوتة وإرادته الفاترة، فصنع، كنوع من المخرج للمأساة التي يعيشها، لنفسه عالما من الرغبات والأحلام ينهل منه مواضيع يستأنس بها ويبرر فزعه.

"لم يكن بمقدوره تقليد الآخرين، إما لنقص في قدراته أو خوف من الحياة أو من أي شعور بالذنب مهما كان، فحكم على حياة الآخرين باللاقيمة واللاأخلاقية. لقد وجد أكثر من سبب ليكره حياة زملائه، حياة لا تستحق قيمتها الأخلاقية. ثم جعل من عزلته فضيلة

¹⁷⁹ – BERTRAND Louis, Une destinée II, la nouvelle éducation sentimentale, Plon, Paris, 1928, p 166.

بتحويل المشكلة إلى المستوى الأخلاقي والفكري. لأن تربية عائلته ورجال كنيسته، كانت تضعه في مأمن من كل أنواع العدوى المفسدة، كما يحب دائما أن يذكر ذلك¹⁸⁰.

ثم جعل يسقط أفكاره السلبية عن الحياة المحيطة به على زملائه ومدرسيه، محولا إياهم إلى صور تجسد الظلم والجور وسوء الأخلاق، ومن بين هذه الصور أو الأشباح أحد مدرسيه الذي شبهه بشيطان يسعى باستمرار إلى إلحاق الضرر به تارة، وبالغول أو الثعبان تارة أخرى، أو أحد المكلفين بالطلبة في الإقامة الذي اعتبره وحشا يكنّ له بالفطرة كرها مثل كره الوحوش لما تحسه مخالفا لجنسها فتريد القضاء عليه.

لم تكن تجربة بار-لو-ديك سعيدة، بل زادت الطين بلة وزادت وضع برتران تأزما، وكانت المرحلة التالية باريس التي سوف ينتقل إليها لإتمام الطور الثانوي في ثانوية هنري الرابع ثم الدراسة في المدرسة النورمالية العليا، المفارقة في حياة برتران ما قبل الجزائر، أنه كان في كل مرحلة من مراحلها ينتقل إلى أفق أوسع، من سبانكور القرية إلى مدينة بريي ثم بار-لو-ديك مدينة أكبر فباريس العاصمة، وكلما اتسع الأفق ازدادت نفسيته ضيقا.

الانتقال إلى باريس كان من شأنه أن يمنح برتران، كما كان يأمل، الفرصة للتخلص من الإهانة التي عانى منها، وهو القادم من بيئة عزله لأنه لم يكن ثريا ولا قويا، وهما شرطان لا بد للفرد من أحدهما أو كليهما ليضمن له مكانة في المجتمع اللوريني، وإلا انتهى به الأمر كصانع للجنة أو مساعد بناء وهذا لا يناسب البورجوازي الصغير. في باريس، كان طموح برتران أن يحوز مجد الرجل المفكر ويتميز عن ذويه وزملائه ويفرض عليهم احترامه.

¹⁸⁰ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 42.

كان الانطباع إيجابيا في الأيام الأولى من الإقامة بباريس، وبدأ الحلم في المتناول، فألقى برتران عنه حمل الحياء الكاذب وتأنيب الضمير والاعتقادات الساذجة الذي أنقض ظهره، بمجرد وصوله تناول برتران وجبة الغداء في أرقى مطعم بالحي اللاتيني، وضحي ببراءته الجنسية التي حافظ عليها من قبل على الرغم من سخرية زملائه في بار-لو-ديك منه، وما كان ليفعل ذلك إلا في باريس. بدا لبرتران أن آفاقا جديدة تفتح أمامه.

لم يدم الانطباع الإيجابي طويلا، خاصة لما اصطدم الشاب بباريس الشعبية، باريس السافرة التي تخرق جميع قوانين الدين والعرف والآداب البورجوازية، كانت الهوة بين الالتزام البورجوازي الذي نشأ عليه برتران والبروليتاريين ذوي اللكنة السوقية والكلام البذيء¹⁸¹ هوة سحيقة.

"عصابات البروليتاريا السكارى أولئك، كانوا يعودون من هناك ناهقين"¹⁸².

أصيب الشاب بفوبيا الحشود التي جعلته يعود بسرعة إلى حزنه ولا يرى فيما حوله سوى محلا للاشمئزاز وللغوض، وزادت حالته صعوبة إلى درجة الهوس والهذيان، والشعور بمشقة في التعايش، وبالحاجة إلى الراحة بعد الضغط الذي عاناه في بار-لو-ديك، بالإضافة إلى طبعه الشحيح والمتوجس، فكانت ردة فعله مرة أخرى أن انطوى على نفسه وانعزل.

كانت هذه الفوبيا حسب رايح بلعمري اجتماعية، فقد وجدت الحشود الباريسية حرية كبيرة مع وصول الاشتراكيين إلى الحكم، فصارت تصيح بكراهية البورجوازيين وتدمير الدولة البورجوازية التي ينتمي برتران إليها ويتبنى مبادئها، فمثلت الاشتراكية بالنسبة إليه عودة إلى البربرية. بربرية لم تجسدها الحشود والاشتراكية التي تدفع بهم إلى الأمام فحسب، بل يجسدها كل ما لم يجد فيه برتران نفسه أو تصوره للمجتمع والحياة.

¹⁸¹ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 63.

¹⁸² – *Ibis*.

بما في ذلك الأجانب، مثل ما حدث له عند رؤية رجل روسي في أحد المطاعم :

"أحد أولئك الروس لون شعره أحمر، يشبه في وجهه أحدهم خرج للتو من العناية المركزة، عيناه تشتعلان كأنهما قنيتان من البترول، كان بيربال يشعر بالاشمئزاز منه إلى درجة أنه همّ بالخروج من القاعة عدة مرات، لئلا يرى الوجه الملعون لذلك المجنون ولا يسمع ترهاته. كان ذلك الممسوس، ابن أحد تجار موسكو، لا يتوقف عن تقيؤ أقذع الشتائم ضد الحكومة القيصريّة. ولم يكن في فيه سوى عبارات "الثورة" و"المقصلة" و"إطلاق النار"¹⁸³.

قابل برتران هذا الوحش القادم من الشمال بنفسه من وجهة نظر عرقية، ذاكرة في سياق وصفه له عبارات لغوستاف فلوبير :

"لقد طبعهم يبدو لفيتالوس بشعا ... لقد كان قلبه اللاتيني ينقبض اشمئزازا من ثورانهم المخل بالعرف ومن عثراتهم الحيوانية"¹⁸⁴.

الحضارة اللاتينية في مواجهة بربرية الآخر، مفهوم سيصوغ برتران حوله فيما بعد نظرياته حول تاريخ الجزائر وشرعية الاستعمار.

لم يكن الزملاء في ثانوية هنري الرابع Henri IV، أقل عنفا وحقارة من باقي سكان باريس، ولا من الزملاء السابقين في بار-لو-ديك التي فر الطالب منها، وزاده حقدا عليهم أنه كان يرى على وجوههم علامات التفاؤل والأمان، فمستقبلهم كموظفين في الجمهورية وكرجال سياسة فيها كان يبدو مضمونا، إما لأن تخصصاتهم علمية أو أنهم محميون من فوق، ولم يكن برتران من هؤلاء ولا من أولئك.

¹⁸³ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 65.

¹⁸⁴ – *Ibid*, p 66.

شيد برتران على عدد كبير من الأحكام المسبقة، السياسية والاجتماعية، لنفسه برجا عاجيا انعزل فيه، إذ لم يكن يشارك في اللحظات الفعلية من الحياة الاجتماعية، معتبرا أي شكل من أشكال الخفة والطيش في السلوك قلة أدب، وشاعرا بالذنب في أبسط لحظات شهوته، يرى في النكت التي تتناول الوافدين الجدد إلى المدرسة النورمالية إهانة كبرى، وفي تصرفات الطلبة العفوية نمطا من العيش مثيرا للاشمئزاز.

لم تعرّ باريس وحدة الوافد اللوريني وعزلته فحسب، بل أكدت كذلك "بؤسه المادي"، إذ لم يعد يقدر على توفير أبسط حاجاته :

"كل شيء باهظ الثمن في باريس المرعبة، لا يمكن أن يخطو المرء خطوة دون أن يجد نفسه مرغما على إدخال يده في جيبه. لما صار مهانا ومحبطا بفعل حاجته إلى المال، آل به الأمر إلى أن قرر ألا يخرج مطلقا"¹⁸⁵.

بعد إتمام المرحلة الثانوية، نجح برتران -كما قدمنا- في امتحان القبول بالمدرسة النورمالية العليا، والتي تكون المعلمين، غير أن ذلك لم يبهز أحدا ممن حوله خلافا لتوقعاته، وأمله بأن يجد شيئا من ثقته المفقودة بنفسه، لم يعن ذلك شيئا بالنسبة لزملائه، كما لم يفوت أحد أبناء عمومته الأثرياء أول فرصة ليصرح له بأنه يجد راتب المعلم حقيرا.

فانهار حماس الطالب النورمالي إلى المهنة التي طالما مُجّدت، بما أنها لن تدر عليه من المال ما يمنحه الراحة والرضا المطلوبين، واقتنع بأنه سلك بحياته الطريق الخطأ، وأنه لم يخلق لهذه المهنة التي تتاقض طموحاته، حاول بعدها الالتحاق بمدرسة أثينا التي كانت أعلى مستوى من النورمالية، وكانت محاولة فاشلة أضافها إلى رصيده.

¹⁸⁵ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 70.

"نعم، لقد كان الوضع بلا مخرج ! تقلصت الدائرة التي كانت تدور فيها حياته إلى درجة أنه لم يعد يدرك شيئاً مما وراءها"¹⁸⁶.

وفشل أيضاً في امتحان شهادة التبريز في المدرسة النورمالية في 1889، ليلتحق بمنصب مدرس بمدينة آكس-أون-بروفونس Aix-en-Provence، ويرحل سنتين بعد ذلك إلى الجزائر.

هكذا كانت حياة لوي برتران قبل الجزائر، لم يخرج من تجربة فاشلة وخيبة أمل إلا ليصطدم بأخرى أقوى منها، ولا من أفق ضيق إلا لأضيق منه، فكانت روحه بعد أن قُتلت طموحاته وآماله في أمس الحاجة إلى ما يعيد بعث الحياة فيها.

¹⁸⁶ – Louis Bertrand, *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 72.

الفصل الرابع: مرحلة تشرب

العقلية الكولونيالية

(1905-1890)

1. من التعبير التلقائي إلى المشروع الكولونيالي

سيشكل تاريخ 1890 لحظة فارقة في تحول حياة لوي برتران الخاصة، ومنعرجا حاسما بالنسبة للأدب الاستعماري كذلك، أو الأدب الفرنسي المكتوب عن الجزائر. ذلك أنها السنة التي نزل فيها في الجزائر أستاذ البلاغة العادي الذي سيصبح بعد سنوات الأب الروحي لتيار أدبي جديد الجزائرية، ونبي اللاتينية أو الرومنة، وتصبح أعماله أحد منبعين انبثق منهما الأدب العنصري في الجزائر المستعمرة، على قول غابريال أوديزيو الذي أوردناه في الفصل السابق.

عند نزوله "أول مرة أمام الجامع الأبيض ومثلت القصة الأبيض الثلجي"¹⁸⁷، لم يكن لوي برتران يدرك بالفعل ما سيحدث له وكيف ستتقلب حياته رأسا على عقب. لقد كان في انتظاره اكتشاف لم يكن في الحساب، ولا هو جاء باحثا عنه، فهو لم يأت إلى الجزائر سوى لأجل الوظيفة وهروبا من الضغط الذي عاشه في فرنسا، كما تبين من خلال تطرقنا لبعض المحطات المهمة والمؤلمة من حياته.

جعل الجو السياسي والثقافي والاجتماعي في فرنسا برتران يشعر بالاختناق. إنه جو الجمهورية اللادينية التي بدأت تطغى عليها الاشتراكية فاتحة المجال أمام الغوغاء من الناس، والطبقات السفلى الهمجية من الشعب، وكانت مبادئ الأستاذ الشاب الذي نشأ عليها وآمن بها ومجتمعه الذي تربى فيه على النقيض تماما من الأفكار التي بدأت تغزو الجمهورية وتنتشر فيها مثل النار في الهشيم.

هما أزماتان إذن، أزمة خارجية وأخرى داخلية، أزمة الوسط الذي عاش فيه، وأزمة النفس المنهكة والمعنويات التي تحطمت على جدار التجارب الفاشلة.

¹⁸⁷ – BERTRAND Louis, *Les villes d'or*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1921, p11.

لم يكن هذا الاكتشاف العظيم سوى الحياة اليومية لشعب فتي شكل مجتمعا جديدا، حياة بسيطة تبلغ منتهاها عند تحصيل لقمة العيش وإشباع الرغبات الجسدية، تتجم عنها حركة منتجة تبني مستعمرة على أرض الجزائر وتستصلح البور منها. هذه البساطة واللذة هي ما افتقدته الروح الميترولوجية التي طغى عليها الاهتمام بالمجرد والفلسفة التشاؤمية والأدب المتصنع العقيم.

أشرقت شمس الجزائر اللافتة إذن على الوافد الجديد لتكشف له عن "شعب فتي، مستعجل ليعيش ويتمتع ويزدهر، طبائع حادة وصلبة، لا تحتاج إلى اصطناع مشاعر زائفة ولا ذرائع متحذقة لكي تتحرك وتبدع، أناس ثقافتهم متواضعة لكنهم يمتلكون كل القدرات ليصبحوا مثقفين"¹⁸⁸.

مثلت نهاية القرن التاسع عشر الزمن الجميل للروح النقدية والرينانية (نسبة إلى رينان، ينظر الفصل الثاني) والتشاؤمية وثقافة الأنا، أفكار جاءت كردة فعل على فظاظة المدرسة الطبيعية التي استبدلت بالأناقة الفكرية والشاعرية وبجمالية متحذقة¹⁸⁹. هكذا يصف برتران الفترة التي عاشها وسائر أفكارها وتبنى الكثير منها، وكان من السهل جدا عليه أن يركب موجة الأدباء اللامعين آنذاك، فمستواه الفكري وأسلوبه الفني الراقي، الذي أظهره في أعماله فيما بعد، يؤهلانه لذلك، لكنه اختار طريقا آخر، ونجح فعلا في الوصول إلى الأكاديمية الفرنسية.

سلك برتران إذن طريقا غير الذي سلكه معاصروه في فرنسا، حتى من زار منهم الجزائر، هذه الأخيرة التي صرفت نظره عن ما كان يبدو من خلال تكوينه وجهة حتمية له. سبب ذلك على ما يبدو أنه وجد فيها متفسا لروحه وشفاء لجراحه النفسية العميقة، ثم حلا للفتور والتشاؤم والزيغ الفكري الذي كانت تعاني منه فرنسا في نظره.

¹⁸⁸– BERTRAND Louis, *Devant l'Islam*, Librairie Plon, Paris, 1926, p 18.

¹⁸⁹– *Ibid*, p16.

ولم يكن ليعرف سبب هذه المعاناة ولا حاجته إلى التحرر من الأغلال إلا لما عبر المتوسط، يقول واصفاً حاله : "كل ذلك الأدب الفرنسي الذي كان يملأ الطاولة التي كنت أعمل عليها، كنت أجره معي من ضفة إلى الضفة الأخرى من المتوسط، كنت أشعر أنه يسحقني بثقله"¹⁹⁰.

كان لا بد إذن من التحرر -مؤقتاً- من حمل التراث الفرنسي الماضي والحاضر الثقيل، والذي لم يكن فيه على سعته وثقل وزنه شفاء للروح العليلة. لم يتردد برتران في إلقاء الحمل وانطلق في طرق الجزائر، المعبّدة منها والوعرة، مكتشفاً وملاحظاً للمناظر والأشخاص برفقة البسطاء من أبناء الشعب الفتى (من الأوروبيين بطبيعة الحال) المفعمين بالصحة والحيوية، من أوروبيي الجزائر.

من هنا كانت نقطة الانطلاق في رحلة طويلة توجت في النهاية بمشروع فكري وأدبي سنلقي الضوء على جوانبه وآثاره من خلال تحليل أعمال المؤلف العديدة والمتنوعة من حيث الجنس الأدبي والمواضيع المتناولة.

هي نفس النقطة التي انطلق منها ميزات كما قدمنا، وقد وصفناه بالانفجار التلقائي لمشاعر المجتمع الجديد ورغباته ومخاوفه التي لم يتمكن من التعبير عنها حتى ذلك الحين. كانت هذه المشاعر والرغبات والمخاوف موضوع أدب برتران في مراحله الأولى، غير أن طريقة التعبير عنها وعرضها اختلفت، فثقافة المؤلف ورسائله الفنية والفكرية حالت دون الانفجار التلقائي وجعلت طريقة التعبير أكثر سلاسة وأجمل شكلاً، بل وحولت هذا الموضوع البسيط والمباشر إلى مشروع كبير.

لن نتوقف الحكاية مع برتران عند كونها تسلية أدبية من خلال المغامرات، التي تعكس أحداث الحياة اليومية في المستعمرة بحيثياتها، وتعبر عن ما يجول بخاطر الفرد

¹⁹⁰ - *Devant l'Islam*, op.cit, p 17.

البسيط من ساكنايها، بل سيرسمها على خلفية فكرية متينة تهيئها لتصبح أداة نظرية فعالة في خدمة المشروع الكولونيالي بطبيعة الحال.

أول تجسيد لهذا الموضوع كان شخصية **رافاييل** في أول رواية لبرتران، *دم الأعراق* (1899)، وهو عنوان مثير للانتباه يحمل دلالة عميقة على نية الكاتب وهدفه من وراء سرد حكاية مجموعة من سائقي العربات الذين جابوا ربوع الجزائر وشقوا الطريق الشاق نحو الجنوب. بل إن هنالك تناقرا بين العنوان ونوع الكتاب، عنوان كهذا حري بأن يوضع على كتاب فلسفي أو فكري أو علمي ينظر للانتماء أو الأجناس البشرية وأصولها.

أما محتوى الرواية فهو يوميات شاب من أوروبيي الجزائر من أصل إسباني ولد في الجزائر العاصمة، تروي مغامراته في مستعمرة لا تزال في مرحلة البناء، فأول عبارة تبدأ بها الرواية هي "كنا نشيد الجزائر (العاصمة) الحديثة" *On bâtissait l'Alger moderne*¹⁹¹. يبدأ **برتران** القصة من الجيل الأول وهما **جدا رافاييل** اللذان عملا في المستعمرة ثم قررا العودة إلى إسبانيا بعد أن جمعا ثروة محترمة، ثم الأب الذي قرر الاستقرار في الجزائر، فالابن الذي أنكر إسبانيا والعودة للعيش فيها وزاد تصميمهما على ذلك بعد زيارته لمسقط رأس أبيه ورؤية الحياة البائسة التي كان يعيشها أقاربه هناك.

وقبل أن نواصل القراءة في الرواية نتوقف هنا عند عبارة "كنا نبني الجزائر (العاصمة) الجديدة"، والتي لاحظنا فيها معنى وجدناه فيما بعد عند **ناصر خلوز**¹⁹². العبارة باللغة الفرنسية "كنا نشيد الجزائر (العاصمة) الحديثة"، جاءت بصيغة البناء للمجهول، أي باستخدام الضمير *On*، لكن هذا الضمير مع كونه بناء للمجهول (أو بالأحرى لغير المحدد *indéfini*) يحيل حسب السياق إلى أحد معان ثلاث كفاعل للجملة :

¹⁹¹ – BERTRAND Louis, *Le sang des races*, septième édition, Ollendorff, Paris, p 1.

¹⁹² – Nacer Khellouz, *Le roman algérien de l'entre-deux-guerres à l'épreuve du politique*, thèse présentée pour l'obtention du doctorat en philosophie, Université de Pittsburg, 2007. p 37, 38

إما نحن، أو أحدهم، أو الناس. وسبب استخدامه هو كون الفاعل المقصود غير محدد الهوية.

فيكون معنى الجملة : إما نحن نشيد الجزائر، أو أحدهم يشيد الجزائر، أو الناس تشيد الجزائر. فإذا وضعناها في السياق، باعتبار برتران موظفا لدى هذه الإدارة الاستعمارية المسؤولة عن هذا البناء، ترجح المعنى الأول وتبينت إرادة الكاتب -التي تكاد تكون معلنة- في جعل نفسه جزءا من هذا المشروع مساهما فيه.

ينتقل التبئير إذن من النقطة الصفر إلى الداخل -مع وجود علامات الأول، لأن السارد والشخصيات يشتركان في الوظيفة وفي المصلحة. ومع أن السارد يعود فيما بعد إلى استخدام ضمير الغائب الجمع Ils، يبقى الانطباع الذي تركته هذه الجملة الأولى، بأن السارد مشارك في المشروع ومدافع عنه، حاضرا لدى القارئ حتى النهاية.

إن دم الأعراق أكثر من أن تكون رواية أصحاب العربات، بل هي رواية "الشعب الجديد" الذي يتجسد في هؤلاء الرواد الشرفاء -كما يصفهم الكاتب- الذي يتجشمون ألف عناء، ساعين بلا توقف بين الجزائر العاصمة والأغواط. تقدم رواية العمل هذه الاستعمار اللاتيني كعامل من عوامل التجديد في الجزائر. وتركز من الصفحات الأولى على دينامية "الشعب الجديد"، بالإشارة إلى أشغال تهيئة مدينة الجزائر :

"كنا نشيد الجزائر العاصمة الحديثة. كانت حمى البناء التي لا تزال متواصلة، قد بدأت تنتشر في الضواحي عالما جديدا من العمال، مضطرب ومختلط"¹⁹³.

إنها إذن قصة نشأة مجتمع وتجزره في الأرض جيلا بعد جيل، إلى أن صارت أرضه التي لا يتصور العيش في غيرها، ويعطيه في ذلك الحق أنه شارك في بنائها

¹⁹³ - *Le Sang des Races*, op.cit, p 1.

وتشييدها بعد خراب، خراب الحقبة العربية الإسلامية حسب برتران كما سنبين لاحقا في قراءة أعماله اللاتينية.

من خلال وضع هذا العنوان الفخم، ذي الدلالة والقيمة النظرية، يوجه برتران القراءة في اتجاه معين ويركزها على هدف محدد، اختلاف الأعراق وخصائصها التي تختلف باختلاف الدم الذي يسري في عروقها، وسمو بعضها على بعض. جاءت كلمة دم مفردة كاسم جنس، وكلمة أعراق جاءت على صيغة الجمع، هنالك إذن عدة أعراق يميز بينها الدم.

يتجلى هذا المعنى في كون السارد المهيمن على الأحداث والشخصيات، يفسر سلوكيات هذه الأخيرة وطبائعها وردود أفعالها بالانتماء العرقي وجريانها فيهم مجرى الدم، ولا علاقة للمؤثرات الخارجية في ذلك إلا ما يكون من تفاعل الدم مع الطبيعة، مع الشمس خاصة.

شمس إفريقيا التي تشرق على رافاييل وسيكو Cecco وسالفادور Salvador وباكانيت Bacanete وبيبيكو Pepico وتملؤهم حيوية ونشاطا، هي نفسها التي تشرق على العرب والقبائل الذين يراهم برتران في كل مكان ملتحفين برانيسهم مستعدين للنوم في أي مكان، وعلى أحمد العربي، المساعد الكسول، وعلى فلاح بوقزول الذين تقتصر محاصيلهم على بعض السنابل المعتلة. مما يدل أن الأساس لديه هو العرق الذي يتفاعل إذا كان ساميا ونقيا بشكل إيجابي مع المناخ، وإذا كان دنيئا فإنه يميل إلى الخمول والجمود.

تكاد المقاطع الوصفية في الرواية لا تخلو من كلمة عرق أو دم واشتقاقتهما، بحيث لا يكاد القارئ يقلب بضع صفحات حتى يجد إحدى الكلمتين أو كلاهما. تكرار ممل لا يترك فيه السارد للقارئ مجالا للتأويل الشخصي، كأن الكاتب لا يثق في فهمه أو يخشى

أن تغيب أحداث الرواية، التي تأخذ أحيانا منحى مأساويا أو عاطفيا قويا، عن ذهن القارئ الفكرة الرئيسية، العرق والدم اللاتيني وسموه.

عدت الباحثة البولونية ماريا غوبينسكا Maria Gubinska¹⁹⁴ مواضع ورود كلمة دم في الرواية لتجدها أربعين موضعا، ترافقها في أغلبها كلمة عرق، ثم تحليلنا لبيان القرابة بين الكلمتين إلى أحد معاني كلمة دم في معجم لوبوتي روبيير Le Petit Robert الشهير: "(...)4. الدم، يعتبر تقليديا الحامل للخصائص العرقية والوراثية (...)", صوت الدم la voix du sang، الغريزة العاطفية العائلية. بهيمة ذات دم Une bête de sang، أي من عرق نقي"¹⁹⁵.

يتداخل إذن معنى الكلمتين في هذا الاستعمال، وهو الاستعمال المتواتر عند برتران إلى درجة أن يمكن في أغلب الأحيان استبدال إحدى الكلمتين بالأخرى كما في المثالين الذين توردهما ذات الباحثة من الصفحة 198 من الرواية، حيث ترد في أولهما الكلمتان في نفس الفقرة، إذ يتحدث السارد عن كارمن Carmen واصفا إياها بأنها "مع أنها حافظت على الرقة التي في عرقها، كان شيء من الشدة يتوقد في ذاتها. كانت أحق به، لجمال دمها، وامتلائها بالحيوية".

وفي المثال الثاني يقدم سيكو، صديق رافاييل، رفيقته الجديدة إذ يقول: "أنظر، [...] ها هي بورجوازياتي الجديدة، إنها من عرق إسباني، من أكلة الفول السوداني أمثالك"¹⁹⁶. عبارة عرق إسباني يمكننا استبدالها في النص بسهولة بعبارة "دم إسباني"، لأن الأمر

¹⁹⁴ – GUBINSKA Maria, *L'image de l'Autre dans littérature coloniale française au Maghreb*, Wydawnicwo Naukowe Akademii Pedagogicznej, Krakow, 2002, p 32.

¹⁹⁵ – Le Petit Robert, *Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française*, Rédaction dirigée par A.Rey et J. Rey-Debove, 1998, p 1760.

¹⁹⁶ – *Le sang des races*, op.cit, p 162.

يتعلق هنا بالإشارة إلى الخصائص العرقية والوراثية المميزة للإسبانيين. يظهر الدم كقيمة ثابتة، لا لأنه شعار الاشتراك في الدم فحسب، بل كمعادل للوطنية، الارتباط بأرض إسبانيا. كما سنبين في ما يأتي.

السبب في ذلك تأثر المؤلف بالنظريات العنصرية التي رسمت المشهد الفكري في القرن التاسع عشر، وارتبطت ارتباطا وثيقا بالحركة الاستعمارية التي كانت في أوج نشاطها. نظريات رينان وغوبينو ولوبون التي عرضناها في الجزء الأول من الدراسة، "كنت تشاؤميا ورينانيا (Rénaniste نسبة إلى رينان) كأقصى ما يمكن أن يكون المرء"¹⁹⁷، وحتى لو لم يصرح بتأثره بها فإن تعامله مع الأحداث ومع الأشخاص يجعل من أعماله تجسيدا لها.

لا تغيب عن وجهة نظر برتران الأطروحات الأساسية للنظرية العنصرية، بل هي بالنسبة إليه مسلمات. نقصد بذلك المبادئ التي لخصها تودوروف في كتاب نحن والآخرين، في خمس نقاط : أولها انقسام البشر إلى مجموعات يتميز بعضها عن بعض في الخصائص الفيزيولوجية، مثلما تنقسم الحيوانات إلى فصائل وسلالات، والثاني اتحاد الفيزيولوجي والمعنوي بحيث يستلزم اختلاف العرق اختلافا في الثقافة، الثالث تبعية سلوك الفرد إلى سلوك المجموعة، الرابع أن هذه الاختلافات ليست مجرد تنوع بل يسمو بها العرق عن الآخر، وأخيرا استلزام المبادئ الأربع السابقة لحكم قيمي تبنى عليه سياسة مؤداها إخضاع الأعلى للأدنى أو حتى القضاء عليه، وتنبني على السياسة ممارسة¹⁹⁸.

في مقطع من مقاطع الأجزاء الأولى من الرواية، يعتزم جد رافاييل وجدته العودة إلى إسبانيا، بعد أن اعتبرا أنهما جمعا ثروة تضمن لهما حياة كريمة هناك، لكنهما اصطدما

¹⁹⁷– BERTRAND Louis, *Destinée : Jérusalem*, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1939, p17.

¹⁹⁸ – *Nous et les Autres*, op.cit, p 114–117.

برفض الابن رامون Ramon الذي قرر البقاء في الجزائر بعد أن تزوج وصارت له عائلة وملكية خاصة. حاول الأبوان إقناعه بشتى الحجج إلا أن "كل الصلابة والجمود الذي في عرقه ظهرت في في هذه الكلمة الوحيدة، إنها الإرادة المتجذرة مثل الصخر". كلمة "لا" التي لم يقل غيرها ولا هو غيرها.

أمام إصرار رامون، ترك الوالدان الحجة الأقوى إلى الأخير، ويبدو من خلال عرض السارد أنها الأشد وعيدا وخطرا، "من أنكر أرضه، أنكر دمه، ومن أنكر دمه أنكر المسيح"¹⁹⁹، أهم التزام وأول ولاء لابد أن يكون لدى المرء، بالنسبة لهؤلاء، هو الدين، الذي سيكون المحطة التالية في أعمال برتران ومشروعه كما سنرى، الأول وليس الوحيد.

لم يثن كل ذلك الابن عن القرار الذي اتخذه. لم يكن هذا الأخير منكرا للأرض ولا للدم، ولكنه ارتبط بأرض أخرى بنفس الروابط. صارت هذه العلاقة بين الأرض والدم والدين ختم برتران الذي ختم به جميع أعماله، أرض متوسطية، ودم لاتيني، وديانة مسيحية، وهي المعادلة التي تثبت الحق للمعمرين في أرض الجزائر.

يمثل العرق والدم، بالإضافة إلى كونه أساس العلاقة مع الأرض، أساسا للعلاقة بين أفراد المجتمع الاستعماري كذلك، علاقات الجوار أو العمل أو الحب أو الزواج، كان رامون وزوجته تيا روزا Tia Rosa "متحابين في قوة لحمهما وجمال دمهما"²⁰⁰، وهم على وعي تام بقيمة هذا الدم وفخورون جدا به، جاء الحلاق يوما لعلاج دمل أصيب به رامون ولما رأى الأخير منه ترددا في قطعه قال: "اقطع لا تخف ! إنه دم إسباني من النوع الرفيع"²⁰¹.

¹⁹⁹– *Le sang des races*, op.cit, p 24.

²⁰⁰– *Ibid*, p26.

²⁰¹– *Ibid*, p33.

يسير رافاييل على خطى والده، ولا تكاد تمر صفحتان أو ثلاث إلا ويستحضر فيها السارد العرق والدم لتفسير سلوكات الشاب، وخصاله، وقوته في أداء عمله وفي ممارسة الجنس، أو غضبه وسرعة انفعاله، أو غيرته، أو ذوقه الرفيع إلى نهاية الرواية. وبما أن خصائص الأفراد وصفاتهم تعود إلى انتمائهم العرقي، فإنها ستشكل كذلك معيارا للتمييز بينهم وتفضيل بعضهم على بعض.

وفكرة العرق la race عند برتران لا تعني فقط التفريق بين أبيض وأسود وأصفر، بل هي أخص من ذلك، فمع أنه سيجمع أوروبيي الجزائر في بوتقة اللاتينية، إلا أن الإسباني يتميز عن الفرنسي والإيطالي نوع ثالث، إلخ. ويبقى العربي خارج هذا التصنيف، فهو يصنف مع اليهودي والتركي، وقد يشبه العرق عرقا آخر في بعض الصفات، فمع أن المالطيين مندمجون في المجتمع الأوروبي، إلا أن فيهم -حسب برتران- شيء من صفات اليهود والعرب، الخبيثة بطبيعة الحال. لم يخرج هذا التصنيف على المنهجية المتداولة في القرن التاسع عشر في معظم العلوم، المقارنة وتصنيف السلالات والأنواع.

التحق بركب رافاييل شاب يدعى فيكتور Victor، فرنسي من مرسيليا، وكان ذلك في إحدى رحلاتهم إلى الجنوب، إلا أنه لم يتحمل مشاقها وتخلّى عن عمله ولم يكمل حتى طريق الذهاب، قال عنه السارد "لم يكن منهم، لم يكن من عرقهم، ولا من مهنتهم"²⁰²، وفي هذا يشير برتران إلى الفتور والخمول الذي أصاب الشباب الفرنسي، وهي فكرة سييسطها داعيا فرنسا إلى الاقتداء بسكان المستعمرة لتحقيق النهضة.

بل إن برتران خصص لهذه الفكرة كتابا كاملا معنى العدو، يعبر عنوانا فصليه الثالث والرابع عنها أبلغ تعبير. فرسالة الفصل الثاني مفادها أن "الوطن ليس المكان الذي

²⁰²— *Le sang des races*, op.cit, p 66.

يرقد فيه الأموات : إنه في كل مكان تحيا فيه فرنسا"، وبالتالي "أفضل طريقة لنكون فرنسيين، تحصيل الخصال الإيجابية التي يفقدها الفرنسيون".

لم ترد هذه الخصال الإيجابية بالمعنى القيمي للكلمة فصورة الإسباني في هذا الكتاب أبعد ما تكون عن الملائكية، بل "يتعلق الأمر بالأحرى بوصف رصين لهؤلاء الرجال الذين يمكن أن تصبح آثار خصالهم (بما فيها) القبيحة مشروعة إذا أدت مباشرة إلى الهدف المنشود وهو امتلاك إفريقيا، ولو كانت الغدر والولع بالسرقة"²⁰³.

كأن الأعراق الفرعية يمكن أن يأخذ بعضها بعض الصفات عن بعض، هذا إذا كانت تنتمي إلى نفس الأصل، إما إذا ابتعدت من حيث الأصل فلا، بل قد يحدث بينها تنافر. ينفر رافاييل من النابليات اللاتي يشعره كل ما يفعلنه للإثارة بالاشمئزاز، وقدور وغيره ممن يعملون لدى الأوروبيين لم يتعدوا العمل في مهن الأعمال الشاقة hommes de peine، من حمالة وعناية بالحيوانات وبالعربات وغيرها من المهن الثانوية ولم يصل منهم أحد في نصوص برتران كلها إلى الاستقلال بمهنة ولو كانت سياقة عربة تجرها بغال، بل إنهم لا يقومون بتلك الأعمال الموكلة إليهم إلا متذمرين وينجزونها بشكل رديء.

أما سيكو Cecco، الإيطالي، فإن "حمرة دمه كانت تبدو كأنها تصنع من حوله إشعاعاً"، وفرنسي آخر يصفه برتران بأنه "سليل عرق سائقي عربات الرون Rhône (منطقة شرق فرنسا)"، والأمثلة على هذا التصنيف والمقارنات لا تنتهي في الرواية، ولعل هذا هو مقتضى العنوان.

يبدو أن الأدب سيصير مع برتران ومن بعده أفضل قناع لأفكار غوبينو ورينان ولوبون العنصرية، فمن وراء بربرية شخصيات دم الأعراق وسذاجتهم وبساطة أحداثها

²⁰³ – L'image de l'Autre dans littérature coloniale française au Maghreb, op.cit, p 36.

وحبكتها كانت كل تلك الفلسفة العنصرية والأفكار الكولونيالية تشتغل، وقد لازمت أعمال برتران حتى النهاية، حتى كتاب *الغروب* Crépuscule، وسنتطرق إليها في الحديث عن الجانب السياسي من أعمال المؤلف.

كانت كل تلك الأعراق التي تظهر في الرواية في صراع على الأرض، صراع مزدوج، بين المستعمر والمستعمّر في المستوى الأول، وبين مكونات المجتمع الاستعماري في المستوى الثاني. وهذا يعني أن برتران دخل من البداية في المرحلة الثانية من الصراع على الأرض في الوضعية الاستعمارية، فبعد إحكام السيطرة العسكرية أو فرض التهدة pacification تأتي مرحلة إثبات حق ملكية الأرض وحق الاستقرار والعمل فيه، وهي كلها قضايا نقلتها وناقشتها وحسمت فيها القصة كما يستنتج إدوارد سعيد²⁰⁴.

القصص البرتراندية في الأدب الفرنسي، والاستعماري بصفة عامة، هي إذن من النصوص التي زجت بالأدب في الصراع على الأرض، لكن الجديد هنا هو الحجج التي يقدمها المؤلف لتبرير الاستعمار وإعطائه الشرعية، إضافة إلى الحجج التقليدية التي لا ينكرها بل يثبتها ضمناً، ويبقى الأدب الفرنسي فريداً في هذه الجزئية.

بالإضافة إلى كونه كتب من المستعمرة، تجاوز الأدب البرتراندي الحجة القديمة التي كان يقدمها المستعمرون الأوروبيون لاستعمار الشعوب، والتي يعبر عنها مونتييسكيو بطريقة فنية وساخرة :

"إذا كان عليّ أن أدافع عن حقنا المشروع في اتخاذ الزوج عبيداً لنا، فهذا ما سأقوله : بعد أن أفنت شعوب أوروبا شعوب أمريكا، كان لزاماً عليها أن تتخذ من شعوب إفريقيا عبيداً لها، لتستخدمهم في استصلاح المساحات الشاسعة من الأراضي.

²⁰⁴– Said W .Edward, *Culture et impérialisme*, Apic, Alger, 2010, p 124.

وأولئك سود من أخصم القدمين إلى الرأس، وأنوفهم من الفطس بحيث لا يرثى لها. لا يمكن أن نتصور أن الإله بحكمته البالغة، يمكن أن يضع روحاً، خاصة إذا كانت طيبة في جسد حالك السواد"²⁰⁵.

لم يعد سبب الاستعمار دونية الشعوب واستحقاقها له بأمر إلهي، ولا الرسالة الحضارية النبيلة، ولا حتى عجز الأجناس الدونية الفطري على اللحق بالحضارة فحسب، بل هو حق مزدوج في الأرض، حق في امتلاكها لمن له القدرة في استصلاحها واستغلالها وإعمارها، وهذه حال رافاييل وزملائه، وحق تاريخي ثابت بكون المستعمر الوريث الشرعي للأرض.

الصراع إذن عنصر أساسي في قراءة أعمال برتران، وفهمها وتحليلها. الفاعل أو البطل (بالمعنى الغريماسي Greimas) في دم الأعراق هو رافاييل، الباحث عن السعادة في الطريق نحو الجنوب الجزائري الرحب وعن الرضا في ممارسة مهنته التي ورثها عن أبيه وعن المتعة الجسدية، لكنه في النهاية يقرر الاستقرار والاستخلاف في هذه الأرض تنمة لما بدأه أبوه، فيتزوج إحدى بنات بلده أسومبثيون Assompcion بعد مغامرات عديدة، فالهدف النهائي والأخير هو إعمار هذه الأرض.

أما العقبات التي اعترضت طريق رافاييل فمنها الإنساني ومنها الطبيعي ومنها المعنوي، بداية من أعداء المهنة والمنافسين، ثم العرب غربيي الأطوار والمخيفين، إلى العشيقات اللائي يجرين وراءه، ووصولاً إلى قسوة الأرض بمناخها وتضاريسها.

أمام هذه العقبات لا يجد رافاييل معينا مثل القوة البدنية والنفسية التي يتمتع بها العرق الذي ينتمي إليه، بالإضافة إلى بعض الشخصيات التي تساعد في مرحلة ما من مراحل المغامرة، البوريغو le Borrego صديق أبيه الذي اعتنى به وعلمه المهنة، وفيليب

²⁰⁵– Montesquieu, *De l'esprit des lois*, Livre XV, Chap. V, Ligarán, 2015, p 232.

Philippe صاحبه في كثير من الأسفار الذي كان يسدي له النصح ويعلمه القراءة والكتابة، لكن كل أولئك لم يكونوا ليفعلوا لأجل رافاييل شيئاً لو لم تكن في جيناته قوة البدن والإرادة.

فكرة الصراع مطروحة بقوة في هذه الرواية، وفي كل كتابات برتران، صراع بين الإنسان والأرض، وبين الإنسان والإنسان، أما الأول فنعني به صراع الأوروبيين المنتشرين في أنحاء الجزائر المستعمرة بين من يبني المدن ومن يشق الطرق ومن يستصلح الأراضي ويزرعها، والثاني ينقسم إلى نزاع بين الأوروبي والعربي، بين المستعمر والمستعمر، وبين الأوروبيين أنفسهم.

أما الصراع مع الأرض فإن برتران يحسمه عندما يبين أن الشعب الفتى، من أوروبيي الجزائر، مؤهل ليتغلب على المشاكل التي تواجهه في بناء هذه الأرض واستغلالها، وأن بينه وبين الأرض علاقة قديمة وقوية. والصراع بين المستعمر والمستعمر والحل له محسوم كذلك، إذن هي علاقة عداوة أبدية لا حل لها سوى إخضاع العنصر المحلي أو القضاء عليه.

لابد أن ينصرف تركيز برتران إذن إلى إيجاد حل للتنافس بين الأوروبيين، وتوحيد جهودهم، فضعفهم أو تشتتهم قد يوهن قبضة الاستعمار على هذه الأرض ويفتح المجال أمام العدو المسلم، لينقضّ عليهم.

تمثل هذه النقطة بداية المرحلة الثانية في مشروع لوي برتران الفكري والأدبي، والتي تجسدها روايته الثانية التي عنونها لا سينا La Cina، والتي تسير على الخط الذي رسمته دم الأعراق في منحى تصاعدي، وتوسع المجال الزماني والمكاني، ومجال الشخصيات والمواقف.

وقبل أن ننتقل إلى قراءة الرواية الثانية، لا بد هنا من إبداء ملاحظة تتعلق بالانتماء الأدبي لبرتران والأسلوب الذي كتب به *دم الأعراق* وغيرها من روايات العرق الجديد، مثل *بيبيت* أو *ملكية مادام دو بوتيجون*، أو أجزاء من *لا سينا* وغيرها. وقد سبق أن تحدثنا عن جمع المؤلف بين التأليف الكلاسيكي الموضوع الجزائري، وعن اعتزازه بأنه تلميذ *لفلوبيير*، أحد أعمدة الرواية الواقعية في القرن التاسع عشر.

لكن التزام رسم الطبيعة -البشرية على وجه الخصوص- من دون تجميل، ومنحه أهمية أكبر من تقديم وصف واقعي للأوساط الاجتماعية، يقربه من المدرسة *الطبيعانية* Naturaliste أكثر منه إلى الواقعية Réaliste، ومع أنه ينتقد الأولى فإن الكثير من المقاطع الوصفية في هذا النص خاصة وفي غيره، فيها تصوير فظ بلا تحفظ ولا تجميل للعلاقات بين الأفراد ولتصرفاتهم، علاقات مهنية (كمعاملة رافاييل لمرافقيه أو لبهائمه) أو حميمية (مثل معاشرة رافاييل لتيريز التي تخون زوجها لأجله)، على طريقة زولا Zola.

بل يذهب آلان كالم Alain CALMES إلى أن ما فعله برتران هو مجرد أنه صب "الموضوع" الجزائري في قالب الرواية *الطبيعانية*، وأنه "أنشأ [...] *الطبيعانية* الاستعمارية وأثرى إنتاجاته بوصفات أسلوبية مجربة". منح التكوين الميتروبولي والاطلاع على المستجدات الأدبية في فرنسا لوي برتران تقدما على العديد من الكتاب الاستعماريين، فهو لا يجهل مم تصنع الرواية ويتحكم جيدا في بنائها، على العكس من أدباء المستعمرة، *ميزات* مثلا، وهذا في الجزائر.

وإذا نظرنا إلى أعمال برتران من وجهة نظر الميتروبول، وجدنا أنها أبعد ما تكون عن اختراع أسلوب فني يعيد بعث النقاش والنقد، بل ليس فيها ما من شأنه إثارة فضول القارئ الميتروبولي سوى الموضوع. لم يبدع برتران، بل عرف مكونات الوصفة الناجحة،

لكنه يبقى مع ذلك أدبا محترفا يقف "في وجه الرداءة المألوفة لروايات القصر، المنشغلين بالتعبير أكثر مما ينشغلون بالبناء الروائي الحقيقي"²⁰⁶.

ينقل دانيال مورني Daniel Mornet، بعد أن تحدث عن ارتباط محتمل بين الرواية الزولية والرواية البرتراندية، كلاما لزولا في نص له صدر في نفس السنة التي صدرت فيها دم الأعراق، يتطابق عنوانه وفكرته الرئيسية مع كلام برتران وأفكاره، كتب زولا في *الخصوبة Fécondité* :

"من الآن، ولدت فرنسا جديدة في الأماكن البعيدة، إمبراطورية ليس لها حدود، وهي تحتاج إلى دمنا ولا بد أن نعطيها منه لنُعمّر، ولتخرج من الأرض خيراتها التي لا تعد، ولتصبح أكبر وأقوى، والأكبر سيادة في العالم كله. [...] لا يوجد في المستعمرات عرق أكثر خصوبة من العرق الفرنسي، وهو الذي بدا أنه صار عقيما على أرض القديمة"²⁰⁷.

وكان برتران يتكلم عن قوى الحياة الأساسية والخشنة المتوحشة في الغالب، عن موضوعه المفضل: القسوة والخصوبة، وانفجار الحياة في الأعراق اللاتينية التي نصب نفسه مؤرخا وشاعرا لها.

يقول برتران في تصديره لرواية لا سينا : "لم أزد على أن قدمت بشكل أدبي ما كنت قد سمعته يقال من حولي، أو أن طابقت فكر أبطاله بمنطق صفاتهم وأمزجتهم"²⁰⁸. أي أنه يدعي الموضوعية في عرضه للأحداث وتقديمه للشخصيات، خاصة فيما يتعلق

²⁰⁶ – CALMES Alain, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, L'Harmattan, Paris, 1984, p124.

²⁰⁷ – MORNET Daniel, *Histoire de la littérature et de la pensée française contemporaine 1870-1934*, Larousse, Paris, s.d, p 129.

²⁰⁸ – BERTRAND Louis, *La Cina*, cinquième édition, Ollendorf, Paris, 1901, p IX.

بالمواقف والآراء التي يعرضها على ألسنتهم، على طريقة روائيين النصف الثاني من القرن التاسع عشر الواقعيين.

لكن مع هذه الدعوى يمكننا قراءة موقفه من خلال الموقع الذي ينقل الأحداث منه، بمقارنته مع الموقع الذي اختاره في دم الأعراق. ففي الرواية الأولى جعلنا برتران نرى الأحداث من داخل المجتمع الإسباني في الجزائر، نراها بأعين رافاييل وزملائه في حياتهم اليومية ونشعر بمعاناتهم. اقتصر برتران في الكلام عن تركيبة الجزائر آنذاك على ما هو ضروري للديكور ولسير أحداث القصة، دون أن يفصل كثيرا في وصف ما ليس له علاقة مباشرة بها.

أما في الرواية الثانية، فموقع التصوير كان من الأعلى، وصار رافاييل -الذي يعود في هذه الرواية كشخصية ثانوية - ومجموعته جزءا من تركيبة أكبر، ليعطينا المؤلف صورة كلية عن الحركة السياسية والاجتماعية في الجزائر المستعمرة. ويمكن أن نتتبع التحولات الناجمة عن هذه الحركة السريعة والعنيفة أحيانا، من خلال جزء من حياة بطل الرواية ميشال بوتيري Michel Botteri، شاب فرنسي مثقف وثري، والده الجنرال بوتيري خدم بكل إخلاص الإدارة العسكرية الفرنسية في الجزائر التي منحته ألفي هكتار من الأراضي الخصبة في تيبازة.

تمثل كل واحدة من الشخصيات التي يقدمها برتران في لا سينا مجموعة هي جزء من تركيبة المجتمع الجديد، وهذا ما صرح به في التصدير أي أن هذه الرواية عبارة عن تمثيل représentation للواقع الذي عايشه في الجزائر المستعمرة. بوتيري وصديقه كلود Claude القادمان من فرنسا يمثلان العنصر الفرنسي الذي عليه أن يدير الجزائر، وتمثل البطلة لا سينا، زوجة ميشال، بأصلها الكورسيكي الإيطالي ومولدها الجزائري المرأة الإفريقية التي يتجسد فيها جمال العرق المتوسطي ونقاؤه. السيد بويغ Monseigneur Puig أسقف الجزائر ومساعدوه، وراهب كنيسة تيبازة نموذج للسلطة الدينية، وكارميلو

Carmelo نموذج لأوروبيي الأحياء الشعبية، وغيرهم من معمرين وصيادين وعلماء الآثار ورجال الأدب الباريسيين، وهلم جرا.

تدور أحداث هذه الرواية، وتلتف شخصياتها الرئيسية حول لا سينا، مغنية الأوبرا السابقة التي تزوجها ميشال، الفتاة الإفريقية بامتياز، والتي يعكس جمالها ورشاقتها وخفة ظلها وحدة مزاجها وبساطة روحها خصائص إفريقيا. تجعل هذه الشخصية رواية لا سينا امتدادا أو صدى لرواية سالامبو لفلوبير، فسالامبو اسم لشخصية الرواية الرئيسية وهي امرأة شابة يمكن اعتبار لا سينا آفاتارا Avatar لها.

أتى برتران تقريبا على جميع فئات المجتمع الجديد، مقدما لها ومحللا لخصائصها النفسية والجسدية. وأبقى على العربي في الموقع الذي وضعه فيه في الرواية الأولى، أي في هامش هذه الحياة المفعمة بالحيوية والنشاط، في مهنته التي لا يحسن غيرها : العناية بالدواب، سواء كان قدور الشاب الذي عمل عند رامون أو أحمد الذي يعمل عند ميشال ويضع لما بدأ يدركه الكبر ابنه تحت تصرفه، هذا أقصى ما يمكن للعربي أن يأمله.

إنها رواية بوليفونية polyphonique بامتياز، تتقل لنا أحوال الناس في المستعمرة التي تعبر عن "حيوية فرنسا" التي "لا تظهر ولا تتأكد إلا في هذا المكان"²⁰⁹، من خلال الوصف الدقيق والتحليل تارة، ومن خلال الحوارات التي تدور بين الشخصيات عن قضايا المستعمرة الحالية أو عن تاريخها تارة أخرى، والتي تمتد أحيانا على صفحات. لكن هذه الحيوية المفرطة كما يقدمها برتران تحتاج إلى توجيه أو حتى إلى كبح في بعض الأحيان، كما أن هذه القوى المشتتة تحتاج إلى توحيد لإحكام السيطرة وغلق المجال أمام العدو الذي لم يضع السلاح إلا مؤقتا. وهنا لن يترك برتران مواطنيه دون أن يعطيهم الحل لهذا الإشكال.

²⁰⁹ – La Cina, op.cit, p XI.

تدور أبرز أحداث الرواية في مدينة تيبازة، وبالتحديد في ملكية **بوتيري** المترامية الأطراف، والتي تقع في وسطها "ربوة المعابد أو الأضرحة" la Colline des Temples، التي تعتبر من أبرز المواقع الأثرية الرومانية في تيبازة، بل وفي الجزائر كلها، وفيها مسرح روماني وكنيسة **القديسة سالسا** Sainte Salsa والعديد من الآثار التي كانت قيد الدراسة والتتقيب من طرف راهب المدينة. تاريخ إفريقيا اللاتيني هو الكفيل حسب **برتران** بجمع شتات وتنوع المجتمع الاستعماري.

فقد جمعت فيلا **ميشال** الرومانية أدباء باريس، وجمع المسرح الروماني في سهرة فنية جميع الشخصيات الفنية والدينية والسياسية في الجزائر، في تأكيد للفكرة المذكورة، اللاتينية هي القاسم المشترك والوعاء الجامع للفئات المكونة للمجتمع الاستعماري، والمختلفة أيما اختلاف، ولا يمكن أن يجمعها شيء آخر.

وضع **برتران** في هذا الجزء الأول من الرواية أسس النظرية اللاتينية، وطرحها على أنها المبرر الشرعي الأول للاحتلال، والحل الوحيد لإحكام السيطرة على الأرض المستعمرة. أما دعوى المؤلف في تصدير الكتاب أنه لم يزد على أنه نقل واقع ما يدور حوله، فصحيح إلى حد ما، لكن تنطبق عليه ملاحظة **بيرنار فاليت** Bernard Valette عن الكتابة الروائية بأنها "الواقع الذي يستولي عليه الكاتب" والذي "لا يتعدى أن يكون مجموعة من الصور، ومن المواقع المشتركة ومن التصورات المسبقة"، يجمعها الكاتب ليضعها في الإطار الواقعي الذي يدعيه، ثم يقوم بتركيبها على نسق مناسب، أو على العكس، أي على نسق غير مألوف²¹⁰.

²¹⁰ – VALETTE Bernard, *le roman : Initiation aux méthodes et aux techniques modernes d'analyse littéraire*, Nathan Université, Paris, 2000, P 10.

هذا ما تؤكد ملاحظة **جون ديجو**، في سياق كلامه عن أعمال **برتران** في الجملة أنه "سبني لنفسه الجزائر الخاصة به"²¹¹، جزائر لا يراها إلا من وجهة نظره الشخصية.

الأحداث في جملتها وفي إطارها، وفي شخصياتها هي بالفعل من الواقع، أما الحكم عليها من خلال وصف السارد وطريقة تقديمها فهو مجرد إسقاط للذهنية الاستعمارية والنظريات العنصرية ونزوات الكاتب الشخصية على هذا الواقع، الذي رتب على نسق مناسب للإرادة الكولونيالية وغير مألوف بالنسبة للكتابة الأدبية في تلك الفترة، بل هو ردة فعل عليها. نقصد بذلك الكتابة الرومانتيكية الغرائبية التي أعلنت كتابات **برتران** والجزائريين من بعده نهايتها.

تعارض كتابات **برتران** بشدة مفهوم الشرق الغرائبي، ولا تعترف بالمقولات السحرية التي طبعت حكاية هذا الشرق، كما أن شخصياته أبعد ما تكون عن *كشك هانم* وعن *المتوحش الطيب* و*عوالم ألف ليلة وليلة*²¹². فأبرز ما يؤخذ على هذه النظرة أنها مجرد إسقاط لنزوات الكاتب ولكليشيهاته التي جاء بها من الغرب على الواقع. غير أن النظرتين -الشرق الغرائبي والشرق البرتراندي- تلتقيان بالذات في هذه الجزئية، إسقاط الكليشيهات على الواقع.

لم تكن الكتابات الفرنسية عن الجزائر فيما قبل **برتران** تعطي لهذه الأرض ولأهلها خصوصية، بل كانت تستصحب النظرة الاستشراقية العامة في الكلام عليها، وتجعل الشرق واحدا من القاهرة إلى الجزائر. وهذا ما رفضه **برتران** تماما في طرحه لجزائر لاتينية ولميلاد العرق أو الشعب الجديد. لكن طرحه لم يكن في العمق كتابة موضوعية

²¹¹ – DAUDET Alphonse, *Récits et nouvelles d'Algérie*, présentation de Jean Déjeux, La boîte à documents, Paris, 1990, p14.

²¹² – وحيد بن بوعزيز، "ثقافة المقاومة"، منشورات ميم، الجزائر، 2018، ص 157.

كما حاول طوال مسيرته الأدبية تقديمها- بقدر ما كانت إسقاطا لكليشيات جديدة، مصدرها النظريات العنصرية، نظريات غوبينو ورينان ولوبون.

هذا أثر من آثار الثقافة العلمانية التي كانت سائدة آنذاك، والتي كانت تحرك ريشة برتران في الحقيقة، ولو أنه كان ينتقدها في الكثير من خصائصها ونتائجها. نلمس أثر المنهج الموضوعي العلمي أيضا في طريقة بناء برتران لنظريته عبر مراحل مرتبطة بعضها ببعض تنطلق من الخاص إلى ما هو أعم، في تسلسل منطقي.

لا يمكن ألا يلاحظ القارئ في السلسلة الأدبية الكولونيالية لبرتران أن نهاية كل كتاب أو قصة هي مقدمة للكتاب التالي، وطرح لإشكالية سيجيب عنها فيه. فكما كانت نهاية دم الأعراق طرحا لإشكالية استيعاب الشعب الجديد وجمع شتات أوروبيي الجزائر، التي أجابت عنها رواية لاسينا بالأطروحة اللاتينية، "الخرافة التي تحولت إلى عقيدة سياسية" بتعبير راج بلعمري. ستكون نهاية هذه الرواية مقدمة لمرحلة تالية، فيها إجابة عن إشكالية : هل سينجح إحياء الآثار اللاتينية الموجودة على أرض الجزائر في تحقيق وحدة مجتمع أغلب من فيه عمال لم يلاحظوا وجودها ولا وقت لديهم للاهتمام بها.

ما هو السبيل إذن إلى ربط أوروبيي الجزائر المختلفة أصولهم بماضيهم اللاتيني الموحد الذي من شأنه أن يوحد حاضرهم كذلك ؟ كان الحل بالنسبة لبرتران فيما بقي من هذا الماضي الواحد لدى الأوروبيين جميعهم : الديانة المسيحية، هي العمود الثاني -مع اللاتينية- لقوس النصر الذي يريد الكاتب تشييده في أرض الجزائر، بل شمال إفريقيا.

اختتمت رواية لا سينا بحدث عظيم ومهيّب، في مراسيمه وفي موقعه وفي حضوره. إنه المجمع الكنسي الذي نظمه وترأسه كردينال الجزائر وشمال إفريقيا، المونسنيور بويغ، في مدينة قرطاج التي تعد رمزا للحضور المسيحي اللاتيني في إفريقيا. هذا المجمع

كان بداية لتحقيق حلم عمل الكاردينال عليه جاهداً، وهو الرجل الداهية والبراغماتي كما يصفه السارد، وذو الهيبة الكبيرة :

"لقد أخرجت نظرتة الثاقبة الأفق. عند قدميه، يكادون يلمسون عباة، كان يقف شعب المستقبل من لاتيني إفريقيا : فرنسيون، وإسبانيون، وإيطاليون، ومالطيون، متحدين في هذه اللحظة على أمل واحد في النصر"²¹³.

كان هذا الحدث من الأهمية بحيث حضره ممثلو الكنيسة من البلدان المسيحية الكبرى، أسقف بلنسية ممثلاً للكنيسة الإسبانية، وأسقف مارسيليا ممثلاً للكنيسة الفرنسية، والقنصل الإيطالي في تونس. دعاهم بويغ ليشهدهم على ثمة "إنجازنا الحضاري -أو التحضيري- Notre œuvre civilisatrice"²¹⁴، ويذكرهم بالعقد القديم الذي أمضته فرنسا مع الكنيسة وهي ماضية فيه.

مع أن كاردينال شمال إفريقيا كان رجل أعمال ومستثمراً أكثر مما كان رجل دين، يقدم في صفقاته المصلحة على الضمير، بل على العقيدة والدين، وأن عمله على ترسيخ أركان الكنيسة وجعلها مؤسسة فاعلة لم يخل من الاحتيال والخداع، حتى إن الخطاب الذي ألقاه في ذلك اليوم المشهود والذي بدا "ارتجالاً نابعا من روح كريمة لا تقدر على كتم مشاعرها"²¹⁵، لم يكن سوى مسرحية حضرها مسبقاً. إلا أن برتران قدمه كنجاح باهر، وكأن الكنيسة لا بد أن تقدم الفعالية، التي فقدتها الكنيسة الأوروبية، على المثالية.

لم يتردد زعيم الكنيسة الإفريقية أيضاً في استخدام الحيل والمؤامرات السياسية ليتخلص من خصومه، مثلما فعل مع القنصل الإيطالي في تونس الذي دخل معه في صراع بعد طرد راهبات دير إيطالي هناك وتسليمه للفرنسيين. أما مستواه الديني، فلم يكن

²¹³ – *La Cina*, op.cit, p 440.

²¹⁴ – *Ibid*, p 437.

²¹⁵ – *Ibid*, p 438.

بويغ يتقن من اللاتينية إلا دارجها أو ما تؤدي به الصلوات، وقد أخرج قس إسباني بلغته اللاتينية الفصحى، وبالحديث عن قضايا كنسيّة وآراء دينية لم يكن يفقه هو فيها شيئاً. رجل الكنيسة في المستعمرة ما هو إلا معمر، أي عامل من عمال المؤسسة الكولونيالية.

هذا التاريخ المزدوج، المسيحي اللاتيني، للمنطقة، يشكل القاعدة التي سيقوم عليها المشروع الكولونيالي والنظرية البرتراندية في إحكام السيطرة على الأرض. تاريخ يشترك فيه كل من يشاركون في صنع حاضر المستعمرة، حاضر لا بد له من سياسة تنظمه وتوجهه. وهذا هو الجانب الثالث في هذه الرواية، ومن أعمال **برتران** عموماً. يأتي بطل القصة **ميشال بوتيري** إلى الجزائر ليخوض المعركة الانتخابية من أجل منصب في قيادة المستعمرة.

لكن الواقع الجزائري، السياسي والاجتماعي والاقتصادي، المختلف عن الواقع في فرنسا، جعل من بضاعة المرشح الميتروبولي، المثقف والأديب المتشبع بالمبادئ الأنسانية والفلسفة، كاسدة في سوق الانتخابات في المستعمرة. وجد **ميشال**، الفيلسوف الإنساني ورجل الفن والأدب، نفسه في مواجهة رجل اسمه **كارميلو**، هو نسخة من **كاغايو**، شخصية ميزات البيكاريسكية التي سبق الحديث عنها، الصعلوك ابن الحي الشعبي وابن المجتمع الجديد.

ركب منافس **ميشال** موجة العداء لليهود لتكوين قاعدته الشعبية، واستخدم لتجنيد الحشود في حملته وفي نشاطه كل ما من شأنه تحريك المشاعر والغرائز البشرية، مما لا علاقة له ببرنامج سياسي ولا مبدأ أخلاقي ولا ديني، العنف الجسدي والإغراء الجنسي، وكانت التجمعات التي يقيمها عبارة عن أكل وشرب ومعاشرة النساء تنتهي برحلة صيد لليهود.

وضع هذا الواقع ميشال أمام خيار صعب بين قرارين أحدهما مر : التضحية بالمبادئ والقيم التي طالما آمن بها ودافع عنها والتحالف مع كارميلو ذي الشعبية الكبيرة للنجاح في الانتخابات، أو التضحية بالحلم السياسي من أجل المبادئ لأن المعركة ضد كارميلو خاسرة بالتأكيد. قرر ميشال في البداية بمشورة مقريه التحالف مؤقتا مع الشيطان للوصول إلى منصب قد يسمح له فيما بعد بممارسة السياسة كما يؤمن بها.

لكن تطور الأحداث في اتجاه العنف والقتل (قتل اليهود) والتخريب، جعل ميشال يراجع قراره وينقض تحالفه مع كارميلو، الذي صار بطلا ورمزا شعبيا خاصة بعد أن دخل السجن، ويحاول إيقافه. كاد هذا القرار، بالإضافة إلى خسارة حلمه السياسي، أن يكلفه حياته حيث تعرض للاعتداء في محاولته إنقاذ يهودي أحاط به بعض أنصار كارميلو ليقتلوه.

يشبه حال السياسي في المستعمرة حال رجل الدين، لا بد له لكي ينجح ويتمكن أن يضع الالتزام بالمبادئ وبالضمير جانبا وإلا قضي عليه وعلى مشروعه ولو كان إنسانيا ونبيلًا. لما ضحى بويغ بمبادئ الكنيسة الأوروبية نجح في تأسيس مؤسسة دينية متينة، أما بوتيري فكاد يضحي بحياته لما رفض التضحية بمبادئه. توحى طريقة تقديم برتران لهذه الأحداث بأنه يدعو إلى البراغماتية والميكافيلية في المرحلة الأولى فقط، لكن المستعمرة بقيت تسير بهذه الطريقة حتى 1962، كما تشهد به كتب التاريخ، فرنسيو الجزائر لبيار نورا مثلا.

عناصر ثلاث إذن كانت هي قوام الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في الجزائر المستعمرة، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لاحظ برتران وجودها فتلقفها، وحاول من خلال الكتابة الأدبية والتاريخية التأليف بينها وصياغتها في نظرية تؤسس لمنظومة كولونيالية تجعل من الاستعمار أمرا طبيعيا وحقا مشروعا. اللاتينية التي

نشطت أبحاث المنقبين عن الآثار في دراستها، والمسيحية التي أسست لها مؤسسة قوية، والعنصرية التي سيطرت على الفكر الغربي.

فإذا أحكمت فرنسا السيطرة على هذه المستعمرة بالوسائل التي تحدث عنها برتران، يمكنه الحديث عن المرحلة التالية في فكره، ألا وهي إنعاش الميتروبول بالطاقة التي تمدها بها المستعمرة المفعمة بالحياة للوقوف في وجه القوى الغربية التي صارت تخرج بتقدمها فرنسا، خاصة ألمانيا التي كان لبرتران معها قصة طويلة.

جسد لوي برتران في هذه الروايات، وهي رواياته الأولى، أطروحته التي ستبقى على حالها على مدار ربع قرن، وشكلت بالنسبة إليه هوسا.

2. الكنيسة والمشروع البرتراندي

سبق أن استنتجنا أن نهاية كل رواية أو كتاب من كتب لوي برتران تشكل مقدمة للكتاب التالي. وهذا كان حال رواية *لا سينا* التي انتهت بتمجيد النجاح الباهر الذي حققته الكنيسة الجزائرية، بقيادة أسقف الجزائر، ثم كاردينالها، في الهيمنة الروحية وحتى الاقتصادية على شمال إفريقيا. فقد نجح هذا الزعيم الذي قدم الكثير من التضحيات (واستخدم الوسائل المشروعة وغير المشروعة) في جمع أوروبيي شمال إفريقيا تحت راية الكنيسة الفرنسية، وفي تحويل هذه الكنيسة إلى مركز من مراكز القرار والتأثير في المستعمرة وفي الميتروبول على حد سواء.

تضحية رجال الدين من أجل هذه الأرض (إفريقيا)، هي منطلق الرواية التالية من أعمال لوي برتران، رواية ملحمية عنوانها *سانغيس مارتيروم* Sanguis Martyrum، عبارة لاتينية يمكن ترجمتها إلى *دم الشهيد*. وكما قلنا عن *دم الأعراق* أنه عنوان حري بأن يوضع على كتاب فلسفي فإن هذا العنوان حري بكتاب في عقيدة التضحية المسيحية، نفس فكرة إعطاء العنوان النظري الفخم لرواية، مما من شأنه توجيه القراءة.

يحيلنا هذا العنوان إلى مصادر مختلفة، فهو أولاً باللغة اللاتينية وهذا يحدد نسبة النص وموضوعه إلى الثقافة اللاتينية وإلى العهد الروماني. ثم حضور كلمة الدم مرة أخرى في عناوين برتران فيه دلالة على الحضور المستمر للنظريات العنصرية في فكره، وأخيراً معنى الشهادة أو التضحية بالنفس، وهو مفهوم ديني بحث يأخذ معنى قويا في المسيحية قد لا يأخذه في غيرها. هذه الإحالات تؤكد الترابط المنطقي الذي أشرنا إليه من قبل بين أعمال المؤلف.

في عتبة هذه الرواية، يربط برتران محتوى هذه الرواية التاريخية (بمعنى أنها تروي أحداثاً من زمن غابر)، التي تدور أحداثها في القرون الأولى من الميلاد، بحاضر إفريقيا،

فيحيل القارئ على الرواية السابقة (لا سينا)، ليفهم أن شخصيات **المونسينيور بويغ** و**الكاردينال لافيغري** Le cardinal Lavigerie لم يكونا حاضرا جديدا طارئاً على شمال إفريقيا مرافقا للاحتلال الفرنسي، بل عملهما وتضحياتهما، ووجودهما نفسه، ما هو إلا امتداد لتاريخ مسيحي طويل في هذه الأرض. لقد سارا على خطى **القديس سيبريان** Saint Cyprien -بطل هذه الرواية- وأتباعه الذين لم تجف الأرض من دمائهم التي سالت من أجل المسيحية فيها.

"التضحية بالنفس ليست جزءا من الآثار القديمة. والشهداء ليسوا مجرد عظام ورفاة مدفونة في محاريب المقابر أو حفر مدن الموتى الحجرية. دماؤهم بذور حية لا بد أن يخرج نباتها في اليوم الآخر. سوف يتجدد ما قاموا به من بطولات بلا نهاية"²¹⁶.

يدعوا **برتران** في هذا الكتاب، صراحة وضمنا، الكنيسة إلى العمل والتضحية من أجل هذه الأرض من خلال التذكير بتضحيات الأوائل، فهؤلاء ليسوا رمما وترابا، بل رموز وقدوات. في الجانب العملي خاصة، أي أن على رجال الكنيسة في شمال إفريقيا المستعمرة أن يجتهدوا ويعملوا وإن لم يكونوا علماء، مثلما كان **بويغ** الذي أنجز الكثير رغم قلة علمه، إنجازات لا قبل لنظيره الأوروبي بها، وهو الذي "سحقه بعلمه وبلغته اللاتينية الفصحى التي لم يكن يعرف منها إلا القليل"²¹⁷، لكن كل هذه المعرفة لم تكن تستغل إلا في الحوارات العقيمة عن شؤون الكنيسة وعن القضايا الدينية المجردة.

لا تعني هذه الدعوة إلى العمل وإلى التضحية كأولوية للكنيسة إهمال الجانب النظري، وإفريقيا نصيب من العمل التنظيري للمسيحية، بل ولها على الكنيسة الغربية فضل كبير. يتمثل هذا النصيب في أعمال شخصية إفريقية صارت أعمالها مرجعا

²¹⁶ – BERTRAND Louis, *Sanguis Martyrum*, Maison Alfred Mame et fils, Tours, 1918, p10.

²¹⁷ – *La Cina*, op.cit, p 422.

أساسيا في الديانة : **القديس أوغستين** Saint Augustin. فأعاد برتران بعث هذه الشخصية من خلال كتابة سيرتين له **القديس أوغستين** Saint Augustin **وحول القديس أوغستين** Autour de Saint Augustin .

لم يكن الهدف من هاتين السيرتين التعريف بالشخصية، فأوغستين غني عن التعريف في الأوساط الكنسية، بل إن المثقفين المسيحيين يتفخرون ويتبجحون بمجرد ذكر اسمه في كل مناسبة، وربما لم يقرأ له أحدهم في حياته حرفا واحدا. كان هدف برتران إعادة بعث فكر أوغستين والجانب العملي من حياته، أن لا يدرس كبقية من زمن مضى، بل كفكر يمكن به تجديد وإصلاح كنسية القرن العشرين كما جددها في زمنه.

ليس هنالك رابط أقوى بين الماضي والحاضر المسيحي لشمال إفريقيا، وبين الضفتين الشمالية والجنوبية للعالم المسيحي، من "قديس إفريقي لاتيني [...]" كان ذهنه مصدرا للأنظمة الدينية في الغرب"²¹⁸. وليس هذا فحسب إذ "لم يكن للقديس أوغستين نصيب كبير في العقيدة الحية لكل المعمدين فحسب، بل إن الروح الغربية مطبوعة ببصمة روحه"²¹⁹.

يدفعنا هذا الكلام عن الكنيسة وعن الديانة المسيحية ورموزها، وتمجيدها وإعطاءها طابع الملحمة، إلى التساؤل عن علاقة برتران بالكنيسة. فهو في بعض المواضع يجعلنا نعتقد أنه رجل دين بمعنى الكلمة، فهل كان كذلك ؟ أو كان على الأقل مسيحيا ملتزما ؟

لم يتلق برتران تعليما دينيا، بل درس الدين كمادة من المواد الدراسية في المرحلة الثانوية، وكان أستاذه رئيس أحد الأديرة في البلدة. لم تكن لهذا الأخير هيبة لدى التلاميذ ولا كانت له سلطة عليهم، بل كان محل سخرية واستهزاء. كانت هذه التجربة كفيلا

²¹⁸ – Louis BERTRAND, *Miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 131.

²¹⁹ – BERTRAND Louis, *Saint Augustin*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1913, p

بزعزة إيمان شاب من عائلة محافظة، كان يتردد في صغره على الكنيسة باستمرار من أجل البركة والصلاة، وكان ينتظر منها أن تكون مصدرا للسعادة بالنسبة له، وتعويضا عما كان يعيشه من عزلة، كما فصلنا في سيرته، أو على الأقل ملجأ له ومكانا وحيدا يمكنه فيه إثبات وجوده.

لم تمنح الكنيسة هذا الشاب الفار من قسوة الحياة والمجتمع أكثر من شعور بالمرارة، ولم يجد فيها التشجيع المعنوي الذي كان يأمله :

"أجدني مرغما بالفعل على الاعتراف بأن قساوستنا لم يفعلوا شيئا، لم يفعلوا إلا القليل ليجعلوني آنس إلى أداء تلك الواجبات (تلقى التعاليم والاعتراف بالخطايا) القاسية والمخيفة إلى حد ما"²²⁰.

بل وعاملته بقسوة وبعنف، وها هو يصف ذلك بقوله "كنت أساق إلى التلقين بقسوة وأتعرض إلى الإهانة في جميع الأحوال"، ويصف الشعور الذي تركته هذه القسوة في نفسه : "حتى في الكاثوليكية، لم أجد ما يحميني أو يشجعني أو يرفعني"²²¹.

جعلت هذه التجربة برتران يتبنى موقفا معارضا للكنيسة، معارضا لها بشدة، ومحملا إياها المسؤولية عن فقدانه لإيمانه وعن الشك الذي لازمه في عقيدته أربعين سنة.

يدفعنا هذا الموقف لنتساءل مرة أخرى عن ما جعل هذا الكافر بالكنيسة الكاثوليكية في الميتروبول، يمجدها في إفريقيا ويشيد بإنجازاتها وبتضحياتها الكبيرة في الماضي وفي الحاضر. فإما أن يكون منهج هذه الأخيرة مختلفا عن نظيرتها الميتروبولية، بحيث وجد برتران فيه ضالته، أو أنه كتب ما كتبه لعلمه بمكانة الدين في قلوب الناس وفعاليته في تجنيد وتحريك الجماهير، فأراد استغلاله أولا كحجة لإثبات نظريته اللاتينية، فيكون وسيلة

²²⁰ – *Une destinée I, Jean Perbal, op.cit, p 161.*

²²¹ – *Une destinée II, La nouvelle éducation sentimentale, op.cit, p 153.*

من وسائل المشروع الكولونيالي، أي من وسائل السيطرة. وهذا ما نرجحه، أي الفرضية الثانية، بناء على بعض المشاهد التي نجدها هنا وهناك في أحداث الروايات.

تشبه حالة برتران إلى حد كبير حكاية الصهاينة، كما نبهنا إلى ذلك وحيد بن بوعزيز، والذين رغم علمانيتهم وعدم التزامهم بتعاليم الديانة اليهودية، استغلوا هذه الأخيرة وجعلوا منها وسيلة لإقناع اليهود غير المتصهينين بالهجرة إلى فلسطين وإستيطانها.

دم الشهيد/ رواية ملحمة بامتياز، فهي مبنية على تمجيد القيم المسيحية وتجسيدها في شخصية البطل، القديس سيبريان أسقف قرطاج المسؤول عن شمال إفريقيا، الذي يقدمه برتران كرمز للتضحية بالمال والنفس في سبيل القضية المسيحية. ومثل الشخصيات الملحمية، المثالية في الغالب، يصف السارد سيبريان في أول ظهور له، في الصفحات الأولى، وكأنه ملك من الملائكة :

"كانت قبعته ذات الشكل المخروطي ملقاة إلى وراء ومشدودة بخيط أحمر، إذ لم تعد به إليها حاجة وقد غابت الشمس، وكانت أطرافها العريضة تشكل هالة خلف رأسه الأصلع. كانت جبهته العارية كبيرة جدا، ونظرته الحادة والثاقبة تلمح من بعيد الضمائر الشريرة"²²².

ويزيد من قداسة هذا الشخص تعامل أتباعه والمؤمنين بصفة عامة معه، يهرع هؤلاء عند لقائه إلى تقبيل قدميه وطلب البركات، أما هو فيتعامل بهدوء وحكمة المتعود على كل أنواع الاستعراضات. المتبركون، جنود وعمال وأناس بسطاء، يحدثون سيبريان بلغة راقية جدا ويستعملون مصطلحات وكلمات من السجل الكنسي قد لا تكون في متناول العامة من الناس. كل هذه المبالغات تجعل النص أحيانا يلامس التهكم.

²²² – *Sanguis Martyrum*, op.cit, p 17.

الفضاء الذي يتحرك فيه سيبريان ومرافقوه، هو طبيعة شمال إفريقيا الخلابة، عبارة عن معبد أو كنيسة مفتوحة يدعو كل شيء فيها إلى التأمل، وكل ما فيها بالنسبة لهذا الزعيم الروحي علامات إلهية ونبوءات مستقبلية. فإذا غرق ذهنه في تدفق الأفكار المتشائمة مثلا، أيقضته زقزقة البلابل، وبما أنها علامة على قدوم الربيع تفاعل سيبريان بمستقبل أفضل.

"تلج نباتي، حيث كانت كرات شجر الأكاسيا البيضاء تتدحرج قافزة بين الصخور ونباتات الآس المزهرة. كأنها طاولات تعמיד مبنية على حواف الجنان. وفي كل مكان رائحة الأصماغ ونباتات الخباز المحترقة بفعل الشمس، تطفو مثل دخان البخور (المستعمل خلال المراسيم الدينية)"²²³.

تحرك قافلة سيبريان المباركة عبر المدن الرومانية، يصفها برتران بدقة وبتفصيل يظهران اهتمامه ومعرفته بالتراث اللاتيني من جميع جوانبه، الهندسة والمعمار، الأدوات واللباس، العادات اليومية وطبائع الناس، يربط هذا أعمال الكاتب بعضها ببعض بشكل أقوى، ويؤكد الثابت الموضوعي فيها وهو إثبات لاتينية شمال إفريقيا مهما كان موضوع الكتاب.

يوجد في هذا الاتجاه أمر لا بد من التركيز عليه، وهو التشبيه والمقارنة بين ماضي البلاد وحاضرها، في كل التفاصيل، في هذه الرواية أو في جزئي سيرة أوغستين، لا يكاد برتران يذكر خاصية من خصائص الأرض أو الناس في العهد الروماني إلا ليشبهاها بالحاضر الاستعماري ليجعله يبدو أمرا طبيعيا وقدرا محتوما.

قافلة سيبريان التي تبدو القصة برحلتها كانت تقصد قرطاج، فالقديس كان سيترأس المجمع الكنسي الكبير الذي كان سيقام بها بمناسبة احتفالات عيد العنصرة، شغلت بال

²²³ – *Sanguis Martyrum*, op.cit, p 24.

سيبريان طوال الرحلة هواجس الأعداء والعراقيل التي تقف في طريق الكنيسة وتهدد إقامة هذا المجمع، كان يحمل خاصة هم المنافسين الكائدين الذين لم يتحملوا نجاحه ومحبة الناس له.

يحيل هذا الحدث القارئ مباشرة إلى **المونسينيور بويغ** والمجمع الذي ترأسه في نفس المكان (قرطاج)، منتصرا على الأعداء والمنافسين وعلى كل الصعوبات، إفريقيا المسيحية تعود من جديد بفضل تضحيات رجالها. وكأن قرون الطويلة لم تمر عليها، ولا الدول المتعاقبة التي يعتبرها **برتران** مجرد سراب عبر عليها، غطى صروحها الثابتة ثم انقشع وعادت هي للظهور تدعوا أبناءها ليعودوا إلى مجدهم السابق.

لقد ذكرنا ملاحظة، سنعود إليها في كل فصل من فصول القراءة في أعمال **برتران** لنعرضها في تجلياتها المختلفة، إنها فكرة تقدم المؤلف في العنصرية والتطرف كلما تقدم في السن وفي التجربة. وهو ما نجده في الصورة التي يقدمها عن الجزائري ثم عن العربي والمشرقي بصفة عامة، وفي تمسكه بالنظرية اللاتينية إلى حد غير معقول مثير أحيانا للسخرية كما سنرى في الفصل التالي، وتطرف يهنا هنا في الدين، أو بالأحرى في استخدام الدين وتوظيفه للهيمنة.

إن الأعمال التي ذكرناها إلى حد الآن عن المسيحية، عبارة عن تمجيد لهذه الديانة من خلال تمجيد عظمائها والآثار التي تركتها في شمال إفريقيا، يترتب عنه ارتباط يريد الكاتب جعله منطقيا بين فرنسا وإفريقيا باعتبارهما كانتا كيانا واحدا، سقط جزؤها الجنوبي في أيدي المخربين فحق للجزء الشمالي الذي لم تطله هذه الأيدي أن يسترده.

بعد هذا التسلسل المنطقي، والذهاب والإياب بين الماضي والحاضر، لإثبات الأحقية بامتلاك الأرض وتقرير مصيرها، يربط **برتران** الدين بالدنيا ويجعله مواكبا للحضارة الغربية ورافدا أساسيا من روافدها، ويصل الروحي بالمادي بحيث لا بد على

الدين أن يخرج من الكنيسة والدير وأن يكون واقعياً فيقتحم حياة الناس يومية، ولا يفرض نفسه بالتعبد والتضحيات فحسب، بل بالطرق الدنيوية المعروفة : الاقتصاد والعلم والسياسة.

يلجأ برتران في هذه المرحلة، التي يمكن أن نسميها مرحلة الوعي بالعدو، إلى التجسيد كذلك، تجسيد القيم والأفكار في شخصيات. تتجسد مرحلة الوعي بالعدو وبالتالي إيجاد الطريقة الأمثل للتعامل معه في شخص الكاردينال لافيغري، أول من شغل منصب أسقف للجزائر وكان المسؤول الأول عن المسيحية في شمال إفريقيا، وهو شخصية تاريخية معروفة تأتي في صدر قائمة عمال الاستعمار الفرنسي المخلصين والمجتهدين بعد الاحتلال مباشرة.

ركز برتران على لافيغري، وحرص على التعريف به وبإنجازاته في مقالات ومحاضرات وفصول من كتبه، وعن الدفاع عنه وعن مشروعه المثالي كما يبدو من خلال مرافعات برتران، فهو لا يأخذ عليه سوى إنسانيته المفرطة وطيبته التي لا يستحقها العدو. لم يخصص المؤلف كتاباً للكاردينال، وربما يعود ذلك لأنه لم يكتشف أفكاره ولم يطلع على آثاره إلى في فترة متأخرة من حياته، وهذا ما يصرح به في كتاب أمام الإسلام (أو في مواجهة الإسلام)، في فصل قوي ومعبر أصله محاضرة بمناسبة مئوية الكاردينال لافيغري - وهو عنوان الفصل.

بالإضافة إلى تكوينه المتين في مادة التاريخ التي درسها ودرّسها في جامعة السوربون، ومستواه الثيولوجي الذي أهله إلى العمل مدة ككاتب في الفاتيكان، فإن أهم نقاط القوة عند الكاردينال لافيغري، بالنسبة لبرتران، كان اقتحام الحياة السياسية والعامل الواقعي مع الأحداث. يشبه لافيغري في هذا أحد أبرز مؤسسي الجمهورية الفرنسية، وهو رجل دين كذلك، لم يفصل بين الدين والدنيا وجعل كلا منهما في خدمة الآخر بحسب ما تقتضيه الضرورة، ضرورة خدمة فرنسا، الكاردينال ريشوليو Le Cardinal Richelieu.

لا بد لمن يقتحم ميدان السياسة من الوقوع في بعض التجاوزات "غير الكاثوليكية"²²⁴ التي لا تليق برجل الدين، غير أن غاية خدمة فرنسا السامية تبررها بل وتجعلها ضرورية :

"أجبر ريشوليو على التحايل/الاحتيايل ليتوصل إلى خدمة الوطن والتحضير لتأسيس فرنسا الحديثة، كان على لافيغري أيضا أن يتحايل/يحتال من أجل خدمة البلد"²²⁵.

لا تقل إنجازات لافيغري عن إنجازات ريشوليو، لكن هذا الأخير حاضر في جميع كتب التاريخ الفرنسي، بينما هُضم الأول حقه، مع أن فرنسا القرن التاسع عشر لم تعرف "خادما أفضل ولا أكثر وعيا منه"²²⁶. لم يكن لقاء برتران ولافيغري الفكري والتاريخي إلا ليحدث، بحكم اهتمام الأب الروحي للأدب الاستعماري في الجزائر باللاتينية والمسيحية وآثارهما، وهو مركز الاهتمام نفسه لدى الأب الروحي للكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا. غير أن انبهار برتران بشخصية لافيغري وتقديره لكل أفكاره التي كانت مطابقة لما كان يعتقد جاء في الأساس بعد اطلاعه على الأعمال المختارة لقدااسة الكاردينال لافيغري أسقف الجزائر العاصمة *Œuvres choisies de son imminence le Cardinal Lavigerie, archevêque d'Alger*.

وبعد أن صارت هذه الأعمال نسيا منسيا، واختفت من المكتبات بعد أن لم تلق النجاح، حصل برتران على نسخة منها بعد بحث طويل انتشلها من تحت الغبار عند الناشر :

²²⁴ - غير كاثوليكي عبارة تستخدم في اللغة الفرنسية بمعنيين، معنى حرفي وهو ما ليس موافقا للمذهب الكاثوليكي في المسيحية، ومعنى دارج بمعنة ما يخالف الدين أو الأخلاق بصفة عامة وهو المقصود هنا.

²²⁵ - BERTRAND Louis, *Devant l'Islam*, Librairie Plon, Paris, 1926, p 82.

²²⁶ - *Ibid*, p 82.

"تلك الكتب المنسية المسكينة، كنت أقرأها بنهم شديد كأني ألتهمها. وكم كانت دهشتي كبيرة ! كنت أكتشف في كل صفحة تقريبا أفكارا كما هي، أكتشف نظريات إفريقيا. لقد صاغها **لافيجري** قبلي بزمان طويل، دون أن يكون لدي علم بذلك"²²⁷.

هكذا يعبر **برتران** عن علاقته الروحية بالكاردينال، وعن سبب التأخر في الاهتمام به وبأفكاره. مع أننا نجده حاضرا في رواية *لا سينا*، بصفته الشخصية التاريخية التي تركت آثارا تجعل كل من شغل منصب أسقف الجزائر بعدها يشعر بالخجل وبالحدس. كان الهدف الأول للمونسنيور **بويغ** إنجاز ما لم يقدر عليه **لافيجري**، لكنه ما تقدم في مشروع أو عمل إلا وجد سلفه قد سبقه إليه.

كان عمل **لافيجري** في تنصير شمال إفريقيا والتمكين للوجود الفرنسي فيها منقطع النظير، لهذا كان خطاب التأبين الذي ألقاه خليفة **لافيجري** في جنازته يشبه زفرة رجل وصل إلى نهاية طريق أنهكه السير فيه.

مع **لافيجري**، ينتقل **برتران** إذن إلى مرحلة تالية في تسلسل الأفكار عنده كأنه يسير وفق المنطق التالي : ضحى القديس **سيبريان** بنفسه من أجل الكنيسة في شمال إفريقيا، وأهدت هذه الأرض للمسيحية الكاثوليكية أحد أكبر مجديها، فثبتت أحقية الكنيسة بالأرض وأحقية الأرض بالكنيسة. ثم جاء العدو (الإسلام) الذي أراد أن يقطع هذه العلاقة القديمة المتجذرة ويسلب الكنيسة أرضها والمصلين فيها، فلم يكن بد من مواجهته، وأفضل طريقة في ذلك هي طريقة **لافيجري**، الذي نجح حيث فشل الجيش كما سنرى.

كان أول إنجازات **لافيجري** هو إنشاء تقليد صار ملازما للاستعمار الفرنسي في جانبه المعرفي، وكان **برتران** من أكبر المستفيدين منه، ألا وهو تقليد الأبحاث الأثرية في

²²⁷ – Devant l'Islam, op.cit, p 112.

شمال إفريقيا. كان الكاردينال في نظر برتران نبي إفريقيا الذي أعاد الحياة المادية والروحية إلى قرطاج وإلى الكثير من الكنائس الإفريقية القديمة. وحافظ عمال الكنيسة بعده على هذا التقليد إذ لم يكن في الجزائر المستعمرة راهب لا يهتم بالآثار وبالكتابات المحفورة عليها.

فيكون برتران بهذا تلميذا لأحد أكبر أساتذة السوربون في التاريخ المسيحي، والذي صار له في ذكراه المئوية في ساحتها تمثال من الرخام الأبيض يخلده. والكتاب الذي ذكرناه -أمام الإسلام-، والذي يتحدث عن هذه الذكرى وعن أعمال الكاردينال هو من كتب برتران المتأخرة، والتي تعبر عن تصور إمبريالي متكامل، بدأ يتبلور في مجموعة من الأفكار المحددة سيعرضها بعد ذلك في قائمة واضحة وصريحة عنوانها معنى العدو²²⁸. كتاب يعبر عنوانه ومحتواه عن نقطة اتفاق بين الكاردينال وبرتران هي إعادة بعث "الحرب الصليبية ضد الكفار"²²⁹.

شفى لافيغري غليل برتران وزاده ثقة في نفسه لما اعتبر المسلمين والإسلام عدوا أصيلا عداوته أبدية لا تزول ولا تتغير، وإن بدا في بعض الأحيان في حالة سكون أو سبات. عدو صار برتران يعترف بكون الحضارة -بتعبيره هو- في حرب معه وفي صراع على الأرض، في العالم وليس في الجزائر فقط، وهذا بعد أن حاول في كتاباته الأولى تجاهله، في ما يشبه النفي لوجوده تماما، خاصة في كتاباته الروائية.

"ليست المهمة السماوية، حسب لافيغري، الاكتفاء برد الجزائر إلى أصلها اللاتيني، بل اقتحام الداخل الإفريقي، وإلا فعل العدو الإسلامي اللدود ذلك"²³⁰.

²²⁸ - هو عنوان لأحد كتب لوي برتران الأخيرة، كتاب نظري جمع فيه أهم أفكاره وخلاصة تجارب حياته، سنعود إلى محتواه في الفصل الأخير.

²²⁹ - *Devant l'Islam*, op.cit, p 86.

²³⁰ - *Ibid*, p 100-101.

التطابق بين فكر الكاتين هنا شديد الوضوح، حتى في مراحل تنفيذ المشروع الاحتلالي : الرد إلى اللاتينية ثم محاربة العدو واتخاذ وضعية الهجوم وعدم الاكتفاء بالدفاع. لا يعرف معنى هذا العدو ولا يقدر خطره إلا من اصطدم به، وكان هذا حال **لافيجري** في أول رحلة له إلى المشرق، إلى الشام وفلسطين، حيث عاين آثار المذابح التي ارتكبتها الترك بتواطؤ مع العرب ضد المسيحيين في المنطقة، ومعاملتهم كأجانب "مع أن المسيحيين كانوا هنا قبل العرب والترك بكثير"²³¹.

وحال **برتران** كذلك بعد زيارته أيضا للمشرق، رحلتان طاف فيهما ضفاف البحر المتوسط ووثقهما في مجموعة من الكتابات يظهر من خلالها وصوله إلى قناعة تشكلت تدريجيا ثم ترسخت بأن : "الإسلام [...] هو المنافس العنيد للحضارة الغربية والملازم الحتمي لكل البربريات" فهو بالتالي "تهديد دائم للغرب المتحضر"²³².

هذا، حسب **برتران** ما يجب أن يدركه الفرنسي العادي الذي تعميه شففته وشاعريته الساذجة والإنسانية عن رؤية حقيقة العدو، ويزيده الأدب الرومانتيكي عمى، الأدب الذي ينتقده بشدة -في فصل آخر من *أمام الإسلام* عنوانه *إفريقيا* -notre Afrique- محملا إياه المسؤولية عن الترويج لتصور خاطئ عن ماهية الشرق، وماهية العربي، وماهية الإسلام. سنعود للحديث عن الموضوع في الجزء المخصص له.

كان تعامل **لافيجري** مع المستعمرة ومع الأهالي فيها مبنيًا على هذه الرؤية الدقيقة الواضحة التي يصفها **برتران**، وعلى المعرفة النابعة من تجربة ثرية -في المشرق وفي الفاتيكان- جاءت تتويجا لتكوين متين في مادة التاريخ. كان هذا كافيا ليعتبر **لوي برتران** سلوك كاردينال الجزائر العاصمة النموذج الأمثل الذي يجب على فرنسا أن تتبناه إذا ما

²³¹ - *Devant l'Islam*, op.cit, p 88,89.

²³² - *Ibid*, p 92.

أرادت إحكام السيطرة على المستعمرة أولاً، ولم لا التوسع أكثر، فهو نموذج أثبت أنه :
"ينجح الراهب حيث يفشل الإداري أو العسكري"²³³.

هذه الوسيلة، استخدام الدين، هي إذن الأكثر نجاعة لتحقيق الهدف، على أن يكون
بطريقة تجتمع فيها القدرة على الإدارة وعلى التنظيم مع القدرة على التأثير وعلى التجنيد،
وهو بالتحديد ما اجتمع لدى **لافيجري**، ومكنه من لعب ثلاثة أدوار بامتياز : دور
"الإداري"، ودور "المنظم"، ودور "الحواري".

²³³ – *Devant l'Islam*, page 102.

3. لوي برتران والنظرية اللاتينية أو رومنة²³⁴ شمال إفريقيا

سبق أن أشرنا إلى هذه النظرية التي يمكن اعتبارها قضية برتران الأولى بامتياز، القضية التي بدأت فكرتها مع أول كتاب به وتطورت إلى أن صارت محور حياة الرجل الفكرية والأدبية، ومؤداها أن إفريقيا كانت منذ زمن بعيد مقاطعة تابعة للإمبراطورية الرومانية، شيدت فيها هذه الأخيرة صروحا وحضارة تدل عليها آثارها التي لا تزال قائمة إلى الآن، كما أن عادات اللاتينيين القدامى ومظاهر حياتهم اليومية مازالت ملاحظة لدى سكان المنطقة.

بعد أن قدمت روايات الكادحين الفحول الأولى الاستعمار اللاتيني كعامل من عوامل التجديد في المستعمرة، وجد برتران رؤية تطمئنه ليختبئ خلفها وتكون غطاء لأفكاره الكولونيالية والعنصرية : الماضي الروماني للمنطقة.

النتيجة التي ستؤدي إليها هذه المقدمة هي أن لفرنسا، بصفقتها امتدادا للحضارة اللاتينية المسيحية وورثة لها، كل الحق في الاستقرار على هذه الأرض واستغلالها، بل وتقدير مصيرها. أي أن الاستعمار الفرنسي ليس إلا استرجاعا لحق مسلوب قديما.

قبل الخوض في الموضوع، لا بد أن ننبه في هذا السياق على استعمال أعلام : الجزائر، إفريقيا، شمال إفريقيا؛ على أنها مسميات لشيء واحد -مع بعض الزيادة أو النقص في المساحة- باعتبارات مختلفة، هكذا استخدمها لوي برتران وغيره من كتاب وباحثي الفترة الاستعمارية وسنستخدمها نحن كذلك بهذه الطريقة. الجزائر هي الاسم الحديث مقارنة بالاسم القديم إفريقيا، من الأصل اللاتيني آفريكا *Africa* وهو اسم المقاطعة الرومانية القديمة، وقد نضيف إليها "شمال" لتحديد الجزء المقصود من القارة.

²³⁴ - هي ترجمة للكلمة الفرنسية latinisation، والتي تعني فعل التحويل إلى اللاتينية أو الرومانية، الترجمة من: وحيد بن بوعزيز، "ثقافة المقاومة"، منشورات ميم، الجزائر، 2018.

في أعمال برتران يكاد لا يخلوا كتاب، بل فصل، وقد لا نبالغ إن قلنا صفحة، من ذكر أو إشارة إلى اللاتينية واللاتينيين، فإن لم تذكر في المدن وآثارها، ذكرت في عادات الناس وتقاليدهم، أو ذكرت الشخصيات والرموز التي تحيل إلى تلك الحقبة من الزمن، إلخ. لم نجد أحسن تعبيراً عن شغف برتران باللاتينية من مقال للكتاب الجزائري مورييس أوليفان Maurice Olivaint، في أحد أعمدة جريدة نشرات إفريقية Annales Africaine.

نشرات إفريقية هي جريدة أسبوعية سياسية وأدبية بدأت تصدر في الجزائر العاصمة في نهاية القرن التاسع عشر، لتنتقل ما يجد فيها من أحداث سياسية وما يصدر من كتب ومحاضرات ودراسات ونشاطات ثقافية. صدر المقال المذكور في العدد الثاني عشر من السنة الرابعة والثلاثين، بتاريخ 23 مارس 1922. وكان لوي برتران في هذه الفترة قد ترك الجزائر وصار يزورها في فترات متقطعة من أجل العمل، إلقاء محاضرات أو حضور فعاليات أدبية أو ثقافية أو الراحة لا غير.

هذا التاريخ يمثل فترة من حياة برتران كانت النظرية اللاتينية قد نضجت لديه، شرع في الترويج لها والدفاع عنها، من خلال الكتابة أو الخطابة، وبالغ في ذلك إلى حد مثير للسخرية. وهذا ما يدل عليه عنوان مقال مورييس أوليفان ومحتواه، الذين نجد فيهما نبذة تهكم حادة. وسم الكاتب مقاله بالصلصة الرومانية La sauce Romaine، وهو تشبيه يحيل إلى طريقة تعامل برتران مع الموضوع خلطه خطأ، وقلبه تقليباً، وطبخه طبخاً، مثلما يفعل الطباخ مع صلصته.

نبذة التهكم والسخرية فيها انتقاد لمبالغة برتران في معالجته للموضوع، كما أنها تنطوي على عدم رضا الأوساط الثقافية في الجزائر العاصمة عنه وعن طريقة عمله. يتأكد هذا الاستنتاج إذا عدنا صفحة إلى الوراء في العدد المذكور، فنجد مقالا بعنوان الأدب والصندوق الضخم Littérature et grosse caisse (أي صندوق المال)، ينتقد

الكاتب فيه استغلال بعض الأطراف لشهرة برتران لجعل الجمهور الجزائري (الأوروبيون طبعاً) يدفع ثمن الدخول للاستماع لمحاضراته.

يعارض كاتب الأدب والصندوق الضخم بشدة ما يسميه موضة جديدة، مستوردة من أمريكا، لم تكن الجزائر العاصمة تعرفها من قبل، "دفع المال من أجل الاستماع لرجل جاء ليقرأ صفحات مثلما يُدفع لعازف كمان أو لراقصة"²³⁵. بل إن الجمهور الجزائري معتاد على الاستماع لمحاضرات أهم بكثير مما يتحدث عنه برتران، ويلقيها محاضرون ليسوا دونه مكانة ولا سمعة دون أدنى مقابل. هذا بالإضافة إلى معارضته للأفكار المعروضة للبيع، ويحيل في التعبير عن رأيه على المقال التالي.

يعترف مؤلف الصلصة الرومانية بفضل لوي برتران على شمال إفريقيا الذي عليها أن تقر له به، فقد أثرى أدبها بروايات في غاية الجمال، ولم يصف أحد سكان المستعمرة مثلما فعل هو، فشخصيات مثل رافاييل وبيبيت المحبوب ستعيش إلى الأبد حسب أوليفان. لكن ثمة إشكالا وهو أن برتران "من كثرة تركيز نظره على اللاتينيين، لم ير وجود غيرهم في إفريقيا، ولم ينظر إلى العرب والبربر، وتجاهلهم إلى أن وصل في النهاية إلى الإنكار التام لوجودهم"²³⁶.

يستحضر مورييس أوليفان، للتعبير عن درجة المبالغة عند كاتب مهووس باللاتينية، أحداث قصة قصيرة ساخرة لكاتب فرنسي اسمه لابييش Labiche. وملخص القصة هو أن أحد علماء الآثار كان يرى في كل مكان يزوره أثرا من آثار الحضارة

²³⁵ – JAVELINE, *Littérature et grosse caisse*, in « Annales Africaines », Année 34, Numéro 12, 23 Mars 1922, p 703.

²³⁶ – *Ibid*, page 704.

الرومانية، بلغ به الهوس أيما مبلغ، إلى درجة أنه صاح يوما بمجرد أن دخل حديقة منزل : "أشتم رائحة الرومان ! المكان يفوح بعطر الرومان !" ²³⁷.

شرع الرجل مباشرة في التقيب ليجد بالفعل قطعاً من الأواني المكسرة، ثم يؤكد بعد تفحص إحداها أنها جزء من جرة لحفظ الرفاة، ثم رفع رأسه وعلامات التأثر بادية على وجهه قائلاً : "هنا كان يذرف الرومان دموعهم" ²³⁸. لم تكن تلك القطعة في الواقع سوى جزء من مزهرية كانت تزين المنزل من أمد ليس ببعيد، ولم يكن المكان الذي وجدها فيه سوى ركناً اختاره من الحديقة أحد الخدم العاملين في ذلك المنزل ليدفن فيه قطع الأواني التي كانت تتكسر أثناء قيامه بأشغال تنظيف البيت.

هكذا كان حال برتران مع اللاتينية، كما يلاحظ أوليفان وهو محق في ذلك، يراها في كل مكان، حتى إذا سجل ذات مرة طريقة بعض الناس في إلقاء التحية برفع اليد، انطلق في وصفها وربطها بالعادات اللاتينية، وهي لم تكن في الحقيقة سوى من عادات المسلمين، يواصل أوليفان الملاحظة ويقول متهمًا : "ألا يستعمل المسلمون أرجلهم للمشى، مثل الرومان تماماً" ²³⁹.

هذا مثال يقدمه الكاتب عن استشادات برتران للاستدلال على تجذر اللاتينية في الحياة الإفريقية والتاريخ الإفريقي، فالكثير منها هو من قبيل الموافقات البشرية وتأثر البشر بالبيئة، غير أنه يعتمد عليها في إثبات أطروحاته، وتعيّنه على ذلك مهاراته الفنية في الكتابة والوصف ولغته البليغة التي أشرنا إليها واعتبرناها نقطة قوته، يوافقنا في ذلك أوليفان وكل من يقرأ برتران.

²³⁷ – *La sauce romaine*, in « *Annales Africaines* », Année 34-Numéro 12, 23 Mars 1922, p 704.

²³⁸ – *Ibid*, p 704.

²³⁹ – *Ibid*, p 704.

تقوم النظرية اللاتينية إذن، وفي جزء معتبر منها، على أوهام وحجج واهية، وعلى أحكام مسبقة وانطباعات. هي تنطلق بالتأكيد من حقائق تاريخية ونتائج أبحاث موضوعية، غير أن هذه الحقائق تعمم وتضخم بشكل مبالغ فيه. لا تأتي قوة الحجة عند برتران إذن من الدليل نفسه بل من طريقة تقديمه، ومن مكانة الكاتب وسمعته. ويمكن لمكن له ملكة فنية ومكانة أدبية تعادل مكانة برتران أن ينقض أفكاره بكل سهولة. بل وأن يثبت عكسها تماما.

هذا نموذج من آراء بعض المعاصرين لبرتران، والذين لاحظوا تهافت حججه وأفكاره في حينها، أفكار إذا قرئت اليوم بدت إلى الخيال وإلى السخرية أقرب منها إلى الحقيقة، خاصة في بعدها العنصري. ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن هذه الآراء جاءت من داخل المستعمرة التي جعل برتران نفسه متحدثا باسمها، وليست من الميتروبول. لكنها أفكار شكلت في فترة من الفترات عقيدة بنيت عليها السلوكات الاجتماعية والبرامج السياسية. فنتساءل هنا عن الأسباب أو الظروف التي حولت، بتعبير رابح بلعمري، "الخرافة إلى عقيدة سياسية"²⁴⁰.

هذه الأفكار التي كان على الكتاب الجزائريين فيما بعد التخلص منها، فيما سماه أحد أبرزهم عملية نزع البرتراندية *débertrandiser* عن الأدب²⁴¹. وهو جون بومي Jean POMIER الذي يصفه موقع *الدائرة الجزائرية Cercle Algérieniste*، بأنه نبي الجزائرية. إذا كان برتران قد فتح الطريق أمام الجزائريين بالتعبير عن إعجابه بالشعب الجديد المفعم بالنشاط والمتسم الصلابة في الجزائر، فإن هؤلاء قد ابتعدوا عنه بسبب رؤيته الجزئية للوقائع، وبسبب العمى الذي سببه له شعوره مفرط بالانتماء اللاتيني. لقد

²⁴⁰ – Louis Bertrand : *Miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 234.

²⁴¹ – *Récits et nouvelles d'Algérie*, op.cit, p 14.

لعب بالتأكيد دور المستطلع غير أنه لم يكشف سوى عن لون واحد من ألوان الطيف الثقافي الجزائري.

لكن هذا الابتعاد لا ينفي دور برتران وفضله على هؤلاء الكتاب، بل هو من سيعطي لجيل كامل من الكتاب الدفعة القوية التي كانوا بانتظارها ويساعدهم على أن يعوا اختلافهم فاتحا بذلك الطريق للجزائرية. لعب معه ميزات هذا الدور لكنه لم يكن يمتلك نفس المكانة لأن نصوصه ليست صالحة إلا لداخل الجزائر، على خلاف برتران ونقتصر على هذا لئلا نعيد كلاما قلناه في فصل سابق.

قد يتناقض هذا التساؤل مع ما قدمنا ذكره عن نقطة القوة عند برتران، أسلوبه الجميل وقوته البلاغية وإبداعه الأدبي، وقد وجدنا أثناء قراءة أعماله صعوبة في فك رموزه لغتها المتينة وعذوبة في تذوق استعاراتها التي ترسم لوحات فنية في غاية الجمال. قد يفسر هذا نجاح برتران الأدبي أو رواج كتبه في السوق، لكنه لا يفسر استغلال السياسيين لأفكاره ولمكانته، وترتيب المواعيد والأماكن له لإلقاء خطابه ومحاضراته، ولا إرساله في مهمات تحقيقية بحثية إلى بلدان المشرق من طرف بعض الوزارات أو بعض المؤسسات المعتبرة مثل مجلة *العالمين* Revue des deux mondes.

نتلخص الإجابة عن هذا التساؤل في سببين أولهما الحاجة إلى البديل فيما يخص التعبير عن المستعمرة وعن حاجتها وانشغالاتها ومشاعرها، حاجة كانت في نهاية القرن التاسع عشر ملحة، والثاني خدمة هذه الأفكار للسياسة الاستعمارية الإمبريالية للإدارة الفرنسية، فاستغلتها وحاولت توظيفها.

الحديث عن الحاجة إلى البديل هو تنمة لحديثنا السابق عن استجابة الأدب البرتراندي لنداء المجتمع الجديد الذي يريد إثبات وجوده، وإيصال صوته إلى الميتروبول وتعريف ساستها ومتقفيها وعامتها بما هو "في الجزائر، الصلب والأساس : الجهد الباهر

الذي يبذله أبنائهما، إفريقيا الجديدة برمتها، التي جهزناها وزيناها بأيدينا"²⁴²، كما يقول برتران متحدثاً عن مهمته في مقال كتبه لجريدة *لوفيغارو* Le Figaro الشهيرة ونقلت نشرات إفريقية جزءاً منه، أتبعته برسالة لإحدى القارئات تنتقده بشدة سنعود إليها في محلها.

في الجانب الآخر من الساحة الأدبية، يصف أنصار برتران رجلهم ببطل الملحمة اللاتينية، ويرونه الرجل الذي أعاد الحياة إلى إفريقيا اللاتينية. ومع أن **لافيجري** كان أول من أنشأ هذا التقليد، إذ بدأ البحث والتنقيب في التراث الروماني، وسخر له إمكانيات كنيسته وكلف قساوسته بتسجيل الملاحظات وتحرير المذكرات حول هذه الأبحاث، إلا أن لوي برتران كانت له اليد الطولى ببناء أسطورة أدبية، لم تقتصر على إعادة الحياة إلى الجانب التاريخي والديني **لأفريكا Africa**، بل إلى عاداتها ونصوصها وأبطالها.

فحق **لرابح بلعمري** أن يصفه بـ "كبير المتحدثين باسم اللاتينية في المجال الأدبي" أو "مرتل قداس اللاتينية"²⁴³، ويقول تلميذه وكاتب سيرته الموسومة *لوي برتران الإفريقي* **موريس ريكور** Maurice Ricord :

"لم يمتلك أحد نفس القدر من الحب الذي امتلكه **لوي برتران** لما قام بجرد هذا التراث الأثري والتاريخي الثري، إنه أعظم عمل على الإطلاق -وهو ليس مجرد وصف عادي لمتاحف الهواء الطلق الجزائرية : شرشال وتيبازة [...]، لم ينجز أحد غيره ملحمة تلك المدن التي ليس لها مثيل ولا أعاد أحد غيره إليها قوة الحياة"²⁴⁴.

²⁴² – BERTRAND Louis, *Louis Bertrand et l'Algérie*, in *Annales Africaines*, Année 38– Numéro 37, 10 septembre 1926, p 590.

²⁴³ – Louis Bertrand , *Miroir de l'idéologie coloniale*, p 236.

²⁴⁴ – RICORD Maurice, *Louis Bertrand l'Africain*, 2° édition, A.Fayard, Paris, 1947, p 356.

في إجابة عن الإشكال الذي طرحناه حول سبب الدعم السياسي لأعمال برتران ونظريته، بل وتبنيها في اتخاذ قرارات كبرى فيما يخص المستعمرة، لا يذهب بلعمري في طرق ملتوية، بل يصرح مباشرة :

"كان المستعمر بحاجة إلى اعتماد من التاريخ ليجعل وجوده شرعيا، يجب أن يجعل التاريخ حليفا له. لكن كيف له أن يفعل لك دون أن يزور هذا التاريخ وأن يعطيه تأويلا يناسب قضيته، وذلك بإعادة كتابته [...]". لقد خدمت الفكرة اللاتينية المشروع الكولونيالي في تصحيحه للأحكام التاريخية، وذلك بإعادة توزيع الأدوار على الشعوب".²⁴⁵

كان السبب في تبني هذه الفكرة هو الخدمة الثمينة التي تقدمها للمستعمر بإعطائه الشرعية التاريخية، على الرغم من أنها مجرد سراب إذا ما كيلت بالميزان العلمي والنقدي. سراب هي الكلمة المحببة إلى برتران في وصف الشرق، نصفه بها هنا كإشارة عن الاضطراب في شخصية برتران، التي تسقط (بالمعنى التحليلي النفسي) أزماتها الداخلية على الطرف الآخر.

هذا المشروع الذي استحق به صاحبه كل هذه الألقاب الشرفية، والذي صار جزءا مهما من المشروع الكولونيالي الكبير، تم إنجازه على مراحل :

- فكان لا بد أولا من إثبات العلاقة الوطيدة بين الشمال والجنوب في العهد اللاتيني وأن أفريقيا لم تكن مجرد إقطاع أو مستعمرة بل مقاطعة رومانية بجميع المقاييس،

- وضع هذا التراث اللاتيني في مواجهة الحضارة الإسلامية وبيان تهاوي بناءاتها أمام صروحه الخالدة،

²⁴⁵ – Louis Bertrand : *miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 236.

- وفي الأخير بلورة نتائج هذا العمل لتشكل قاعدة تنطلق منها السياسة الاستعمارية لتوحيد الصفوف وشحذ الهمم وإقصاء الأهالي.

أما النقطة الصفر أو القاعدة التي بنيت عليها النظرية اللاتينية فهي كما بينا التقليد الذي أنشأه **لافيجري** والنشاط التنقيبي الذي وجده **برتران** في ذروة نشاطه لما قدم إلى الجزائر، هذا ما يقرره في تصديره لكتابه *مدن الذهب*، عنوان يركز على قيمة المدن الرومانية المكتشفة :

"لن أفخر بأنني اكتشفت إفريقيا الرومانية، فقد قام بذلك علماء الآثار والمؤرخون منذ زمن بعيد.

غير أنني أعتقد أنني منحت الجمهور صورة جديدة عنها، أو على الأقل صورة غير التي يقدمها العلماء، كما أنني أسهمت بتصور جديد عن شمال إفريقيا، والتي ليست في نهاية المطاف سوى مقاطعة إفريقيا الرومانية القديمة.

هذه الفكرة هي فكرتي، قمت بصياغتها وبسطتها مرات عديدة"²⁴⁶.

لم تكن هذه الصورة الجديدة أكثر من عملية غصب ثقافية، والطريقة التي تمت بها كانت عبارة عن إحلال هوية محل هوية أخرى عند الكلام عن تاريخ إفريقيا. ستحل الهوية اللاتينية، هوية المستعمر، محل الهوية الإسلامية، هوية المستعمر، فتكون الأولى هي الأصل، والثانية مجرد قشرة أو غطاء ما يلبث إلا أن يزول.

ونظرا لكم الكبير من الآثار اللاتينية المشتركة، والأبحاث المطولة التي كتبت عنها صار بإمكان المستعمر أن يصرح بأن "الرمز الحقيقي للبلاد لم يكن المسجد ومناراته، بل

²⁴⁶ – BERTRAND Louis, *Les villes d'or*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris 1921, p

هو الكنيسة وقوس النصر"²⁴⁷. هكذا في ربط دائم بين اللاتينية والمسيحية، وبين العربية والإسلام في خلط نلاحظه في استعمال هذه الكلمات، فتزد اللاتينية بمعنى المسيحية والعكس، ويرد العربي والمقصود كونه مسلماً، كما يقابل بين اللاتينية والإسلام وبين العربية والمسيحية، كما يقول هنا :

"كانت إفريقيا اللاتينية بالنسبة لي تخرق سراب الديكور الإسلامي الحديث"²⁴⁸

بناء اللاتينية إذن قديم لكنه متين، وبناء الإسلام حديث ولكنه مجرد ديكور قائم على قاعدة لاتينية سوف تلفظه لأنه لا يناسبها. يعطي كلام المؤلف الانطباع بأن سقوط الإسلام وحضارته القائمة في شمال إفريقيا لا علاقة له بالاحتلال ولا بنشاطاته التدميرية وسياساته الاستتصالية، بل إن الحضارتين تحمل إحداها في ذاتها أسباب القيام والأخرى أسباب السقوط والانحيار.

يقابل برتران بين المدينة الرومانية والمدينة الإسلامية، فيصف الأولى قائلاً :

"المدينة الذهبية كلها في الخارج، إنها خارجية وشعبية ومضيافة ومفتوحة ورحبة مثل الإمبراطورية. تفتح أبوابها ونوافذها على العالم الواسع. تمتلئ بالهواء والنور، يتحدث الشكل المتناغم لصروحها ومجرد منظر أعمدها وساحاتها لغة مفهومة يبدو أنها لغة العقل والجمال ذاته"²⁴⁹.

ويصف الثانية كما يلي :

²⁴⁷ – *Ibid*, p 9.

²⁴⁸ – *Les villes d'or*, p 30.

²⁴⁹ – *Ibid*, p 30.

"عجائبها بداخلها، كما أنها تتحدث لغة هيروغليفية، تبدو غريبة وفريدة وتتطلب تلقينا. منغلقة غيورة، تهمل العابر والغريب [...] باقي العالم بالنسبة إليها غير موجود، وإذا حدث أن غامرت بالاستيلاء عليه، فستلفه بكفن الصمت والموت الخاص بها"²⁵⁰.

الحياة والنور والانفتاح والسرور، مقابل الصمت والانغلاق والموت. لمن يجب أن يكون البقاء والحق في الوجود في النهاية ؟ يهدف برتران من خلال وضع المدينة الذهبية والمدينة البيضاء وجها لوجه، وكذا قوس النصر ومنارة الجامع إلى تخليص المنظر المعماري لشمال إفريقيا من الحجاب العربي، فيعيد إليه مكانته في التراث المعماري الروماني العام²⁵¹.

يتلخص الوجود الإسلامي في شمال إفريقيا في كونه مجرد غطاء خارجي، حجب الأصل اللاتيني جزئيا عن الأنظار بعد أن لم يقدر على هدمه، ولا على تشييد ما هو مثله : "ثم إن الفاتحين العرب لم يضيفوا شيئا إلى ما تركته روما من إرث : بل اجتهدوا في تدمير كل ما لم يفرض نفسه عليهم بقوة العادة و الطقوس. وبعد أن خربوا كل شيء، لم يقدروا على إعادة البناء؛ هكذا صارت البلاد التي فتحت، والتي لم يفعل المسلمون فيها شيئا سوى أن جعلوها معسكرا، بالنسبة للسياح اليوم عبارة عن متحف كبير كل شيء فيه باق على حاله، [...]"²⁵².

لم يقدّم الغزاة العرب، كما يراه برتران، البديل عن الحضارة الرومانية العظيمة، فهم لا يتقنون البناء ولا حضارة لهم. لا بد من فهم هذه الفكرة بربطها بصورة العربي في مؤلفات برتران -الروائية منها خاصة-، فإذا رأى القارئ التشويه هناك وكلامه عن العربي

²⁵⁰ – *Ibid*, p 31.

²⁵¹ – DRIDI Hédi et MEZZOLANI ANDREOSE Antonella, *Ranimer les ruines : l'archéologie dans l'Afrique latine de Louis Bertrand*, Les nouvelles de l'archéologie, n 128, Juin 2012, p 14.

²⁵² – BERTRAND Louis, *Jardin de la mort*, Ollendorff, Paris, 1905, page 7.

الوسخ، المستعد للنوم في أي مكان، ثم قرأ كلامه هنا قال: إن برتران محق، فكيف لأناس مثل هؤلاء أن يبنوا حضارة، بل إنهم قد دمروا حضارة، لا بد من أخذ الأرض منهم.

"لم يفعل المسلمون فيها شيئاً سوى أن جعلوها معسكراً"، يعني هذا أن القرون الطويلة من الوجود الإسلامي في شمال إفريقيا كانت عبارة عن مرور جيش بالمنطقة، وهيئت له الظروف في مرحلة ما الانتصار، والمعسكر ملجأ مؤقت ينصب في أرض المعركة ثم يرفع بعد نهايتها، هذا ما يتقنه المسلمون : القتال، لم يشقوا طريقاً ولم يشيدوا صرحاً، فليسوا أهلاً للبقاء.

يصف برتران الوجود العربي والإسلامي أو الشرقي بصفة عامة بأنه "سراب" un Mirage، فيتعامل معه بما تحمله الكلمة من معنى أنه يخدع الناظر إليه من بعيد فإذا اقترب خاب أمله، كما في الآية القرآنية : "كسراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً" (النور)، لكن السراب الشرقي لا يخيب أمل الناظر فحسب بل يثير سخريته.

الأمر المثير لسخرية أكبر هو كلام المسلمين المبالغ فيه إلى حد كبير عن إنجازاتهم، وفخرهم بصروح وهمية ليست في واقع الأمر سوى فوضى بصرية. نضرب على ذلك مثلاً بمشهد استهل به برتران أحد مقالاته -هو على الأرجح أولها- التي كتبها لمجلة *العالمين*، ونشرت في سلسلة تروي رحلته المشرقية الكبرى. عنوان المقال: *الواقع والسراب الشرقي*. المشهد هو ردة فعل المؤلف عند رؤيته أول مرة لأكبر رموز هبة الحاكم العثماني "الباب العالي" :

"بلغ التناقض والتناقض بين السحر المأمول وما كان أمام عيني درجة من العنف لم أستطع معها كبت الانفجار من الضحك الذي أصابني"²⁵³.

مسؤولية المبالغة في تضخيم واقع بائس وإنجازات حقيرة، مقارنة بالحضارة الغربية، لا تقع على عاتق المسلمين فحسب، بل هي مسؤولية الغربيين إذ يصدقونهم وكثيرا ما تنطلي عليهم الحيل والأخبار الخيالية، وليس ذلك لغبائهم أو لذكاء المسلمين، بل يقول برتران : "في الواقع، نحن، الغربيون الطيبون، من يخلق السراب الشرقي"²⁵⁴.

وفي هذا السياق، الكلام عن مدينة اسطنبول، تعود الفكرة التي طبقها برتران على شمال إفريقيا، الحضارة الرومانية تركت آثارا حاولت الحضارة الإسلامية محوها بإنجازاتها الرديئة، لكن الأولى بقيت مع قدمها وانهارت الثانية أمامها مع حداثتها. يتكلم برتران في المقال وفي مواضع أخرى عن معالم الحضارة البيزنطية، وعن آثار أجمل وأروع من أفضل ما عند المسلمين: المساجد، التي ما هي إلا سراب صنعه الغربي.

" العادات واللباس والمنشآت، مرة أخرى نحن من يقدر سحرها وجمالها ويخترعه. المساجد ليست روحانية في أي مكان، ولا هي منعشة ببهجتها ولا متألئة بسحرها أكثر مما هي عليه في كتابات روائيينا ورحالتنا"²⁵⁵.

خلال الكلام عن المعالم البيزنطية للعاصمة التركية، فإننا نجد اسم المدينة يتغير، ففي العبارة التالية، التي ينتقل فيها من الحديث عن الجزء الإسلامي من المدينة الذي لم يكن فيه شيء مثير للإعجاب سوى المسجد الأزرق، يقول:

²⁵³ – BERTRAND Louis, *La réalité et le mirage oriental*, dans : La revue des deux mondes, Année LXXVIII, Cinquième période, Tome quarante huitième, Paris, 1908, p 4.

²⁵⁴ – *La réalité et le mirage oriental*, op.cit, p 5.

²⁵⁵ – *Ibid*, p 6.

"خلال عطلاتي بالقسطنطينية، كانت لا مبالاة الأهالي بالمواقع المذهلة التي تمتلئ بها مدينتهم تفاجئني باستمرار"²⁵⁶.

بطبيعة الحال، هذه المواقع الأثرية المذهلة هي الآثار البيزنطية، حتى إنه يسمى المدينة باسمها البيزنطي وليس الحالي بعد أن صارت عاصمة دولة إسلامية. وهذه اللامبالاة تشبه عدم مبالاة العرب بالمواقع الأثرية اللاتينية المذهلة في شمال إفريقيا. لا تعبر إعادة إفريقيا اللاتينية أو رثاء اسطنبول البيزنطية على أكثر من قابلية الجزائر والمشرق للاستعمار: وتظهر الحلقة العربية-الإسلامية كمجرد خدعة بصرية في رؤية سلسلة التاريخ اللاتيني-المسيحي.

²⁵⁶ – *Ibid*, p 6.

**الفصل الخامس: مرحلة
تبلور المشروع والدعوة إليه
(1905-1917)**

1, أعمال لوي برتران، الوجه الجديد للأدب الكولونيالي

لقد مثل لوي برتران نقلة نوعية في تاريخ الأدب الكولونيالي المكتوب عن الجزائر خاصة في المرحلة الأولى، ثم عن الشرق بصفة عامة في مرحلة متأخرة. لم تكن النقلة على مستوى الموضوع فحسب، فمواضيع اللاتينية والمسيحية والعرق الجديد كانت جديدة في الأدب، بل كذلك على مستوى طريقة عرض هذا الموضوع وتناوله، ومستوى التعامل مع الآخر، وهذا هو الأساس في أدب كولونيالي لأن جوهره هو العلاقة بين المستعمر والمستعمر، وحسم الصراع بينهما.

إذا كانت أعمال برتران غير معروفة عند الجمهور العريض من المنتبعين للأدب الفرنسي، من الفرنسيين أنفسهم، ذلك أنها تعرض إلى التعتيم والحجب بفعل "نزعة المعادة للسامية عند برتران وميولاته التاريخية في تعظيم العنصر الجرمانى"²⁵⁷، فإنه عند المتخصصين في الدراسات الكولونيالية أو الأدب الاستعماري يمثل نقطة التحول في مسار هذا الأدب والأب الروحي لتياره الجديد، بل وعلامة على صيغة جديدة تحلّى بها العقل الاستعماري، ومنحى جديد للسياسة والفكر الذي أنتجه.

كان برتران على وعي تام بالتحولات الذي تحدث في فرنسا وفي العالم، بعد ما عاشه من أحداث في فرنسا، ثم ما عاينه وعاشه خلال تجربته، أو بالأحرى مغامرته الجزائرية، ثم رحلته الشرقية، فأيقن أن هذه التحولات الاجتماعية والسياسية لا بد أن يتبعها تحول في الفكر وفي الأدب، والبدائية لا بد أن تكون من تغيير تصور الفرنسي الساذج للعالم، أو بالأحرى للعدو.

الصورة التي يمتلكها الفرنسي الميتروبولي عن المستعمرة، هي الصورة التي كان ينقلها له الأدب الغرائبي الرومانتيكي، والتي اهترأت باهتراء الكليشيهات التي كانت

²⁵⁷ - "جدل الثقافة، مقالات في الكولونيالية والديكولونيالية"، مرجع سابق، ص 223.

تشكلها، بل صارت صورة كاذبة، أو على الأقل خاطئة مشوهة تغطط الرأي العام. ينقل برتران بدهشة كبيرة في المقال المذكور عبارة قالها له أحد الوزراء السابقين في الحكومة الفرنسية : "كم عددكم هناك ؟ خمسة عشر ألفا على الأكثر ! لا حاجة إلى كل هذا العناء"²⁵⁸.

لم يكن هذا المتحدث يعلم أصلا أن هنالك شعبا برمته يكافح من أجل إثبات الوجود وهو بالنسبة لفرنسا الدم الجديد الذي سيضخ في عروقه ليعيد إليها الحياة. يشترك في تحمل مسؤولية هذا الجهل بالواقع حسب برتران، بالدرجة الأولى، كتاب "الأدب منتهي الصلاحي" الذي صار "حتى الأعمى يرى عيوبه"²⁵⁹، ثم النقاد الذين لم يتحركوا ولم يحاولوا أن يفهموا، وإذا فعلوا فبعد فوات الأوان وكأنهم موجودون "ليضعوا أصابعهم على الأعين"²⁶⁰، يقول برتران ناقلا العبارة عن فلوبيير.

يأخذ برتران على النقاد اكتفاءهم بالتشابهات الواضحة والانطباعات السطحية في الحكم على العمل الأدبي وتصنيفه، فلا يتعمقون في التحليل لاكتشاف أصالتها ولا الدروس التي تقدمها والأفكار الأساسية التي تقوم عليها، وأهم شيء الرسالة التي تؤديها. ينتظر هؤلاء من الأديب -الروائي- أن يفعل مثلما يفعل لافونتين Lafontaine في قصص الحيوان، أي أن يقول بشكل مباشر، في بداية القصة أو في نهايتها : "هذه القصة تدل على، تثبت أن ..."²⁶¹

²⁵⁸ – Louis Bertrand, *M. Louis Bertrand et l'Algérie*, in « Annales Africaines », Année 38– Numéro 37, 10 septembre 1926, page 590.

²⁵⁹ – *Devant l'Islam*, page 130.

²⁶⁰ – BERTRAND Louis, *Le sens de l'ennemi*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1917, p 8.

²⁶¹ – *Ibid*, p 9.

أزعجت الكثير من الديانات والأفكار والتيارات الأدبية لوي برتران، على رأسها الإسلام الذي لا يمثل ألد الأعداء فحسب، بل هو مدار عداوته لبعض الأفكار والتيارات والمدارس الأدبية. مثلما هو حاله مع الرومانتيكية التي حاكمها في عدة كتابات، من أبرزها كتاب *أمام الإسلام*. لقد بينا في موضع آخر من هذه الدراسة أن برتران تطرق فيه إلى تعريف عدو الحضارة الأول (الإسلام) وحدد صفاته وخصائصه وطرق التعامل معه. ثم ورد في سياقات مختلفة ذكر الرومانتيكية على وجه الانتقاد والعتاب.

أبرز المواضيع التي ذكرت فيها هذه المدرسة الأدبية سياق الحديث عن إفريقيا وإسبانيا، وكان كلام المؤلف ونقده موجهاً إلى مبادئ الرومانتيكية وأفكارها بصفة عامة، وإلى بعض أعلام الرومانتيكية ممن تناولوا بالتأليف البلدان المذكورة، إيزابال إيبيرهارت وأوجين فرومونتان وتيوفيل غوتييه. وكان موضوع الانتقاد هو التساهل مع العدو وعدم تقديمه على صورته الواقعية، فإن هذا لا ينبغي في التعامل معه لأن "صمت الشرق فيه مكر وغدر"²⁶².

"العالم الخارجي بالنسبة للرومانتيكيين وتلاميذهم، يقول برتران، كتاب مصور ضخم يتصفحه الفنان بأصبع فضولية، لمجرد المتعة، وليمنح نفسه عروضاً أو أحاسيس غريبة. هذه الغرابة تصبح في نظر أحدهم علامة على الفن أو الطبع الراقي"²⁶³.

يعتبر برتران هذا الأمر غير مقبول، ويعد من العبث أن نجعل من الصور وغرابتها هدفاً للفن، فهو يمجّد الحياة المادية والعمل الشاق ويصف الواقع كما هو مع التركيز على الإنسان. أما ما يقوم به الرومانتيكيون فهو عبارة عن تشويه لهذا الواقع وفصل لأجزائه بعضها عن بعض. ويتعجب المؤلف من كون الكاتب أو الرسام الرومانتيكي لا يعرف شيئاً عن الغريب الذي يريد تصويره، لا عن تاريخه ولا عن بلاده، كما لا يعرف هويته ولا

²⁶² – *Devant l'Islam*, op.cit, p 129.

²⁶³ – *Ibid*, p 129.

قيمته ولا ما يمثل بالنسبة له ولا لبقية العالم، وعض أن يحاول هذا الفنان معرفة ما حوله، يقول بلسان حاله للغريب "إياك أن تحاول تشويش أو تكذيب الصورة التي كونتها عنك. أنا أراك بطريقة معينة، وستكون كما أراك وإلا لن تكون على الإطلاق"²⁶⁴. وبهذا يمكن لأي كان أن يدعي وصف أي شيء.

أما بعد رؤية "العرق الجديد" النور، واستقرار مجتمع المعمرين في الأرض مثبتين قدرتهم على استصلاحها واستخراج خيراتها وتعميرها، مجتمع حي يقابل مجتمع الأهالي الميت، مما جعل برتران يتساءل عن سبب انبهار جيل الرومانسيين بهؤلاء، فصار هذا الأدب، على حد تعبيره "منتهي الصلاحية" كما قدمنا.

يستثني برتران من هذا النمط من الفنانين فروموتان وإيبرهارت الذين اجتهدا في إعطاء صورة حقيقية للجزائر. وذلك "بفهم الجوانب الأساسية في البلاد، وتسجيل خطوطها وألوانها، ثم إعطاء الانطباع القوي والمنصف عنها"²⁶⁵. لكن الإشكال الذي يطرح عند غيرهما يعود لديهما، فهما يقفان أمام الأشياء ناظرين إليها بعين الغريب المنجذب والمعجب بما يرى.

يركز برتران في المثالين الذين ضربهما على نظرة المؤلفين إلى العربي على أنه غامض بالنسبة للأوروبي :

"كلاهما مقتنع بأن العربي لا يمكن فهمه/ قراءته indéchiffrable من طرف الأوروبي، وأنه يخفي في أعماق روحه مناطق غير مكتشفة وعجائبية. مثل تلك المساحات الصحراوية الخالية التي تحيط به. يعني هذا نسيان أن اللغز في كل مكان،

²⁶⁴ – *Devant l'Islam*, op.cit, p 130.

²⁶⁵ – *Ibid*, p 129.

وهو بنفس القدر في الأرواح الغربية والشرقية معا، وأن في الجملة إما مجهول وإما غير معروف على حقيقته²⁶⁶.

لم يعد اللعب على وتر الغرابة والتشويق ينفع حسب برتران، بل لا بد الآن من نقل صورة حقيقية للصراع الدائر على الأرض الإفريقية. وبتقسيمه اللغز إلى قسمين : مجهول أو غير معروف على حقيقته، لم يعد للأديب عذر في عدم تقديم العربي على حقيقته، أولا لأن خاصية الغرابة بدأت تمحوها بسرعة كبيرة الوسائل الحديثة، "وكالات السفر والسينما قتلتا الغرائبية"، وصارت إثارة الفضول في تقديم البلدان الأجنبية أمرا غير مجد. وثانيا، أن الأديب الاستعماري يتعامل مع عدو فإذا لم يعلم شيئا ما عنه وجب التعامل معه بحذر لا بإعجاب.

لا ينفصل الكلام عن علاقة لوي برتران بالتيار الأدبي الذي سبقه، الرومانتيكية الغرائبية، عن الكلام عن التيار الذي جاء بعده والذي كان هو المفجر الأول له. الهنات والعلل التي انتقدها برتران في كتابات من سبقوه إلى الجزائر، كانت هي بالذات سبب ظهور الأدب الجديد، فالأسس التي قام عليها هذا الأخير ما هي إلا تصحيح لأخطاء الأول. فما حوته الرومانتيكية من سلبيات، نجد عكسه كإيجابيات في الأدب الجزائري المعبر حسب برتران عن "وعي العرق الجديد بنفسه".

لا يرد برتران التيار الغرائبي برمته، فهو مع غرائبية جديدة تبناها بعض الكتاب الجزائريين، بل يهاجم الغرائبية القديمة التي تجاوزها الزمن، وهي في نظره :

"تشويه وتقطيع آلي لأوصال الواقع، فيا لها في النهاية من طريقة سطحية قاصرة، وكذلك وقحة وصبيانانية في الوقت نفسه لرؤية الأشياء"²⁶⁷.

²⁶⁶ – *Devant l'Islam*, op.cit, p 132.

²⁶⁷ – *Ibid*, p 130-131.

سطحية لأنها لا تحاول فهم خلفية الصورة التي ترسمها، ولا ما يحرك ما في الصورة، الشخصيات خاصة. تلك الطريقة في اعتبار الأهالي ديكورا ساكنا، والاقتصار في وصفه على الصورة النمطية، والكلشيهات المصطلح عليها عند "الرومي" Le Roumi²⁶⁸ الساذج كما يصفه برتران، الذي لا يستطيع مقاومة سحر كلمات مثل "الشرقي"، "الإسلام"، "المغرب"، وغيرها.

انتهى حسب برتران زمن معاملة الأهالي كأنهم مجرد خطوط وألوان يثبتها الرسام بريشته أو الكاتب بقلمه، وكأنه يقول لهذا الشخص الذي ينجز له بورتريه، أمرا له بأن يأخذ وضعنا معينا "أنا أراك بطريقة معينة، فإما أن تكون كما أراك أو لا تكون أصلا"²⁶⁹. متناسيا تماما ما يمكن أن ينطوي عليه هذا الشخص من شر وخبث.

تغيب هذه السريرة الخبيثة للأهالي، التي طالما أكد عليها برتران، عن ذهن الفنان الغرائبي، لأنه توقف عند الشكل واعتبر روح الأهالي، أو العربي أو المسلم، منطقة عجيبة لا يمكن للأوروبي استكشافها، فهو بمثابة اللغز الذي لا حل له، ومن الأفضل أن يبقى كذلك ليؤدي وظيفته الأدبية. هذه السطحية هي بالتحديد ما سيستدركه الجزائريون لامتلاكهم "حس العدو"، لأنهم عايشوه وكانوا معه في صراع مستمر على الأرض.

ويأتي القصور في هذا الأدب من جهة تجاهله التام لظهر العملة وللقطب الثاني الأنشطة والأهم من الواقع الجزائري، وهو المجتمع الأوروبي، المعمرون. ذلك أنه اعتبرهم فرنسيين ينطبق عليهم ما ينطبق على الميتروبوليين، فلا حاجة إلى الحديث عنهم. غير أن المجتمعين، الفرنسي الميتروبولي والفرنسي المعمر، لا يشتركان في أغلب الأحيان

²⁶⁸ - الرومي هي الكلمة التي لا زال الجزائريون يطلقونها إلى يومنا هذا على الأجنبي، الفرنسي خاصة، أصل الكلمة لغة هو النسبة إلى الروم، لكنها استخدمها صار أضيق، وخلال الاستعمار كان يطلقها حتى أوروبيو الجزائر على فرنسيي الميتروبول وهي تقترب في معناها من كلمة فرنساوي أو فرنكاوي التي أشرنا إليها آنفا، بدليل السياق الذي جاءت فيه هنا.

²⁶⁹ - *Devant l'Islam*, op.cit, p 130.

سوى في الجنسية واللغة. "آن الأوان أن يقف المعمر منتصباً في وجه الأهالي"، من خلال النصوص الأدبية، هذا ما قام به الجزائريون.

هذا التجاهل للمعمر، لأوروبي الجزائر يعتبر وقاحة في حقه، كيف لا وهو الذي يبني المستعمرة ويعرض نفسه كل يوم للهلاك، فإذا لم يأتِه الخطر من وعورة هذه الأرض التي يحاول تطويعها ومن قسوة مناخها، أتاه من جهة عدوه الأبدى (العربي) الذي لم يكن يمنعه من الثورة عليه إلا ضعفه المؤقت. وعوض أن يعينه الأدب على معرفة هذا العدو، يضيع الوقت في الإعجاب به.

الغرائبية الرومانتيكية إذن خطر على المجتمع الاستعماري، ويلخص ألبير ميمي موقف هذا الأخير منا بقوله أنه "في المستعمرة، تعتبر الرومانتيكية الإنسانية مرضاً خطيراً، بل هي أكبر الأخطار التي تهددها : ليست أكثر ولا أقل من كونها انضماماً إلى معسكر الأعداء"²⁷⁰. إذن إما أن يشارك الكاتب في المشروع الكولونيالي بكل صراحة، وبشكل مباشر، وإلا كان مع العدو، رغم الخدمات الجليلة التي قدمتها الرومانتيكية للحملة الاستعمارية. .

وأخيراً، رؤية الأشياء بتلك الطريقة الساذجة، دون الوعي بخطورتها هو السلوك الصبباني الذي يفتقر إلى الرشد بالنسبة لبرتران. لو كانت الصورة الساحرة التي قدمت عن الأهالي واقعية، فما على الفرنسيين إلا أن يرحلوا عن الجزائر. "بأي معجزة تحول القمل والقذارة والبؤس والبشاعة المثيرة للشفقة، والحماسة والهمجية الخالصتان، إلى أمر مثير للفضول"²⁷¹.

²⁷⁰ – MEMMI Albert, *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, préface de : Jean Paul Sartre, bibliothèque Payot, Paris, 1973, p 51.

²⁷¹ – *Ibid*, p 135.

ينتقد برتران إذن بشدة التساهل مع الأهالي وعدم احتقارهم، لأنهم ليسوا أهلا إلا لذلك. ويبدى عند تناول الموضوع عنصرية منقطعة النظير تبلغ الذروة، ويظهر جليا من كلامه في هذا السياق ما قد يخفى في سياقات أخرى، خاصة في النصوص الروائية، التي يغلب عليها المسكوت عنه le non-dit فيما يخص الأهالي. مما يدل على رسوخ عقيدة تفاضل الأعراق، وقدرية بقاء كل منها في درجته عند برتران، الذي يبدو أنه ريناني أكثر من رينان وغوبيني أكثر من غوبينو.

لقد حان الوقت لصناعة صورة جديدة للمستعمر، بل لنقل خرافة، يؤيد المستعمر بها موقفه ويعطي الشرعية التامة لجرائمه، ويضمن بها الهيمنة. يشبه ميمي هذا الموقف بموقف الصراع الطبقي حيث تقترح البورجوازية صورة للبروليتاري وتعمل على فرضها، يستدعي وجود المستعمر إذن صورة للمستعمر ثم يفرضها. هذه الصورة عبارة عن ذرائع سوف يبدو من دونها سلوك المستعمر عارا، وسلوك البورجوازي، بل سيبدو مجرد وجودهما كذلك. غير أننا سنكشف عملية التحويل إلى خرافة mystification بالذات لأنها تناسبهما تماما.

"سيكون إخضاع عرق مساو لنا أو سام علينا جريمة، وكذلك محاولة فرض حضارة قد لا تساوي حضارته عليه". على الأديب أن يبقى دائما على وعي تام بهذه القضية، قضية سمو "العرق الفرنسي الكريم"، مع "الدونية المستحقة والميؤوس منها للعرق الآخر"، وبالتالي أن لا يقع في فخ نشدان الجمالية الأدبية والأحكام المسبقة الإنسانية فيشوه الواقع.²⁷²

ستتعارض في هذه النقطة بالذات تصور برتران في الفصل الحاسم بين العرقين، اللاتيني والعربي، وقطع السبل أمام إمكانية الالتقاء بينهما، مع تصور الجزائريين، أبناء

²⁷² – *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, op.cit, p136.

الأرض الذين عايشوا العرق الآخر وفتحوا منفذا -ولو أنه ضيق جدا ومشروط- أمام إمكانية التعايش. الخضوع والتخلف قدر محتوم على الأهالي بالنسبة لبرتران، لكنهم عند روبير راندو مثلا قد يندمجون جزئيا في المجتمع الأوروبي إذا بذلوا جهدا وضحا ببيع المبادئ، يتعلق الأمر بالإسلام خاصة.

فكون هؤلاء -أوروبيو الجزائر- أبناء هذه الأرض، التي لا يعرفون غيرها، يجعلهم في نظر برتران يعرفون العدو تمام المعرفة، العدو الذي يتصوره في أبشع صورة، أما في الواقع فهم على وعي تام بأن العرب أغلبية عددية وأنهم أيضا أبناء الأرض فلا يمكن تجاهلهم إلى الأبد. تصور برتران جعله يقع في ما أخذه على التيار الغرائبي، تشويه الواقع وتصوير الآخر بناء على أحكام مسبقة.

في رواية *الجزائريون Les Algérienistes* لروبير راندو (1911)، يعيش في الجزائر العاصمة مجموعة من المثقفين تربطهم علاقة صداقة، منهم عالم الآثار والصحفي والإداري والأديب، وأحدهم مسلم يشتغل في الإدارة الاستعمارية ولديه ثقافة فرنسية محترمة، غير أنه لم يتخل كلياً عن تدينه وتقاليده. كان لهذا الأخير ابنة اسمها عائشة، رباها وفق مبادئ المدرسة الفرنسية فكانت نموذجا للمرأة العربية شكلا والفرنسية روحا، ولما بلغت سن الرشد فرض عليها ارتداء الحجاب فاستجابت، لكن لما أراد تزويجها على الطريقة التقليدية فأخذت الأمور منحى غير متوقع.

كان على عائشة الاستجابة لأمر أبيها طاعة له، أما الزوج فهو أحد تجار التبغ الكبار وكان فاحش الثراء، شيخ كرغلي أي ذي أصول تركية، له مكانة مرموقة في المجتمع العاصمي. لم يكن الأب ليقبل الرفض من ابنته، ولا كانت هي لتقبل بهذا الزوج، ففرت من البيت رفقة ضابط فرنسي شاب كانت تربطها به علاقة من قبل.

أي عار يمكن أن يلحق رجلا جزائريا مسلما هو أكبر مما وقع لهذا الأب الذي انتهك عرضه، خاصة وأن من فعل به ذلك فرنسي مسيحي. في حين رأى الأب أن الدنس الذي لحق عرضه لا يمكن لأظهر ماء على وجه الأرض أن يغسله، كان أصدقاؤه الفرنسيون يبذلون الجهد في إقناعه بأن الأمر عادي، وأنه حرية شخصية، إلى أن انتهى بتقبله. لم يكن ما يفصل المجتمعين بالنسبة لراندو العرق والدم بقدر ما كان الدين والتقاليد، فإذا تخطى عنها الأهالي أمكنه العيش في مجتمع أوروبي.

لكن التصور لم يخرج عن الإطار العنصري والنظرة الفوقية، فالطرف المطالب هو الأهالي المسلمون، أما الأوروبي فهو صاحب السمو والحضارة يرتقى إليه ولا يليق به أن ينزل إلى المستوى الأدنى. هذا أمر لا نقاش فيه. التعايش - بل الاندماج - إذن ممكن، ولو في إطار جد ضيق، لكن راندو يقر بأنها عملية صعبة - بل هي "معجزة" - لا تتحقق إلا في حالات استثنائية. هذا ما يبرزه هذا المقطع من الرواية :

"إذا كنت لا أرى الآن كيف ستكونون، أنتم الأهالي، يوما قادرين على مشاركتنا، فذلك لأننا لا نؤمن بالمعجزات، أي أننا أكثر من أن نكون ثوريين، وأنكم يا أصحابي، محافظون بذوقكم الصوفي : إن دينكم يحدد نظاما اجتماعيا لا نعرف كيف نتقبله : [...] نحن نطالب دوما بإشراق العقل وأنتم الغروب نفسه ... ثم ... وأنت تعترف بذلك، إن نيتكم في اتباعنا غامضة، وترتجفون خوفا من فقدان ما يجعلكم إلى اليوم متفردين ؛ لا زالت العقيدة غامضة في وعيكم"²⁷³.

روبير راندو مقتنع تماما أن ثقافة المستعمر تقترح قيما لا تعوض وأن الكتل الإسلامية إذا قبلت بالتعاون في العمل الاستعماري سيكون مستقبل الجزائر مضمونا. يعتقد كذلك، موافقا للوي برتران، أن النجاة تكمن في الحضارة المسيحية والديكارتية، والتي

²⁷³ – RANDAU Robert, *Les Algérienistes*, Sansot, Paris, 1911, p 5-6.

يمكنها لوحدها أن تخرج الشعوب المتخلفة من ليل ما قبل التاريخ. ليست فكرة راندو، والكثير من معاصريه من الكتاب، سوى انعكاسا لسياسة الإدارة الفرنسية، كما وصفناها في الجزء النظري من دراستنا هذه.

يجد راندو نفسه مجبرا -مهما كانت طموحاته في العمق- على التواطؤ مع إيديولوجية المعمر الجزائري. هذه الإيديولوجية المبنية على أساسين : معاداة اليهود والاستقلال عن الميتروبول :

يقول أحدهم في نقاش أثير في أروقة كلية الحقوق :

"أفضل الإلقاء باستقالتي، تنطلق نبرة نشار، على أن أقبل يهودا في مجتمعنا : إنهم يفصدون كل ما يضعون أيديهم عليه، إنهم يشبهون مرض الزهري يصيب الأعراق"²⁷⁴.

ويقول آخر محاجبا من أجل الاستقلال عن إدارة باريس :

"مصالحكم المحترمة لا تحترم ؛ كبار الموظفين في المستعمرة ليسوا أصلا جزائريين ؛ أنتم تتاسبكم المناصب الإدارية الصغيرة، ذات الأجور الزهيدة ؛ من هم أقرب الناس إلى الحاكم ؟ سمّاعون لمجلس الدولة، أحداث قذفوا في الإدارة بمجرد تخرجهم من كلية حقوق باريس، أجانِب ؛ يغترف هؤلاء بسخاء من الميزانية الجزائرية ؛ نحن نحافظ عليهم ولاء لفرنسا، إنهم لا ينفعون، بل يضرّون، ويديرون خيراتنا بطريقة ليس هناك أسوء منها"²⁷⁵.

لقد بدا التردد كثيرا عند راندو بين الانخراط التام في هذه الإيديولوجيا والنضال لأجلها، وبين تقبلها، أو السخرية منها لأنها تستند إلى العاطفة أكثر منها إلى العقل، لكن

²⁷⁴ – *Les Algérienistes*, op.cit, p 38.

²⁷⁵ – *Ibid*, p 41.

وجود المجتمع الجديد منوط بها. مع ذلك كان طرحه للقضايا، من خلال النقاشات بين شخصياته الروائية، واضحا وأكثر واقعية من برتران.

ما برتران فقد وجد نفسه مجبرا على التبرير وإيجاد المخرج للحكم البات الذي أطلقه على المجتمعين الأوروبي والمسلم، بأنهما عرقان لا يلتقيان حتما. عند إيراده مثلا لقائمة أسماء كتاب المستعمرة الشباب، اضطر لذكر **عبد القادر حاج حمو**، واحد من "الأهالي الأقحاح" *un pur indigène*. لكنه برر وجوده في القائمة وأنه لم يكن من بد في احتضانه، مع الخبث التي يتصف به، بأنه ينقل لنا شيئا من تلك الروح الماكرة والمخادعة لأبناء ديانتته²⁷⁶.

ولم يتوقف برتران عند هذا الحد من التبرير، فقد عز عليه أن يعترف بهذه السهولة، بل انطلق يربط ظاهرة بروز كتاب من الأهالي، واصفا إياها بالمثيرة للفضول، بخرافته اللاتينية الكبرى. لا يُتصور من الأهالي الذين يكتبون باللغة الفرنسية في نظر برتران، أو لا يُقبل منهم سوى أن يقوم بالوظيفة التي قام بها **حاج حمو**، كشف عيوب ونقائص المسلمين، أو بالأحرى الإسلام. يبقى مع ذلك الشك والريبة يحيطان هذه الظاهرة، يعبر عنه تساؤلان يطرحهما برتران :

"هل من الممكن أن يعود الإفريقي إلى الشكل اللاتيني، كما كان في الحقبة الرومانية ؟ هل من الممكن أن ينجز ما أنجزه أجداده قبل عشرين قرنا ؟"²⁷⁷

تساؤلات مطروحة على خلفية النظرية اللاتينية، التي تستلزم وصف الوجود الإسلامي الذي دام قرونا كذلك بالسراب الذي سينقشع لا محالة، لا بأس في أن نعيد هنا ملاحظة **بول سيبلو** بأن غير المقول (المسكوت عنه) أقوى عند لويس برتران من المقول ونعيد صياغة السؤال كما يلي : هل من الممكن أن يتخلص الإفريقي من الفكر والشكل

²⁷⁶ – *Devant l'Islam*, op.cit, p 143.

²⁷⁷ – *Ibid*, p 143.

العربيين الإسلاميين الذين فرضا عليه فرضا، مثلما تخلصت مدن الذهب اللاتينية من الرداء الأبيض الذي حاول المسلمون تغطيتها به ؟

تقتضي الإجابة عن هذا السؤال ربط الماضي بالحاضر، في تجاهل تام لأثر المرحلة الإسلامية بل لوجودها أصلا، فيواصل المؤلف كلامه عن الظاهرة مقتصرًا على الجانب اللاتيني من تاريخ شمال إفريقيا ليصله جغرافيا بالضفة الشمالية من المتوسط، فكما تشبه الهندسة المعمارية الرومانية، أقواس النصر والمسارح والمدن، الإفريقية نظيرتها الأوروبية، فإن من يلقي بالا للدقائق سيلاحظ حتما أن :

"القبائلي والموريتاني"²⁷⁸، ورجل الساحل أو حتى التل الجزائري، أقرب بكثير إلى اللاتيني النقي، إلى الإيطالي أو الإسباني، منا نحن الفرنسيين حيث العمق السيلتي Celtique القديم لا زال يجذبنا إليه"²⁷⁹.

لكن من يخلص مدن الذهب من غطائها ؟ ومن يعيد الإفريقي إلى أصله الأول ؟ لن يكون إلا الروح الفرنسية، بصفاتها العبير "الراقي والأرستقراطي" الحديث عن اللاتينية. وإذا تبنى الإفريقي هذه الروح، فإنه لا يتبنى روح المستعمر أو الأجنبي، بل هو يسلك الطريق الذي يعيده إلى الأصل وإلى المنبع المشترك الذي شرب منه "الأجداد اللاتينيون والعرب"، إلى "ذلك الاتحاد بين العبقورية اللاتينية والعبقورية الإفريقية التي منحت إفريقيا قرونا من الرخاء والعظمة لم تعش بعد ذلك مثلها أبدا".

لا يذكر برتران العربي عند الكلام عن أصول الإنسان الإفريقي، وهو تأكيد على كونه أجنبيا، بل يذكر القبائلي والموريتاني، وفي نصوص أخرى يذكر البربري. غير أنه

²⁷⁸ - ليس المقصود هنا النسبة إلى الجمهورية الموريتانية الحالية، بل إلى مملكة موريتانيا التي كان وجودها بالتزامن مع الإمبراطورية الرومانية في المغرب، من وسط الجزائر إلى جبال الأطلس جنوب المغرب، سكانها من البربر الأصليين ومن الرعاة البدو كانوا يسمون باللاتينية الموريس Mauris.

²⁷⁹ - *Devant l'Islam*, op.cit, p 143.

عند الكلام عن المنبع المشترك أقحم الجد العربي، ولعله يقصد أن إفريقيا القديمة ألهمت اللاتينية حتى في أوروبا، كما يجسد ذلك مثال القديس أوغسطين، وألهمت كذلك العرب الذين عاشوا على تركة تلك الحضارة.

لا يذهب برتران بعيدا في بسط فكرته وموقفه فيما يخص حالات التحاق بعض الأهالي بالكتاب باللغة الفرنسية من أوروبيي الجزائر، بل لم يزد على أن طرح السؤال دون أن يعطي إجابة شافية وواضحة عنه، بل كانت بالنسبة له مجرد فرصة للتأكيد مرة أخرى -وهو الذي لا يخشى الإعادة- على المهمة الحضارية وعلى مصداقية النظرية اللاتينية.

لا نجد الإجابة عن إمكانية عودة الإفريقي إلى أيامه الزاهرة أو تحقيقه لما حققه أجداده، بل نجد مجرد تأكيد على أن الحل موجود أمامه، ويبقى الشك مخيما على تلك الإمكانية، فإذا قرأنا باقي أعمال برتران وجدنا التأكيد على أنه لا يؤمن بعودته ولا يريد لها.

على الإفريقي أن يبقى فريسة للفرنسي، كما يعبر عن ذلك روبير راندو في روايته المذكورة، على لسان إحدى الشخصيات، عبارات ينقلها برتران معقبا عليها بأنه يجد فيها أفكارا عزيزة عليه، وأنه يشعر بالفخر الشديد عند قراءتها :

"أبناء الفتح (الاحتلال الفرنسي)، المسيطرون على الشعوب الفريسة les peuples de proie، سنكون تجارا مفترسين، مزارعين عنيدين، بحارة قراصنة إلى حد ما، لقد بنينا الفضاء aire الخاص بنا على إحدى الطرق الكبرى للأمم. نحن صبارون وحيويون، مثلما كان سادتنا الرومان في الأزمان الغابرة، ستقوم سياستنا على تقسيم العالم إلى جزئين : جزء يعود إلينا بحق القوة، وجزء آخر يستغله لحسابنا أناس آخرون. وإذا لم يصر هذا واقعا بعد، فليكن على الأقل حلما لنا ...!"²⁸⁰

²⁸⁰ – Les Algérienistes, op.cit, p 170.

بقاء المستعمر إذن مرهون ببقاء المستعمر فريسة له، وهذا يقتضي غلق كل منافذ المدينة الاستعمارية في وجهه، وهذا ما كان يدعو إليه برتران، بحكم كون المستعمر تهديدا دائما للوجود الاستعماري، ويعود للاستشهاد على ذلك إلى التاريخ الروماني، مرجعه الأول والأخير :

"يرغمننا وهم المساواة أن نجعل كل الرعايا فرنسيين، لقد ضاع كل شيء يوم أعلن كل رجل حر مواطنا رومانيا"²⁸¹.

سيضيع كل شيء إذن لو أعلن المستعمر مواطنا فرنسيا، سيضيع خاصة المشروع العزيز على برتران ورائدو، وهو مشروع الإدارة الاستعمارية الفرنسية بحكم كون رائدو ممثلا لها، لأنها وظيفته الأصلية التي شغلها في عدة بلدان إفريقية، أن يصير العالم ملكا لها، جزءا منها تجعله تحت سلطتها بطريقة مباشرة أو بالوكالة. آلية الإسقاط بين الماضي والحاضر، عمل الرومان قديما وعمل المعمرين في الحاضر يمنحهم الحق في الأرض كما يقول رائدو، أخطاء الرومان قديما التي لا بد أن يتجنبها الفرنسيون، مكنت المستعمر من التخلص من كل العقد وتبرئة نفسه من الكينونة الاستعمارية، ليس مستعمرا بل صاحب حق.

قد نجد التردد والوهن، والتناقض أحيانا، في الحجج والمبررات التي كان يقدمها برتران عن استحالة استيعاب، أو إدماج، الحضارة للأهالي، وعن دونيتهم القدرية، وحق فرنسا التاريخي في إخضاعهم ؛ لكن موقفه لم يتغير، فالأمر مستحيل وهو في الجزائر أكثر استحالة مقارنة بغيرها من المستعمرات، لأن المسلمين يرفضون "جعل أرواحهم في يد الفرنسي" رفضا قاطعا. تردده إذن في الحجج لأنه يجد نفسه أحيانا مضطرا لتبرير

²⁸¹ – *Devant l'Islam*, op.cit, p 195.

موقفه، موقف لا إنساني في الأساس، كما يجد نفسه أحيانا أخرى أمام وقائع تنقض كلامه فيتصرف.

في حالة عبد القادر حاج حمو مثلا، يطرح برتران احتمال عودة الإفريقي إلى أصوله اللاتينية، بشكل يجعله احتمالا مستبعدا ويجعله حالة شاذة لا يقاس عليها، وهي عودة جزئية بعيدة عن العودة التي يريدها برتران والتي من شأنها أن تصنع الحضارة من جديد. لكنه يحنّ استغلال هذا المسلم الذي يكشف عيوب مجتمعه كمصدر للمعلومات، تماما مثلما استغل الفرنسيون مسعود، الشاب الممتعض من سلوك مجتمعه الذي ساعدهم في احتلال منطقة التيطري.

لا نعلم مدى واقعية الأحداث التي تنقلها رواية الغزو Le Roman de la conquête، لكن برتران يتكلم عن خيانة الشاب لباي التيطري وساعد الفرنسيين في إحدى المعارك الصعبة، وفي غزو منطقة استعصت عليهم، كما يركز على سبب الخيانة الذي ليس إلا قصة حب، حيث حال الباي بين الشاب وحبيبته. يقابل مسعود، في نفس القصة، آميدي Amédée ابن الجنرال ديبورمون De Bourmont، الذي ترك خطيبته في فرنسا وجاء ليضحي بنفسه في معركة غزو الجزائر.

كيف يمكن المساواة بين من خان وطنه لأجل مصلحته الخاصة، ولأجل من ترك خطيبته في مشهد فراق مؤثر ومبك، ليضحي بنفسه من أجل وطنه. ثم إن مسعود لم يظفر من خيانتة بشيء إذ أن الفتاة التي أحبها رفضته فعاد ليلتحق بصفوف المقاومة لكن بعد ماذا ؟ وهل يمكن غسل أدران الخيانة ؟

من الوقائع التي قد تنقض كلام برتران عن الخبث والتخلف الجيني لدى الأهالي، زيارة لافيغري للأمير عبد القادر. الأمير الذي ما كان للمسيحيين سوى أن يكونوا ممتنين له بعد أن أنقذ حياة عدد كبير منهم في أحداث دمشق المعروفة، عبّر لافيغري عن هذا

الامتنان بتقبيله ليد الأمير وبثناؤه الجميل عليه فيما كتبه عن الزيارة التي قام بها كمثل
عن الفاتيكان. أما برتران فلا بد أن يخلط الاعتراف بالتحذير :

"قيم يتمثل بالتحديد تدخل الأمير ؟ من الصعب تحديد الإجابة. كرم كهذا، من
طرف مسلم متطرف، يبدو من البداية مربيا بما فيه الكفاية"²⁸².

ثم يقترح تفسيراً لهذا الكرم المريب، بأن الأمير قام بهذه الحركة الإنسانية تجاه
المسيحيين لأنه تذكر العناية التي حضي بها خلال فترة إقامته في قلعة أمبواز، واستعمل
كلمة إقامة résidence ولم يقل أنه كان سجناء ولا أن الأمير كان أسيراً. كرم الأمير إذن
هو من كرم الفرنسيين.

لم ينشأ إذن عزم برتران على احتقار الأهالي أمام الوقائع ولا أمام التناقضات التي
كان يجد نفسه فيها، وإذا وجد نفسه مجبراً على الاعتراف فعل ذلك بتحفظ وشك في
الدوافع والنوايا، ولم يزد كل هذا إلا تصلباً في موقفه وتعتناً، الموقف الغوييني والريناني
المتطرف. من بين ما يستشهد به على موقفه :

"العرق نتاج للأرض، للطقس وللترية، وهو أيضاً نتاج الدم : بحيث يصعب
استيعاب الأعراق. ولا أستبعد -مثل غوبينو- الاعتقاد بأن العرق كيان روحي وكذا
ميثافيزيقي، وأن هذا الطبع الأصيل غير القابل للاختزال يجعله مقاوماً لكل محاولة
للخلط"²⁸³.

من الوقائع التي تبين ثبات برتران لقاؤه خلال رحلته الشرقية الطويلة ببعض
المتقنين العرب، من الشباب خاصة، في القاهرة وحواره معهم. وأول ما أثار غضبه عند
هؤلاء، مع اعترافه لهم بالتعطش للتعلم وللثقافة الغربية، تبجح أحدهم -مصطفى كمال-

²⁸² - *Devant l'Islam*, p 121.

²⁸³ - BERTRAND Louis, *Une destinée IV : Sur les routes du sud*, 4^{ème} édition, A.Fayard,
Paris, 1936, p 218.

وفخره المبالغ فيه بماضي أجداده الزاهر مقابل التخلف والوحشية التي كان عليها أجداد برتران :

"كان أجدادنا متحضرين لما كان الغولّيون les Gaulois يعيشون مثل البهائم في غاباتهم"²⁸⁴.

يقول الشاب هذا الكلام بنبرة يصفها محاوره بالمتعالية، ومع أنها استفزته لم يجبه بشيء في تلك اللحظة، وكأنها ردة فعل الواثق من نفسه أمام أحق لا يعي ما يقول ولا أمل في إقناعه بالحقيقة البديهية التي يعبر عنها برتران بعد ذلك بنبرة المتهم :

"كانوا بعد آلاف السنين يريدون استعادة التقاليد، نعم، لكن في انتظار تلك اللحظة ! ... ياله من سقوط، ويا له من عزاء"²⁸⁵.

في انتظار تلك اللحظة، التي يفهم من كلام برتران أنها مستحيلة، تسعى هذه النخبة العربية سعياً حثيثاً وراء الثقافة الغربية، الحضارة الوحيدة في عالم بربري متوحش، لكن شباب هذه النخبة ليس مستعداً بعد لتلقيها وحملها، لا زالوا يحتاجون إلى تهيئة -أو ترويض-، وهذا ما اتفق فيه الموقف الإمبريالي لدى برتران ولدى اللورد كرومر Lord Cromer (القنصل العام الإنجليزي في مصر) وكان خلاصة اللقاء الذي جمعهما خلال هذه الرحلة.

بعد إقراره للنخبة العربية بالتعطش للتعلم ومحاولة اللحق بركب الثقافة والحضارة الغربية، مدفوعة بطموح كبير، يعود برتران إلى التشكيك في النوايا وطرح التساؤلات التي تعيدنا إلى موقفه الثابت. فما الذي يعنيه هذا السعي الحثيث، وما الذي تعنيه تلك

²⁸⁴ – BERTRAND Louis, *Une destinée III : Jérusalem*, A.Fayard, Paris, 1939, p 123.

²⁸⁵ – *Ibid*, p 123.

التصريحات الجميلة والحماسية التي كان يسمعها من شباب القاهرة عن الثقافة والعلم، وعن نهضة عربية قريبة :

"كانت لدى الأغلبية الكبرى من الشباب، الرغبة في الاستيلاء على الوظائف المربحة التي يشغلها الأوروبيون" ²⁸⁶ لا غير.

محل النزاع إذن بين برتران وبين من جاؤوا بعده هو طريقة التعامل مع الأهالي، ففي الوقت الذي بقي هو متشبثاً بموقفه الأول منهم ولم يزدده اطلاعه واكتشافاته في الرحلة الشرقية إلا عنادا، أبدى غيره بعض المرونة في تقبل الآخر، خاصة كما ذكرنا في غير هذا الموضع بعد الحرب العالمية الأولى، حيث كان للأهالي إسهام في النصر الفرنسي، واقتحامهم بعد ذلك للساحة السياسية.

لكن هذا الاختلاف الذي تعبر عنه عبارة نزع البرتراندية débertrandiser، لم يفسد بين أدباء الجزائر المستعمرة اجتماعهم على قضية واحدة، فما يجمعهم أقوى بكثير. يبقى الأهالي هم العدو المشترك بالنسبة للجميع، ومن يمكنه أن يقف في وجههم المعمر، بطل الغالبية الكبرى من الروايات التي كتبت في إطار الأدب الاستعماري. صفات هذا البطل كلها أيضا محل اتفاق، لأنها تجسيد لقيم المجتمع الاستعماري أو الشعب الجديد.

²⁸⁶ – Une destinée III : Jérusalem, op.cit, p 119.

2. الجزائري في نصوص لوي برتران

يركز الانتقاد الذي وجهه برتران إلى الكتابة الرومانتيكية أو الغرائبية عن العنصر المحلي في المستعمرات على إشكال رئيسي تتبني عليه بقية المآخذ، وهو أن هؤلاء اقتصروا على تصويره كشيء غريب مثير للإعجاب، ولم يعوا يوما خطورته ولا ما يمثله بالنسبة إليهم كفرنسيين. فأنجوا تلك الصورة المشوهة التي غلظت الرأي العام والسياسي الفرنسي زمنًا، وعطلت المشروع الاستعماري. فيطرح هنا السؤال عن التصور البديل الذي قدمه برتران تصحيحًا للتشويه الذي تحدث عنه.

في مقارنة بين رحلة أوجين دوماس Eugène Daumas ورحلة برتران، يعبر وحيد بن بوعزيز عن النقلة التي أحدثها الأخير فيما يخص التصور أو الطريقة التي يتعامل بها الأديب مع الأهالي، الجزائريين المسلمين، فيقول :

"فأوجين دوماس كتب نصوصه في بداية الاستعمار، في تلك الفترة ما زالت علاقة التعرف على الآخر ذات النزعة المسيطرة، تتبع طريقة الإنصات له واستنطاقه لاستبطان روحه. أما مرحلة برتران فالآخر استنفذ صوته لهذا لا بد من إفراغه من روحه بواسطة الوصف البراني الذي سيدرجه بعيدا عن السيكولوجيات وقريبا من الطبيعيات. الفرق بين ذكريات ورحلة دوماس وبين رحلة برتران أن الأولى ما فتئت تتعامل مع الأصلاحي عياديا (سريريا) أما الثانية فراحت تطبعه لتفرغه من إنسانيته تماشيا مع الأسطورة المؤسسة للاستعمار : الرسالة التحضيرية"²⁸⁷.

هكذا إذن كانت طريقة تعامل برتران مع الأهالي، مع من يسميهم العربي، المسلم، البيكو، المور، القبائلي في بعض النصوص والبربري في أخرى، أسماء يستعملها للدلالة على نفس الشخصية في سياقات مختلفة: وصف خارجي (براني) لهذا العنصر المجرد

²⁸⁷ - "جدل الثقافة، مقالات في الكولونيالية والديكولونيالية"، مرجع سابق، ص 224-225.

من الإنسانية لأنه نتاج الحضارة الإسلامية التي أبرز برتران همجيتها وآثارها المدمرة على شمال إفريقيا بعد أن بنت تحت حكم روما مدنا من ذهب، على هذا الأساس انطلق الحكم على الأهالي وعليه سيبنى وصفه. حكم مسبق لن يستثنى منه أحدا، معاملا إياهم كمادة لا كبشر.

ذكرنا مجموعة من التسميات لهذا العنصر، استخدمها برتران كلها سوى جزائري، فلو وصفه كذلك لكان مناقضا لأساس فكرته وهو اعتبار العرب والمسلمين أجنب عن هذه الأرض. وجود الجزائر مرتبط بوجود الاستعمار، فالجزائري بالنسبة لبرتران هو الفرنسي - بالأصل أو بالتجنيس- الذي يعيش في الجزائر، أما البربر والقبائل فكادوا أن يكونوا جزائريين، لأنهم ورثوا بعض خصال إفريقيا الرومانية، لولا تأثير الإسلام عليهم وتغييره لهم إلى درجة لم يعد معها من الممكن إدماجهم بل لا بد من إقصائهم. يستحضرهم برتران كمجرد دليل للوجود الروماني في الماضي.

يمكن ترتيب استخدام التسميات المختلفة في أعمال برتران، ترتيبا زمانيا وترتيباً بحسب السياق. ففي الكتابات الأولى كانت الصفة الأكثر ورودا هي صفة العربي، ودخلت صفتا بربري وقبائلي في مرحلة ثانية مع تبلور الفكرة اللاتينية لدى المؤلف، ثم دخل الكاتب بعد رحلته المشرقية مرحلة التعميم باعتبار المسلمين عدو الحضارة والأمة اللاتينية الأولى، فصار وصف مسلم هو الأكثر ورودا.

أما بحسب السياق، فتترد صفة عربي في سياق الاحتقار والإهانة، وقبائلي وبربري في سياق التدليل على الحضور اللاتيني، ومسلم في سياق التحذير من العدو. هذا

بالنسبة للمصطلحات الأكثر تواترا، أما مور *Maure* فلم يذكر إلا قليلا، مرة واحدة في دم الأعراق مثلا²⁸⁸.

في سياق الكلام عن النظرية اللاتينية، أوردنا الملاحظة التالية للكاتب الجزائري **موريس أوليفان** على أعمال المؤلف:

"من كثرة تركيز نظره على اللاتينيين، لم ير وجود غيرهم في إفريقيا، ولم ينظر إلى العرب والبربر، وتجاهل إلى أن وصل في النهاية إلى الإنكار التام لوجودهم"²⁸⁹.

ملاحظة فيها شقان، الشق الأول هو تركيز المؤلف على الحضور اللاتيني في إفريقيا، وقد بيناه في موضعه، ويقابل هذا التركيز تجاهل شبه التام للطرف الآخر الذي يشارك اللاتينية في هذه الأرض. بذل برتران كل الجهد في محاولة محو العنصر الأصلي في الجزائر، من عرب وبربر، من الوجود، ولم يصب اهتمامه سوى على العنصر الأوروبي، الذي ربطه عن طريق النظرية اللاتينية بالأرض بعلاقة لحم ودم اختلط بالتراب.

كانت هذه المنهجية التي سلكها برتران في كتاباته الأولى، الروائية خاصة، فلو بحثنا عن العربي في دم الأعراق مثلا أو لا سينا أو بيبيت المحبوب، فسنجد في المشهد المجموعة الكبيرة من الأوروبيين ليس بينهم سوى عربي واحد، اسمه **أحمد** أو **قدور**، لا

²⁸⁸ - 1، مور *Maure/More*: اسم مذكر وصفة. تاريخيا: عند الرومان كلمة تعني البربريين المستقلين، وهم في القرون الوسطى البربريون الذين غزو إسبانيا. 2. ما ينتمي إلى المملكة الموريتانية القديمة: المور ساكن أو وليد موريتانيا أو المغرب: كان مقهى المور واسعا بما فيه الكفاية، جميلا بما فيه الكفاية (جيد Gide). 3. كشعار، رأس المور، صورة لرأس زنجي، من الجانب، معصوب بوشاح مشدود عليه، وحصان رأس المور حصان روماني رأسه وأطرافه سوداء. **موريسكي Mauresque**: الصفة، كل ما يخص المور (مرادفاته: العربي، المسلم). 1. (1611) الموريسكية هي امرأة من المور. 2. رقصة كرنفال يؤديها أهل البروفونس من فرنسا أصلها عند مور إسبانيا. 3. تقنيا، رسومات على شكل أوراق من وحي الخيال تستعمل في الترصيع والزخرفة. 1125

²⁸⁹ - *La Sauce Romaine*, op.cit, p 704.

يتقن من العمل سوى تنظيف العربات والاصطبل وعلف الدواب. وما ذلك إلا لأنه كسول ومتذمر، ولا يحسن القيام حتى بهذه الأعمال البسيطة.

الأهالي في الصورة التي يقدمهم لنا عليها برتران عنصر غريب عن باقي مكوناتها، نوتة نشاز في معزوفة موسيقية متناغمة يعزفها الأوروبي. فإذا رأينا همة هذا الأخير ونشاطه، والأعمال التي يقوم بها من استصلاح للأرض وبناء وشق للطرق، إذا رأينا رافاييل يسوس دوابه ويقود عربته بمهارة ويتجاوب بسلاسة مع ظروف البيئة التي يعمل فيها ويتأقلم بسهولة معها، ورأينا ميشال وزملاءه يعيدون الحياة إلى المسرح الروماني في تبيازة بإبداعهم، تساءلنا ما الذي يفعله العربي هنا.

تحتل صفة الكسل والخمول المصنقة بالأهالي، يقابلها العمل الدؤوب والفحولة عند المعمرين، مكانة مركزية في جدلية رفع مقام المستعمر وإهانة المستعمر. ذلك أن برتران فهم المعادلة الكولونيالية : لا يمكن لشيء أن يسوغ امتيازات المستعمر أفضل من العمل، ولا لشيء أن يبرر حرمان المستعمر أفضل من كونه كسولا. سيحتوي إذن البورتريه الخرافي للمستعمر على كسل خارق للعادة. وبورتريه المستعمر على حب مثمر للنشاط²⁹⁰.

ينتهج برتران هذه الطريقة الإقصائية على الرغم من أن العنصر الذي يحاول محوه من الوجود يشكل الأغلبية الكبرى من سكان الجزائر المستعمرة، ولهذا لم يكن من المعقول أن يبقى متجاهلا لهم طول حياته. كان عليه في لحظة من اللحظات أن يعترف بوجوده، وهذا ما فعل، لكن الطريقة الجديدة التي انتهجها في التعامل معه تجعلنا نتمنى أنه بقي على سيرته الأولى. طريقة ستكون أكثر عدائية، وتكشف كما سنرى عن أن هذا الآخر كان مصدر قلق وهوس دائمين لدى برتران.

²⁹⁰ – *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, op.cit, p 109.

إن التعبير المستمر، الصريح أو المضمّر، عن القلق والخوف الذي كان يثيره العربي عند برتران ينم عن عقدة نفسية أصارها لديه هذا الأخير. عقدة نقسمها عند برتران إلى مستويين:

-يتمثل المستوى الأول في ما يسميه ألبير ميمي Albert Memmi عقدة نيرون ²⁹¹ Complexe de Néron التي يصاب بها الكولونيالي بصفة عامة، والتي تتمثل في فعل "أي شيء لتحويل عملية الغضب إلى عملية مشروعة" ²⁹².

-والمستوى الثاني خاص ببرتران وبالحياة النفسية الصعبة التي عاشها في صغره وفي فترة شبابه، والتي كان سببها الرئيسي ضعف بنيته وفشل أولى تجاربه الجسدية والجنسية.

في بسطه لمفهوم عقدة نيرون، يتساءل ميمي عن كيفية تحول عملية الغضب إلى عملية مشروعة، ويجب بإمكانية حدوث ذلك بطريقتين : "إثبات الأحقية البارزة التي يتمتع بها الغاصب، هي من البروز بحيث تستدعي هذه الجائزة ؛ أو التركيز على عدم أهلية المغصوب منه، فعيوبه من العمق بحيث لا يمكن أن تقابل إلا بعقوبة كهذه. لا يمكن في الواقع فصل هاتين الطريقتين. فقلق الغاصب وحاجته الملحة إلى التبرير يتطلبان منه أن يرفع نفسه إلى السماء، وأن ينزل المغصوب منه إلى أسفل من التراب في نفس الوقت" ²⁹³.

²⁹¹ - نيرون Néron، آخر الأباطرة الرومان من السلالة اليوليوية الكلاودية، حكم روما من 54 إلى 68، وأول من أضاف إلى اسمه لقب إمبراطور، اشتهر بطغيانه وبوحشيته، فقد قتل أمه وقتل أستاذه الفيلسوف سيناك وقمع المسيحيين، وقد اتهمهم بأشهر جرائمه وهي حرق روما الذي لم يبق إلا أقل من ثلثها، وما ذلك إلا لأن الإمبراطور أراد أن يبني روما جديدة تخيلها هو، وفي الوقت الذي كانت المدينة تحترق بأهلها جلس نيرون على شرفة برج عال معجبا بمنظر الحريق يعزف وينشد أبيات هوميروس التي تصف حريق طروادة.

²⁹² - *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, op.cit, p 82.

²⁹³ - *Ibid*, p 82-83.

هذا ما قام به برتران بالتحديد، وكأن ميمي يحول ملاحظة أوليفان التطبيقية المجسدة في أعمال عراب اللاتينية إلى فكرة نظرية مجردة تنطبق على الكولونيين دون استثناء. غير أن برتران يمثل هذه الظاهرة أو هذه العقدة في شكلها الخالص والمباشر، إذ أنه لم يحاول مرة أن يغلف أفكاره أو أن يلطف عبارته بل يعلنها بكل صراحة ويعبر عنها بشكل مباشر، لهذا نعتبره واضع أسس الأدب الكولونيالي في الجزائر. أسس أعيد إنتاجها فيما بعد بأشكال تتماشى مع المرحلة والظروف.

نؤكد هنا حكما كنا أطلقناه برتران، بأنه أكثر عنصرية من رينان وغوبينو. لقد قام بعملية التأسيس على أكمل وجه : من خلال التهمة التي يلصقها بالمستعمر، يؤسس المستعمر له ككائن خامل كسول في جوهره. وما العنصرية إلا عملية جوهرة (بمعنى التحويل إلى جوهر) لصفة حقيقية أو متخيلة في الموصوف، لصالح المتهم²⁹⁴.

أما المستوى الثاني من العقدة النفسية البرترانية، فيعود كما قدمنا إلى المعاناة التي عاشها لوي الطفل ولوي المراهق، بسبب ضعفه الجسدي وعدم قدرته على إثبات نفسه ولا التأقلم مع نمط الحياة الريفي الخشن والذكوري في قريته (سبانكور)، وهو الذي تلقى تربية ناعمة عند جدته وخالته. لم يستطع برتران تجاوز إحساسه بالإقصاء، ولم يزد انتقاله في المرحلة الثانوية إلى المدينة (بار لو ديك) ذلك الإحساس إلا حدة، أخذ فيما بعد مظهر شعور بالاضطهاد.

جعل هذا الشعور برتران يعيش فترة "طفولة فزعة"، و"مرحلة بلوغ شاقة"²⁹⁵، فبقي، بسبب ضعف بنيته وضعف شخصيته، منعزلا يرى بيئته عالما مغلقا يعيش هو خارجه، وصار مجتمعه المتسم بالشدة والفحولة عدوا له :

²⁹⁴ – *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, op.cit, p 110.

²⁹⁵ – *Louis Bertrand, Miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 28-39.

"لم أكن أحب الفوبور، لأنه كان يلخص بالنسبة لي كل ما في الحياة الريفية من البشاعة والهمجية"²⁹⁶.

ليس ما يسميه برتران بشاعة وهمجية أكثر مما كان يستمتع به زملاؤه من لعب في الغابة وتجول في سوق الحيوانات، والاحتفالات التقليدية التي كانت تراق فيها دماء الخنازير في الشارع. وهذا أخوف ما كان يخافه لويس الصغير، "التعاشيش الشاق" مع الحيوانات، كانت "مناكير الإوز وقرون الثيران تلاحقه حتى أثناء نومه". يظهر هذا الرعب في كتابات برتران عند تشبيهه أبغض الأشياء إليه وأكثرها شرا وهمجية في هذا العالم بالحيوانات.

فعند حديثه عن الماسونية يقول :

"بالنسبة لي ينكشف الماسوني ببعض العلامات الخارجية، فله مثلا ظهر كظهر ثور، رقبة مصاب بسكتة دماغية وعينان كبيرتان مليئتان بالدم"²⁹⁷.

أو عند وصفه لأسوء أستاذ درسه في المرحلة الثانوية :

"كان يثير في نفسي على الدوام ذعرا حقيقيا، و كأنه شيطان يسعى حثيثا إلى إلحاق الضرر بي. مجرد النظر إلى مظهره الخارجي كلن يجمدني. تحت التأثير المغناطيسي لعينه الخضراء الكبيرة ذات القرنية المخططة بالأصفر كنت ذلك العصفور الصغير الذي يتخبط تحت تأثير جاذبية الثعبان. [...] وما كان يعطيه تلك الهيئة المرعبة هو شعر لحيته الوحشي و شاربه و خاصة حدة عينيه الحيوانية"²⁹⁸.

²⁹⁶ – *Ma Lorraine*, op.cit, p 88.

²⁹⁷ – *Une Destinée II, La nouvelle éducation sentimentale*, op.cit, p 296.

²⁹⁸ – *Ibid*, p 47.

وهذا ما سيفعله مع الأهالي الجزائريين و يبلغ فيه الذروة، وهي المرحلة الثانية في الكتابات البرتراندية من حيث تناولها لهم، تمثلها بعض الإشارات في *بييت المحبوب* والرحلة الموسومة *حديقة الموت* وغيرها هنا وهناك من كتب برتران. في هذه المرحلة، وبعد أن لم يعد بإمكانه إنكار وجود الجزائريين كمجتمع، أو اختزاله لهم في مجموعة من الخدم (هم إلى العبيد أقرب) مشتتين هنا وهناك في أملاك المعمرين، انتقل برتران إلى تشبيه حياتهم بحياة أبشع الكائنات وأكثرها تخويفا في نظره : الحيوانات.

في سن المراهقة، زادت أزمة برتران النفسية تعقيدا، ولن يقدر على تجاوز الاضطرابات الناجمة عن النمو وظهور علامات البلوغ. ليجد نفسه مرة أخرى أمام عالم يوصد في وجهه أبوابه، ففي الوقت الذي يعبر زملاؤه بكل تحرر، وبكل عفوية وبساطة عن استيقاظ غرائزهم الجنسية، يجد هو نفسه قلقا ومنطويا، وعلى جهل تام بما يحدث من تحول في جسده.

ينقل برتران في مذكراته حدثا يعبر عن الحالة التي عاشها في هذه المرحلة، عندما كان في الخامسة عشر من عمره وأراد زملاؤه اصطحابه معهم لدخول بيت دعارة بهدف الاستكشاف، وفي الوقت الذي كانت المجموعة تستمتع فيه بالمغامرة المسلية والمثيرة، يقول برتران :

"أنا الذي كانت لدي الرغبة القاطعة في اتباعهم إلى النهاية، كما يقول، وجدت نفسي فجأة مشلولا، ويجب أن أقول مذعورا. رفضت الدخول [...] وفي الوقت الذي كانت المجموعة تقتحم الدهليز المشؤوم، تحت ضوء المصباح الأحمر الذي كان يلمع في نظري مثل عين شيطان، لجأت إلى عمود القنطرة لأختبئ [...] كنت أتعرض إلى اضطراب كبير، بين حركات فوضوية ومتناقضة. أحسست بالإهانة وبالأسى الشديد، أنا

طفل مسكين في الخامسة عشر، لأنني لم أستطع تقليد من يكبروني سناً، من اتباع "الكبار" ²⁹⁹.

إذا كان الجزائري مرتاحاً كل الارتياح في جانب من جوانب حياته، فهو بالذات الجانب الذي حرم منه برتران، العلاقة المنسجمة مع البيئة في حياة ريفية تعتمد على القوة الجسدية وعلى التعامل الدائم مع الحيوان. أما الحياة الجنسية فليس هنالك تعبير أبلغ عنا من خصوبة الجزائري ومن تعدد الزوجات الذي يجعله الغربيون بصفة عامة قضية كبرى. كان العربي إذن تجسيدا لأسباب تعاسة برتران في الحياة وشقاءه في المجتمع.

العقدة إذن نفسية، جسدية في أسبابها، ظهرت أعراضها في النصوص الأدبية. أعراض نجدها في خصائص وسلوكيات الشخصيات الروائية البرترانية، فحركة رافاييل وبيبيت وكارميلو وبيليسي تتلخص في فعلين : العمل في مهن شاقة تتطلب قوة هرقلية، سياقة العربات في طريق الجنوب أو الصيد أو الفلاحة، وممارسة الجنس، إذ لا ينتهي أحدهم من مغامرة حميمية إلا ليبدأ أخرى فالنساء يجرين خلفهم وليس العكس.

يركز برتران على هذا الجانب الجسدي بشكل مريب فلا يكاد يتحدث للشخصيات عن حياة روحية أو خصائص نفسية. هذا ما استنتجناه من خلال قراءتنا التحليلية، من غير حاجة إلى التعمق، لمجمل أعمال برتران. نجد إشارة إلى هذا الربط بين هذا الجانب المظلم من حياة برتران وخصائص شخصياته عند بلعمري، وهذا ما أكدته لنا كذلك جون روبير هنري (في لقاء معه في نوفمبر 2016)، بأن مشكلة برتران الأساسية مع العربي جسدية وجنسية.

قد يُورد على هذا الاستنتاج أن الخطاب الاستعماري مبني على المقابلة بين الأنا المسيطر والآخر الخاضع، ورفع الأول إلى أعلى درجات الكمال وخفض الثاني إلى أدنى

²⁹⁹ – Une Destinée II, La nouvelle éducation sentimentale, op.cit, p 47.

دركات الرداءة والتخلف. ولم يزد برتران على أن أعاد إنتاج هذا الخطاب، أو عبر عن عقدة نيرون مثله مثل غيره من الكولونيين وليس استثناء. فنجيب بأن هذا ما أكدناه سابقا، وبرتران لا يمثل الاستثناء بقدر ما يمثل الذروة التي يمكن أن يصل إليها هذا الخطاب.

بل نقول أنه شكل الاستثناء فعلا لما خرج بالخطاب من جانبه الفكري التقليدي، القائم على ثنائيات : المتخلف / المتحضر، إلى جانبه المادي الجسدي. لم تعد المهمة الاستعمارية مهمة حضارية فحسب بل مهمة جسدية فحولية واستجابة لنداء الأرض، هذه الأخيرة لم تعد مجرد محل للنزاع بل طرفا فيه، المستعمر والأرض ضد الأهالي الذي ما هم إلا دخلاء عليها لم تستجب لهم الأرض فلا هم زرعها ولا هم شيّدوا فيها شيئا، فانتظرت الأرض قدوم اللاتينيين.

وضع رابح بلعمري لأحد فصول كتابه عنوان الاستعارات الحيوانية في الكلام عن المستعمرين، وتطرق فيه إلى تقديم الأدب الكولونيالي للمستعمر في صورة حيوان. عنوان قد يكون مصدره ملاحظة فانون بأن "لغة المعمر عندما يتحدث عن المستعمر لغة زولوجية zoologique (حيوانية)"³⁰⁰. شكله شكل حيوان وسلوكه كذلك، وقدم أمثلة عديدة على هذه الظاهرة من نصوص مختلفة : ويليام شكسبير William Shakespeare وبيار لوتي Pierre Loti وبول بونتان Paul Bonnetain، للتأصيل للظاهرة في النصوص الكولونيالية، ثم لوي برتران الذي لم يخرج عن التقليد، مع بعض التغيير الناجم عن القاعدة التي بنى عليها أحكامه. فيقول المؤلف :

"لا يمكن بأية حال استخراج أنا وآخر للمستعمر من النظرة الكولونيالية، فليس هنالك في الجزائر مكان لإنسانيتين مختلفتين ولنوعين من الناس متميزين. القوة

³⁰⁰ – FANON Frantz, *Les damnés de la terre*, ENAG éditions, Alger, 1987, p 28.

الاقتصادية والسلطة، السحر والجمال كلها إذن امتيازات أوروبية. بقدر ما يكون المستعمر جميلا وفاتنا، يكون المستعمر بشعا ومنفرا. [...] إنها الثقافة مقابل الطبيعة"³⁰¹.

والواقع أن لوي برتران يذهب في تقديمه للمستعمر في تلك الصورة السلبية إلى أبعد من التشبيه بالحيوان، إذ يرى القارئ لوصف الأهالي، من أطفال ونساء ورجال وعجائز وشيوخ، تارة حيوانا أو حشرة وتارة شيئا أو عنصرا من عناصر الديكور وأخرى هيكلًا فارغا أو طيفا أو جثة هامدة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الكاتب يضع هذه الشخصيات دائما في إطار مكاني لا يسر الناظرين في شيء.

وتقول أوريليا دوسير Aurélia Dussere في مقالها عن لوي برتران لقاموس المستشرقين في وصفها لشخصيات رواياته التي تدور أحداثها في الجزائر : "وليس الأهالي سوى جزء من الديكور اللاتيني أساسا، مجرد أشكال ترى من بعيد، من دون شخصية ولا ثقافة"³⁰².

ليس هذا الموقف من الجزائريين سوى جزءا من ثاني حجتين كبيرتين للاستعمار ولبقائه الحتمي، ليس لصالح المستعمر فحسب بل في صالح الأهالي، فلو تركوا على حالهم لانتهت الحياة على هذه الأرض. أولى الحجتين هي كون المستعمرين روادا للحضارة، إذ يكفي النظر إلى البنايات والطرق والسدود لاستنتاج منتهم على المستعمرة، وحقهم في أن لا يساءلوا عما يفعلون. والثانية هي أن المستعمر مستفيد مهما حدث له، فلا يحق له المطالبة بشيء.

يقول شارل أندري جوليان Charles André Julien في مقدمته لكتاب بيار نورا :

³⁰¹– Louis Bertrand : *Miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 209.

³⁰² –POUILLON François, *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Editions Karthala, Paris, 2008. p 104.

"في هذا العالم الجزائري السحري الذي يتربع على عرشه المستوطن، المقاول ورجل الأعمال، لم يكن الأهالي يظهرون إلا مثل الكومبارس الذي لا اسم له، والذي يكفي أن نعلم بأننا نصنع سعادته لنألا نهتم لأمره"³⁰³.

عدم الاهتمام لأمر الجزائري هو ما يريد برتران تثبيته كموقف من خلال الصورة التي يقدمها عنه، مهما عانى ومما مارس عليه المستعمر من قمع وغصب للممتلكات واستغلال، إلخ. فلن يكون ذلك أسوأ مما هو عليه من جمود وحياة حيوانية.

ومن الأمثلة على هذا التصوير والإطار المكاني ما نقرأه في واحدة من قصص الرحلات التي ألفها تحت عنوان حديقة الموت *Le jardin de la mort*، يروي فيها برتران رحلة يبدوها من شرق الجزائر وجنوبها الشرقي ثم وسطها ويعود إلى الشرق، ومنه إلى تونس، ويصف الأماكن والأشخاص على عادته وصفا دقيقا بليغا في ألفاظه واستعاراته وأسلوبه متحدثا بضمير المتكلم. عنوان الحكاية يطلقه السارد في الصفحة 34 في سياق وصفه لشعوره وهو على مشارف مدينة بوسعادة فيقول :

"يدخل رأسي الذي سيفجره الحر في حالة هلوسة وتيه، يخيل إلي أنني أدخل حديقة الموت"³⁰⁴.

وخلال رحلته في هذا المكان الرهيب يأتي وصف الشخصيات التي تتحرك بداخله مؤكدا لمعنى الاسم ولمطابقته للمسمى. ففي حديقة الموت لن يجد لوي برتران بطبيعة الحال سوى الموتى فيصفهم قائلا : "على الرصيف يرقد بعض العرب، مغلفين في برانيسهم، جثث حقيقية يبست في أكفانها"³⁰⁵.

³⁰³ – *Les Français d'Algérie*, op.cit, p 24.

³⁰⁴– BERTRAND Louis, *Le Jardin de la mort*, Ollendorff, Paris, p 34.

³⁰⁵ – *Ibid*, p 38.

وتتناغم هذه الأجساد الفاقدة للحياة مع الديكور تناغما يجعلها تبدو أشياء لم تدب فيها حياة قط. "متوارية في أكوام من الملابس المغبرة، بلا حراك مثل الصخرة العارية الحارقة التي ينامون عليها، تنتظم الأجساد الممددة في خط واحد. إنهم أهالي يقلون ويتمتعون بذوق كسلهم، ولو لم تظهر جلود أرجلهم السمراء البادية من أسفل البرنوس تمد أطرافها المترية تحت الشمس الحارقة، لقال الناظر إليهم أنهم أكوام من الخرق البالية المرمية هنا وهناك"³⁰⁶.

لا يحاول الأهالي مقاومة الموت أو الطبيعة القاسية، ولا يستسلمون لها فحسب، بل و"يتمتعون بذوق كسلهم". فوافقت الطبيعة المادية الطبيعة النفسية لهؤلاء. وهذه هي الصورة الأولى التي يقدم الكاتب الجزائريين عليها، على هيئة الساكن الخامل الفاقد للحركة. وعندما يركب المسافر برتران العربية، بحيث يجلس هو بجانب السائق ويتكدر الأهالي في الخلف إلى درجة أن "لا يستطيع أحدهم تحريك رأسه"، يلاحظ. قدما معلقة على يمينه وتلمس أحيانا كتفه :

"الساق التي تحمل هذه القدم تبدو قطعة خشب ميتة. جلدها أسمر ويابس تطويه ألف تجعيدة ذات قشور تمر من خلالها خيوط بيضاء من الوسخ. إن رؤية هذه القدم مهلوسة، كأنها قدم مومياء عريت من الشريط الذي يلفها"³⁰⁷.

أما الصورة الأخرى فهي صورة لجزائري يتحرك، "في لحظة واحدة ترتفع البرانيس، ويخرج منها الكثير من الزوايا ومن أسفل الجدران ومن عتبات الأبواب"، المتحرك هو البرنوس وحركة الارتفاع والخروج تبدو من خلال الوصف خروج دواب أو حشرات من جحورها. ثم يتنبه برتران إلى أن "حزم الخرق البالية التي اتحد لونها تحت ضوء الشمس

³⁰⁶ – *Le Jardin de la mort*, op.cit, p 40.

³⁰⁷ – *Ibid*, p 22.

مع بياض الجدران الجبسية" كانت "تخفي أشكالاً بشرية"³⁰⁸. والأشكال البشرية المذكورة في هذا السياق قبائليون في طريقهم إلى برج بوعريريج للعمل في موسم الحصاد.

وغير مكتف بما سبق، يحشد لوي برتران في عدد قليل من الصفحات والأحداث مجموعة كبيرة من الصور الأسلوبية³⁰⁹ التي تجعل ممن لقيهم حيوانات (سنشدد على الكلمات والعبارات الدالة على ذلك)، حيث يصف انطلاق العمال القبائل عند وصول العربة التي ستقلهم و إياه كما يلي:

"ثم تتطلق فجأة تلك الطاقات التي تجمعت وسخنت تحت الشمس خلال فترة القيلولة. انفجرت روح الإفريقي الطفولية والبربرية محدثة ارتجافات مسعورة في أعضاء الجسد، وانقباضات وحشية في الوجه. ترتفع الأذرع وتتقبض الأيدي، تنتفخ حبال الرقبة وتشتعل حدقات الأعين، وتتنثني الشفاه كاشفة عن أسنان تصطفق تحت الشارب مثل قواطع كلب يتأهب للعض"³¹⁰.

يتدرج لوي برتران في هذا الوصف في الاحتقار والازدراء، من الطفوليين وبربريين، ثم مسعورين ووحشيين، و يتوج كل ذلك التشبيه بكلب على وشك أن يعض.

من الممكن أن تكون الاستعارة الحيوانية مجرد مؤثر جيء به لمفاجئة قراء يشتهون الغرائبية، لو أتى بها أحيانا وفي مواضع معينة. لكنها متواترة ومنتظمة الاستعمال، ولا يمكن - كما يستنتج رابح بلعمري - لتواترها إلا أن يخبر عن حالة ذهنية. حالة الأوروبي الذي لا يتقبل "الناس والثقافات إلا بناء على مقاييس وشروط وضعها المجتمع الذي

³⁰⁸ – *Le Jardin de la mort*, op.cit, p 45.

³⁰⁹ – عبرنا بالصور الأسلوبية *Figures de style* لأن النص مكتوب بالفرنسية، و تشمل هذه التسمية البيان و البديع والمعاني. وتشمل هذه الصور ثلاثة أقسام: الصور البيانية *Figure de pensée* (من استعارة وتشبيه وكناية وتشخيص)، والمحسنات البديعية *Figures de mots* (من سجع وطباق وتدرج وغيرها)، وصور البناء *Figures de construction* (الحذف والتقديم والتأخير وغيرها).

³¹⁰ – *Ibid*, p 46.

يعيش فيه. لذا فإن خصائص وأخلاق وقيم المستعمر، المختلفة عن خصائصه وأخلاقه وقيمه والتي لا تستجيب لمعاييرها الجمالية والأخلاقية، تصبح في نظره مريبة ومثيرة للسخرية. لا ينفصل غياب النسبية هذا عن المتطلبات الإيديولوجية للاستعمار، بحيث يمثل الاعتراف بالمستعمر كإنسان يستحق الاحترام إدانة غير مباشرة لوظيفة المستعمر، صاحب الإنسانية الحقيقية والوحيدة وصاحب الاستعمار³¹¹.

من التواتر الذي نتحدث عنه عودة الصورة الحيوانية مرات عديدة في الموضع الواحد وفي القصة الواحدة، ومنه التصاق هذه الصورة بالجزائري أينما ذكر، فهما مستويان:

في المستوى الأول، تنتمي للمثال السابق، يرى برتران "قطيع البؤساء يطؤون الأرض" أمامه. فيشبههم في "نحافتهم بتلك الأحصنة الهزيلة المجموعة لتجر عربة". وهم يضعون على رؤوسهم "مناديل ملونة يديرونها حول رؤوسهم ويعقدونها في مقدم الرأس لتشكل قرونا"³¹².

ويستمر في الملاحظة فتقابلها، لما يستدير وراءه في مقعده الأمامي، "أرجل مماثلة وأذرع و أيدي قرنية تتدلى"³¹³.

يبني لوي برتران صورة الجزائري شيئا فشيئا، رأس وحش وأسنان كلب وأيادي وأرجل قرد وجسم هزيل، ويضيف في موضع آخر أنه "يهمهم"، ولا يقول يتكلم. هذا الكائن الغريب نائم طول الوقت، وإذا استفاق ود الناظر إليه أنه لم يستفق. كائن يعيش ويتحرك في القطيع، على خلاف برتران الذي يجوب الجزائر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بمفرده. وكما أن أفراد القطيع لا يختلف بعضها عن بعض، فإن الجزائريين عندما :

³¹¹ – Louis Bertrand : *Miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 213.

³¹² – *Le Jardin de la mort*, op.cit, p 47.

³¹³ – *Ibid*, p 22.

"بدأ عامل البريد عملية المناداة الاسمية للمسافرين" انطلقوا "مجموعات"، أرى قطع البؤساء يطؤون الأرض أمامي. تحسب أكثرهم من نحافتهم تلك الأحصنة الهزيلة المجموعة لتجر عربة. وتتحرك أرجلهم النحيفة الضعيفة تحت قماش القندورات القطني الرقيق، ويمكنني أن ألمح من خلال فتحات الإبطين بروز الأضلاع التي تبدو دون لحم وكأنها أضلاع هيكل عظمي. وليس على رؤوسهم شيء سوى مناديل ملونة يديرونها حول رؤوسهم ويعقدونها في مقدم الرأس لتشكل قرونا"³¹⁴.

في مواضع أخرى، وفي نفس سياق الهمجية والفوضى، يشبه برتران الجزائريين بالحشرات، وتحديدًا بالقمل الذي يحيل ذكره إلى معنى الغليان والكثرة، بالإضافة إلى التطفل، مما يدل على قوة جرعة الرهاب من العرب لدى الكاتب. هذا مشهد بداية رافاييل (نعود هنا إلى رواية دم الأعراق) لعمله الجديد في ميناء العاصمة، بعد أن قرر اعتزال العمل في طريق الجنوب، وهو قرار ما لبث أن تراجع عنه:

"مرغما على الاختلاط بهم. كان العرب خاصة يثيرون اشمئزازه، بسبب قذارتهم وتفاهتهم. كل أولئك الشعث الذين كان يحركون من حوله ثيابهم المتسخة، كانوا يعطونه الانطباع بأن قملا يجوب جسده"³¹⁵.

لا يثير العرب اشمئزاز برتران بشكلهم فحسب، بل يزيد ذلك الشعور حدة وتأكيذا رائحتهم، ففي نفس المشهد كانت "رائحتهم تصيبه (رافاييل) بالغثيان"³¹⁶. وفي رحلة حديقة الموت، كان الركاب مع برتران يرتدون برانيس كما نقلنا صورتهم، "تفوح من كل هذه البرانيس البائسة المصنوعة من جلود النعاج رائحة شحم حادة لا تحتل"³¹⁷.

³¹⁴ – *Le Jardin de la Mort*, op.cit, p 47.

³¹⁵– *Le sang des races*, op.cit, p 220.

³¹⁶– *Ibid*, p 220.

³¹⁷ – *Le Jardin de la Mort* , op.cit, p 20.

العرب إذن أناس لا يمكن للغربي المتحضر العيش بينهم، بسبب شكلهم ورائحتهم، حتى طعامهم لا يؤكل، فما هو السارد في دم الأعراق، في نفس الجزء من الرواية، حيث يقرر رافاييل الاستقرار في العاصمة والعمل في نقل البضائع من مينائها، يصف مطاعم العرب الحقيرة المنتشرة في الميناء والتي كانت :

"تطلق أنتان الزيت، والزبدة العفنة والمقالي [...] وما كان لا يطاق أكثر بالنسبة لرافاييل هو الرائحة الكريهة لتلك الأسماك الكبيرة المسماة "كلاب البحر" التي تقنات عليها الطبقة الدنيا من الشعب. كان هنالك أكوام منها مسلوخة ومنزوعة الرؤوس، بشعة المنظر. (...) أي شعب غريب هذا الذي يسرع ليلتف حول هذه المتاجر!"³¹⁸

جعل هذا الجو الخانق رافاييل يعدل عن مشروعه الجديد، ويفكر بالعودة إلى طريق الجنوب الذي يزداد شعوره بالحنين إليه يوما بعد يوم، وهذا ما كان فعلا، إذ أن رافاييل لم يصدق أنه استبدل سعة طريق الجنوب وهواءه النقي والشعور فيه بحرية ليس لها حدود، بذلك المكان المغلق الضيق وجوّ العفن الخانق وتقبيده فيه مع أناس لم يطق مخالطتهم لحظة واحدة.

لم يطق رافاييل عرب العاصمة مع أنه عرف عربا وعمل معهم، وكان يلتقي في كل رحلة إلى الجنوب بالكثير منهم، لكن الشعور الذي ينقله السارد مختلف، مما يجعلنا نستنتج تفريق برتران بين عربي الشمال وعربي الجنوب، بل وصرح بهذا في نفس السياق إذ من بين ما اشتاق إليه رافاييل عرب الجنوب:

"رافاييل الذي كان يتذكر الجمال والعادات الراقية لدى عرب الجنوب ، لم يكن يكنّ لهذه الحثالة سوى الاحتقار"³¹⁹.

³¹⁸ – *Sang des races*, op.cit, p 221.

³¹⁹ – *Ibid*, p 221.

على عكس حثالة العاصمة، وجد رافاييل في عرب الجنوب بعض الخصال الحميدة مثل الحياء، وعزة النفس التي وجدها عند مجموعة منهم لقيهم في طريقه مرة وكانوا "يقتربون ببطء من العربات، يجرون برانيسهم على كعوبهم"، يبيعون شعيرا للقوافل المارة بطريقهم، وبعد قضاء حاجتهم "كانوا ينسلون بصمت مثل الظلال". والظل لا صوت ولا رائحة له، ثم إنهم ملفوفون في برانيسهم، يكاد رافاييل إذن لا يشعر بهم أصلا، وهذا ما يريده برتران من العربي.

ومن خصال عرب الجنوب والجود بما لديهم ولو كان حقيرا، ففي موضع آخر، وعند توقف قافلة رافاييل للراحة "أحضر لهم عرب من الخيام المجاورة القهوة في كؤوس صغيرة". يجعلنا هذا التفريق والوصف نشعر أن قدر العربي المحتوم عند برتران هو أن يعيش في الجنوب، لأنه هناك لن يزعج المعمرين، ولا يمتلك أرضا خصبة يمكن أن تجذب الغزاة، بل يندمج في ذلك المنظر الذي ينسجم برنوسه فيه مع باقي عناصر الديكور.

3. صورة اليهود والأزمة³²⁰ اليهودية

إن مما أثبتناه في بداية الجانب التطبيقي من عملنا، عند الحديث عن أول روايات برتران، هو تبني المؤلف للأفكار العنصرية والتقسيمات العرقية للبشر. فالأعراق عند برتران مختلفة ومتفرعة ويسمو بعضها على بعض، فكما أن العرق اللاتيني السامي ينقسم إلى فروع (إسباني وإيطالي وفرنسي) بعضها أسمى من بعض، كما رأينا من خلال ملاحظتنا للشخصيات الروائية المختلفة، فإن العرق الشرقي، وهو الأدنى ينقسم إلى فروع أيضا بعضها أحقر من بعض.

فروع هذا العرق هم العرب واليهود والترك، وهم يشتركون نفسيا، كما هو مبسوط في النظريات العرقية وفي الدراسات ما بعد الكولونيالية عن صورة الشرق، في صفات الخمول والكسل والوحشية والمكر والكذب وغيرها، ويشتركون كذلك في صفات جسدية تمكن من التعرف عليهم، انتهينا للتو من ذكر بعضها في تقديمنا لصورة الجزائري عند برتران.

نذكر هذا كمقدمة للكلام عن مسألة اليهود وصورتهم عند برتران، وهي امتداد للكلام عن صورة العربي من وجهة النظر العرقية عند المؤلف والكتاب الكولونيين والعنصريين في تلك الفترة. والسبب الثاني لإثارة مسألة اليهود هو حضورهم القوي في الجزائر المستعمرة، من حيث النفوذ لا من حيث العدد، وعداوة أوروبيي الجزائر الشديدة لهم، عداوة تحولت إلى اعتداءات عليهم وعلى ممتلكاتهم، خاصة بعد تجنيس الإدارة الاستعمارية لهم. واشتعلت في الجزائر أحداث أزمة اليهود المعروفة.

³²⁰ اخترنا هنا التعبير بالأزمة، وقد اقترح المشرف علينا التعبير بالمسألة، لأننا لن نذهب بعيدا في الكلام عن المسألة اليهود والقضايا المتعلقة بها، بل نتوقف عند نقل برتران للأحداث التي جرت في الجزائر بين أوروبيي الجزائر واليهود، والصورة التي قدمها لهذه الفئة، ولقد اتبعنا في اختيارنا كذلك العناوين التي وردت في الصحافة وفي الكتابات التي وثقت أحداث 1898، فقد اصطُح في وصفها بـ La crise Juive.

كان موقف أوروبيي الجزائر صريحا، فالجماهير هاجمت اليهود ومسالحيهم، والكتاب والصحفيون أيدوا هذا الموقف ولم يتأخروا في ذلك. في أحداث 1898 الشهيرة، التي قادها **ماكس ريجيس** Max Régis الصحفي الذي تقلد منصب رئيس بلدية الجزائر العاصمة. وبما أن لوي برتران حضر الحدث وعاشه، وأنه نصب نفسه متحدثا باسم الشعب الجديد، فلا بد أن يكون له موقف منها. سنحاول استخلاص موقف برتران من بعض المواضع التي ورد ذكر اليهود في أعماله.

عندما يتحدث **بول سيبلو** عن هذه الفترة يتعجب من الصراحة التي كان عليها الخطاب العنصري ضد اليهود في أدب الجزائر المستعمرة، لقد جعله اكتشاف وجود خطاب كهذا في الأدب الفرنسي يتردد -على حد قوله- في شعوره بين "الرعب وعدم التصديق". لقد كان هذا الخطاب عبارة عن : "هجائية حاقدة لا تردد في الدعوة إلى القتل"، كان سيبلو سيقول بأنه من قبيل الخطابات المتطرفة الشاذة ليتفاجأ باتفاق "صحافة تلك الفترة بالإجماع على التأكيد بأن ما يبدو شذوذا هو في الحقيقة رأي عام"³²¹.

يحيل **سيبلو** بكلامه هذا إلى إحدى مغامرات صعلوك باب الواد، **كاغايو**، والتي جاءت بعنوان صريح ومباشر **كاغايو المعادي لليهود** Cagayous Antijuif، بهذه البساطة. مثل غيرها من قصص السلسلة، **كاغايو في السباق**، **كاغايو يتزوج**، **طلاق كاغايو**، **كاغايو في السيرك**، **كاغايو والإضراب** ... وضع ميزات هذا العنوان الذي يعطي الانطباع بأن هذا جانب من شخصية البطل وسلوك من سلوكاته ومحطة من محطات حياته اليومية.

بل إن الأمر طبيعي أكثر من ذلك، إذ يقول ميزات في عتبة القصة : "**كاغايو** ضد اليهود ! هو كذلك بالتأكيد من أخصص قدميه إلى جذور شعره. وهو كذلك في أعرق

³²¹ – Cagayous Antijuif, un discours colonial en proie à la racisation, op.cit, p 59.

طيات روحه؛ إنه كذلك بجوهره ودينه وبفطرته؛ إنه كذلك بـ"كله"³²². وتأتي أحداث القصة والشعارات التي يرفعها **كاغايو** ومن معه لتبين معنى أن يكون ضد اليهود بـ"كله". بهذه الصراحة كان **ميزات** وغيره من أوروبيي الجزائر يعبرون عن موقفهم.

أما موقف **لوي برتران** فليس من الصعب استنتاجه، خاصة بعد أن ربطنا بينه وبين **ميزات** بحيث يرفع كلاهما من أجل قضية واحدة : إثبات وجود الشعب الجديد وإيصال صوته، فإذا اتفقا في القضية العامة فلن يختلفا في أحد أهم فروعها، إذ أن الصراع بين الشعب الجديد وبين الطرف الآخر (مسلمين ويهود) صراع وجودي. لكنه ما كان، بطبيعة الحال، ليصرح بموقفه بهذه الصورة، لافتقاده أولاً للجرأة التي يمتلكها أبناء المستعمرة من السياسيين والكتاب، وثانياً لأنه يدعي تبني المهمة الحضارية والإنسانية، وهذا موقف مناقض لها.

لقد عرضت رواية **لا سينا** بعض المشاهد من أحداث العنف التي كان اليهود ضحيته في الجزائر العاصمة، وعرضت أيضاً بعض المواقف من اليهود على لسان الشخصيات، وسيستنتج أي قارئ بكل سهولة موقف **برتران** الذي لم يخرج عن الرأي العام في المستعمرة، لكنه تخفى وراء الموضوعية والواقعية في نقل الأحداث وتصوير الشخصيات.

"خادمك كلب أكثر من اليهود"³²³ : جملة قالها **رافاييل** سائق العربّة الذي أراد **ميشال بوتيري** توظيفه، وكان يتحدث عن موظف عند **ميشال** وقصد بالعبرة القول أنه حقير، وأبلغ مثال على الحقارة هو اليهودي فـضرب به المثل. نسجل هنا استعمال المصطلح الحيواني، مثلما هو الحال في الكلام عن العربي.

³²² – *Cagayous Antijuif, un discours colonial en proie à la racisation*, op.cit, p 61.

³²³ – *La Cina*, op.cit, p 58.

في أحد الحانات في منطقة تيبازة، يجمع برتران في مشهد مجموعة من الأشخاص يعبرون عن آراء مختلفة إزاء الوضع الاقتصادي للمستعمرة، كان هذا الأخير هو السبب الرئيسي في ثورة أوروبيي الجزائر ضد يهودها، الذين يحتكرون رؤوس الأموال ويسيطرون على التجارة. يثني المعمر إيميل شيرار على اختيار ميشال أن يستقر في ملكيته في تيبازة، ذلك أن غيره من المالكين يسكنون باريس ويخرجون رأس المال من المستعمرة ولا ينفقونه فيها فساهموا في ركود اقتصادها :

– "إن المالكين الذين لا يقيمون هنا مجرمون ... نعم أنا أدينهم أكثر مما أدين اليهود الذين يهاجمهم صديقنا غرومباش بكل شراسة. على الأقل، ينفق اليهودي مداخله هنا ويفيد تجارة البلد !

– لكن الجميع يكرههم هنا، على ما أرى !

– أعلم جيدا ! أعلم جيدا ! من المؤكد أنهم يستحقون أكثر ما يقال عنهم. لكنني لست سياسيا. وأشكر الإله لأنني لا أرى إلا شيئا واحدا : أن اليهودي نجح في تكوين رأس مال جزائري"³²⁴.

كان هذا أكثر المواقف عقلانية وهدوءا من اليهود، وهو موقف نفعي براغماتي، لا ينفي العداء تجاههم ولا كونهم يستحقون المعاملة التي يلقونها، لكن الإشكال في الفرنسيين الذين أفسحوا لهم المجال فأحسنوا استغلال الفرصة. وغير بعيد من الطاولة التي كان ميشال وزميله يناقشان فيها الموضوع، وفي وسط الصيحات التي كانت تنطلق هنا وهناك بلغات المتوسط المختلفة، تنطلق صرخة قوية : "الموت لليهود".

وما كان صاحبها سوى غرومباش المذكور، بعد أن قرأ شيئا في الجريدة، صرخة صحبتها إشارات رعناء، وكان جالسا مع مجموعة من المالبطين انسجموا مع حركته.

³²⁴ – La Cina, op.cit, p 63.

وهذه ملاحظة أخرى، أن أشد الناس على اليهود كانوا أدنى طبقات المجتمع الاستعماري، مع أن مشكلتهم ليست معهم بل مع أصحاب الممتلكات ورؤوس الأموال، لكن البروباغاندا اشتغلت بقوة واستغلت أوضاع بؤساء المجتمع الاستعماري ومستواهم الثقافي فجندتهم.

العبارة التي أطلقها غرومباش هي العنوان الذي أطلقه ميزات على أحد فصول العدد المذكور من سلسلة كاغايو، مع اختلاف طفيف في العبارة بين en à bas les Juifs و bas les Juifs، في الأسفل وإلى الأسفل، لكن المعنى واحد وهو إسقاط اليهود، والعبارة à bas تعني في الاستعمال الدارج الفرنسي القتل أو الموت. عبارة لا تدعو إلى قتل فرد أو مجموعة بل إلى الإبادة العنصرية.

ولما استُفِز الأمير دو لومبال المحافظ، لما جمع ميشال الوجهاء والشخصيات في الحفلة التي نظمها في ملكيته، "عدد (المحافظ) للمرة الألف أحقاد الثلاثة، اليهود أولاً، ثم الإنجليز، ثم الجمهورية"³²⁵. فتح هذا الاستفزاز مجالا للحديث عن أعداء المستعمرة، وصل إلى استنتاج دو لومبال "العربي مثل اليهودي، لا بد من مطاردتهما كما طارد الأمريكيون أصحاب البشرة الحمراء !...". وفي العبارة تقديم عداوة اليهود على عداوة العرب، تؤكد كلماته بعدها: "برافو ! لنطرد الأجنبي ! لنخرج أولاً اليهود، هؤلاء العراة، الجرب الذين هم سبب في كل الشر !..."³²⁶.

دافع المثقفون الحاضرون عن اليهود وحاولوا استحضار العقل في تسيير المستعمرة، إذ يتساءل المؤرخ بول هارتمان، لماذا اليهود دون الإسبان والمالطيين وليس هؤلاء أقل مكرًا وخيانة منهم، بل إن اليهود يساهمون أحسن منهم في الحفاظ على اقتصاد المستعمرة، لكن تعقيب المونسينيور بويغ كاردينال شمال إفريقية، لم يترك مجالاً

³²⁵ – La Cina, op.cit, p 188.

³²⁶ – Ibid, p 190.

للتفاوض، فقد علق رجل الكنيسة الأول على كلام **دو لومبال** عن ضرورة طرد اليهود بأن عدم فعل ذلك كان خطأ الكاردينال السابق الذي سيتداركه هو.

تندلع في نهاية الرواية بالفعل أحداث الشغب والعنف ضد اليهود، يقودها **كارميلو** كجزء من حملته الانتخابية للفوز بمنصب محافظ الجزائر العاصمة، هذا المرشح المتميز ما هو إلا نسخة **برتراندية لكاغايو**، صعلوك من صعاليك باب الواد زادت شعبيته وقويت شوكرته بعد أن خرج من السجن وصار بطلا شعبيا.

أشار بعض أصدقاء **ميشال** عليه بالتعاون مع **كارميلو** لأن شعبيته كانت السبيل الوحيد للحصول على عدد كبير من الأصوات، **فميشال** جاء من فرنسا وكان نكرة بالنسبة للكتلة الناجبة في المستعمرة، فإذا فاز بالمنصب أمكنه تجسيد أفكاره المتناقضة تماما مع توجهات **كارميلو**. وبالفعل حاول **ميشال**، لكن ضميره ومبادئه منعه من إبرام أي صفقة، خاصة لما خرج إلى الشارع ورأى هستيريا الجماهير ضد اليهود.

نزل **ميشال** وزوجته وصديقه **كلود** من القطار عند محطة الآغا، فإذا بمئات الأشخاص مسلحين بعصيمهم محدثين ضجة يجتمعون حول رجل قصير القامة لم تكن تظهر سوى قبعته، وهو يهودي بولوني يدعى **ستانيسلاس لومبارغ**، كان الكل يصيح:

"الموت لليهودي ! الموت للانتهازي ! ... إلى الماء ! إلى الموت ! ..."

كان الضغط يتصاعد في العاصمة، وبدأ الأمر يخرج عن السيطرة : خرجت قوات الأمن وفرق الزاوف للتصدي للجماهير الغاصبة، والتي بدأت تعتدي على ممتلكات اليهود وأشخاصهم. وبدأت الأخبار تتوالى، تحطيم محلات لليهود هنا، وحرق يهودي هناك، وفي الشارع الآخر اعتدي على امرأة يهودية ، ... هكذا تسارعت الأحداث واتجهت نحو العنف ولم يعد بإمكان الأمن سوى حماية المؤسسات والإدارات.

كادت محاولة **ميشال** الدفاع عن رجل مسن يهودي انهال عليه مجموعة من المتظاهرين ضربا بالعصي أن تؤدي بحياته، جعله هذا الحدث يعدل عن كل مشاريعه السياسية أو الاقتصادية في الجزائر ويقتنع بأن لا مكان للإنسانية فيها. هذا قدر المستعمرة إذن، وهو في نفس الوقت الحل الوحيد لبقائها. وقد قالها شارل أندري جوليان : "يشبه كل فرنسيي الجزائر **كاغايو**"، ولا مكان بينهم للفرانساوي الضعيف والمتسامح.

يصنف الأدب الكولونيالي في الجزائر بصفة عامة العنصر اليهودي في المستعمرة في خانة المستعمر من حيث المعاملة، على الرغم من تمتع اليهود بعد قررا **كريميو** الشهير بالجنسية الفرنسية، وموقف **برتران** في الجملة هو موقف **كاغايو** و**كارميلو**، وهو موقف أدباء المستعمرة عموما. تقرض الكراهية اليهود قرضا مثلما قرضت المسلمين كما يقول **رابح بلعمري**، لكن الدافع وراء هذا العداء كان مختلفا :

"المنافسة الاقتصادية والسياسية بين اليهود والمعمرين، الدعاية لمعاداة السامية في نهاية القرن التاسع عشر، أحكام المسيحيين المسبقة القديمة عن اليهودي والتي تجعل منه كبش الفداء المثالي في حالات الأزمة الاقتصادية"³²⁷.

لم يكتف **برتران** في أعماله بنقل عداء أوروبيي الجزائر تجاه اليهود والأحداث التي تلتها، نقلها مرافقا إياها بالتبرير وبالحجج وكأنه يقرّها، بل مارس عليهم ما مارسه على العربي من تشويه واحتقار. وبما أن الصراع معهم كان اقتصاديا، والصورة النمطية عن اليهود مبنية على جشعهم وخبثهم وحبهم للمال، فإن **برتران** يعود بنا في إثبات ذلك إلى غزو الجزائر العاصمة، إذ لما سقطت وسقط قصر الداوي انطلق السكان ينهبون ممتلكاته

"كان اليهود أشدهم جشعا ووقاحة، فقد بدؤوا ببيع المنتصرين تركة المهزوم"³²⁸.

³²⁷ – Louis Bertrand : Miroir de l'idéologie coloniale, op.cit, p216.

وفي بيبيت /المحبوب Pépète le bien aimé، نلتقي شخصيات يهودية تؤكد الصورة النمطية عن ثراء اليهود وبخلهم، أولها نعومي Noémie العاملة لدى فيسانتي Vicente صاحبة محل الجزارة التي كانت في علاقة مع بيبيت، ويصف برتران هيئتها الرثة كما يلي :

"كانت نعومي هذه يهودية من الحي، [...] وعلى الرغم من أنها كانت أصغر سنا من فيسانتي، كان وجهها أكثر تجعدا من تفاحة قديمة. كانت عيناها ياقوتتين حمراوين تتقدان بين أشفار أفسدها الطلاء الأسود الدهني الذي وضعت على جفونها. كان لباسها على الطريقة الأوروبية، لكن أسفله كان قطعا متسخة رثة تضرب وهي تمشي بطي ساقها النحيفتين. لم تكن لديها جوارب و كانت تجر حذاءها البالي برجليها الحافيتين جراً".

لكن هذه المرأة التي بخلت على نفسها بهيئة محترمة :

"يلمع على رقبتها المتجعدة عقد من الذهب، وتطقطق على فلقتي أذنيها المتدليتين أقراط كبيرة بها سلسلة من أحجار الزبرجد"³²⁹.

ثم العامل في الأشغال الشاقة في نفس المحل، وهو يهودي كذلك، اسمه جالوت :
"كان جسده الطويل العاري يهتز تحت قندورة قذرة [...] كانت أصابع قدميه تقطع الصديد والوحل النتن الذين يلتصقان بحواف قدميه وهو يمشي"³³⁰.

³²⁸ – BERTRAND Louis, *le roman de la conquête 1830*, ed Arthème FAYARD et Cie, Paris, 1930, p 190.

³²⁹ – BERTRAND Louis, *Pépète le bien aimé*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1919, p 44.

³³⁰ – *Ibid*, p 98.

بالإضافة إلى عملها في محل الجزارة، كانت **نعومي** تقدم لربة عملها خدمات من نوع آخر، شعوذة وخلائط سحرية لإعادة **بيبيت** وإسقاطه في شرك عشيقته. التقى هذا الأخير الخادمة اليهودية، ولم تكن المرة الأولى، وفي يدها سلة يتدلى منها رأس دجاجة سوداء يبدو أنها قد مورست عليها بعض الطقوس.

رواية **بيبيت** /المحبوب التي صدرت طبعتها الأولى في 1904 كانت، كما يلاحظ **بلعمري**، تصريح **برتران** بما كان يخفيه من قبل، وهو هذا الحقد والازدراء والعداء لليهود. وهذا تفسره مسيرته السياسية بين 1898، تاريخ نشر أول رواياته وقضية **دريفيوس** Dreyfus، و1904. فبعد أن كان مناصرا لـ**دريفيوس** في 1898، أظهر **برتران** في 1904، خلال اضطرابات الجزائر العاصمة التي أحدثها المعادون للسامية، مشاعره العنصرية ضد اليهود، كان ذلك بدافع الوطنية واحتقار الشعب، وبعد أن أمنت فرنسا خطر التقسيم.

لكن نصيب اليهود من كراهية المؤلف لم تكن لتعادل بحال ما كان يكنه للمسلمين، مع أنه يقدم الأولين على أنهم أخبث من عرفت البشرية وأشد الناس جشعا وانتهازية. وهجومه عليهم كان هجوما على الأفراد، أما المسلمون فقد انتقل من مهاجمة أحدهم وقدورهم إلى مواجهة مع الإسلام كديانة.

**الفصل السادس: مرحلة
الذروة وتعميم النظرية
(1917-1935)**

1. لوي برتران وتشكل الثقافة الكولونيالية، مرحلة غزو الوعي

بعد أن بدأ أديباً، كاتباً روائياً، تحول لوي برتران بعد مسيرة طويلة وتجربة ثرية، جاب فيها ضفاف المتوسط، منها عشر سنوات عاشها في الجزائر، إلى داعية لمشروع أو لنظرية كولونيالية بامتياز مبنية على إعادة البعث اللاتيني. ولم تعد الكتابة الروائية بعد اكتمال التصور لديه غاية في حد ذاتها أو مهنة، بل وسيلة من وسائل إنجاز المشروع، فیتجاوزها أو يعدل عنها متى رأى غيرها أصلح منها. لم يعد برتران روائياً فقط، بل مؤرخاً وعالم آثار وأستاذاً محاضراً ورحالة وكاتب مقالات في آن واحد.

وسائل برتران في الدعوة إلى مشروعه الذي يصفه بأنه "مشروع إعادة إحياء الأمة الفرنسية *La nation Française*"، كانت إذن عديدة ومتنوعة : روايات وسير وتواريخ ودراسات أثرية ومقالات ومحاضرات، مما يدل على أن مركز الاهتمام تحول من الجمالية إلى الفكرة، بل كان منذ البداية كذلك وكانت الجمالية مجرد مرحلة، أو أن برتران انتقل إلى مرحلة تالية بعد ما عايش ميلاد مدرسة أدبية، ورأى حلمه يتحقق، حلم أن يكون للمستعمرة أدبها الخاص بها.

بعد أن كانت تفاصيل الفكرة منثورة هنا وهناك في الكتابات المذكورة، بدأت تتبلور وتجتمع إلى أن صار بالإمكان صياغتها في قائمة تامة وواضحة، وهذا ما فعله برتران في كتبه الأخيرة وفي تصديرات حررها لكتبه وكتب غيره ممن خدموا المشروع الكولونيالي.

"لم تنفدح هذه الأفكار في ذهني دفعة واحدة، ولا في لحظة واحدة. لقد تشكلت في نفسي شيئاً فشيئاً [...]"، بالنظر والملاحظة والتفكير. قد يلتقي القارئ في كتبي الأولى إشارات إليها، وأحياناً تعبيراً عنها. لكن وعيي الكامل بها لم يتم إلا مع مرور الزمن"³³¹.

³³¹ – *Les villes d'or*, op.cit, p 10.

أسدى لوي برتران بمشروعه للاستعمار خدمة جليلة وأسهم بقوة في ترسيخ الثقافة الاستعمارية لدى الفرنسيين، لدى السياسيين أو في المجتمع بصفة عامة. نعم ! صار الاستعمار ثقافة أمة بأكملها، يتعامل مع الآخر وفقها السياسي والاقتصادي، ولن نبالغ إن قلنا الجميع حتى آخر فرد من أفراد المجتمع يملك صوتا انتخابيا يمنحه لليمين المتطرف.

تشكلت الثقافة الاستعمارية بدورها تدريجيا، مواكبة في تبلورها لمراحل النشاط التوسعي الفرنسي، ونحيل في كلامنا هذا إلى الكتاب الجماعي القيم الذي أشرف على تأليفه باسكال بلانشار Pascal Blanchard وساندرين لومار Sandrine Lemaire ونيكولا بونسال Nicolas Bancel، جمعت فيه أعمال مجموعة من الباحثين تحت عنوان تشكل ثقافة استعمارية في فرنسا، من زمن المستعمرات إلى زمن حروب الذاكرة.

قسم المؤلفون الكتاب، الذي تعده المؤرخة كاترين كوكري فيتروفينش Catherine COQUERY-VIDROVITCH أول دراسة ما بعد كولونيالية بمعنى الكلمة في فرنسا، إلى فصول خمسة يمثل كل منها مرحلة من مراحل تشكل هذه الثقافة وتطورها:

-تشكل ثقافة استعمارية (من أول إلغاء للاستعباد إلى هزيمة سودان Sedan)؛

-غزو الرأي العام (من بداية الجمهورية الثالثة إلى المعرض الاستعماري 1931)؛

-ذروة الإمبريالية (من فترة ما بين الحربين إلى الحركات التحررية)؛

-نحو ما بعد-المستعمرة (آثار ما بعد استعمارية في المجتمع الفرنسي)؛

-زمن التركات (عن الذاكرة، الآثار والامتدادات على الحاضر)³³².

³³² – Pascal Blanchard et Sandrine Le maire et Nicolas Bancel, *La formation d'une culture coloniale, du temps des colonies à celui des guerres de mémoire*, édition CNRS, Paris, p 8-10.

ما يهمننا من كل هذا، وفي السياق الذي نحن فيه، هو أن نضع برتران في موقع من هذه الكرونولوجيا، ونستنتج مدى إسهامه في بناء الثقافة الاستعمارية الفرنسية، من خلال ربط خصائص أعماله بظروف وملابسات المرحلة. ومن خلال التقسيم الذي أوردناه، سيكون موقع برتران في المرحلة الثانية، المرحلة التي ستحاول فيها ثقافة الاستعمار إقناع الرأي العام الفرنسي بتبنيها وبالتالي العمل والتضحية من أجلها. أي أن الاستعمار لن يبقى مجرد استيلاء مادي على أرض لاستغلال خيراتها أو سباقا بين الجيوش الإمبريالية نحو بسط سيطرتها على العالم فقط، بل سيصبح إيديولوجيا باعتبارها : نظاما للأفكار، فلسفة للعالم وللحياة"³³³، يتبناها المجتمع حتى أبسط فرد من أفراده.

مع أنه عاش إلى بداية الحرب العالمية الثانية، وألف خلال فترة ما بين الحربين بعض الكتب والمقالات، وهي المرحلة التي سميت ذروة الإمبريالية، لكن أهم أعماله وأقواها كان كما ذكرنا، أي في فترة العمل على غزو الوعي الفرنسي. هذا ما أفنى برتران حياته فيه كما بينت قراءتنا لأعماله، بيان شرعية الاستعمار وحتميته وحق الفرنسيين الحضاري والإنساني فيه، وبأن فرنسا ليست حيث يرقد أمواتها في الميتروبول، بل هي كل مكان رفع فيه علمها.

من جهة أخرى لا يمكن فصل المشروع البرتراندي عن الفترة الأولى، والتي كانت من أقوى الدوافع لكتاباته، بل وموضوعا لبعضها، وهذا في الشق الأخير منها، هزيمة الفرنسيين أمام الألمان في السودان (1870)، وضمهم لأجزاء من اللورين، أين عاش برتران صغره. وقد ظهر أثر هذا الحدث بالغا في مذكرات الكاتب، كما عرضها وأجاد رابح بلعمري، وفي بعض الروايات (الآنسة دو جوسانكور، Mademoiselle de

³³³ – COQUERY-VIDROVITCH Catherine, *Enjeux politiques de l'histoire coloniale*, Agone, Marseille, 2009, p 109.

(Jessincourt) والسير الذاتية (ما لورين، ذكريات وبورتريهات، Ma Lorraine, souvenirs et portraits)، على سبيل المثال.

سيكون التركيز إذن على هذه الفترة الممتدة كما بين أصحاب الكتاب المذكور من قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة إلى "المعرض الاستعماري الكوني" 1931، فترة تمثل في الجزائر مئوية الاحتلال التي نظم لها في 1930 احتفال فخم كبير مبالغ جدا فيه، وصف بأنه الذروة التي بلغها الاستعمار وعنصريته في الجزائر.

تتقسم هذه المرحلة بدورها إلى ثلاثة مستويات، فافتحام الوعي وإقناع الرأي العام ليس بالأمر الهين، يبحث بلانشار وزملائه في الكيفية التي صار بها "الفرنسيون استعماريين دون إرادتهم ودون علمهم، عن طريق تشريحهم التدريجي والأكيد للبرامج الاستعمارية من خلال تعدد الخطابات التي تتسج المجاز الاستعماري"³³⁴. من بين هذه الخطابات وأقواها خطاب برتران، الذي يمثل اختياره في 1925 كعضو في أعلى هيئة للغة الفرنسية اعترافا رسميا به، وتبنيها له من طرف الجمهورية.

تتكاثر في الخطابات المذكورة "الصور التي تعرض عوالم غريبة وشعوبا جديدة"، كون هذه الصور يرسمها أناس زاروا هذه العوالم يعطيها مكانة الواقع والحقيقة المسلمة، فما بالك بمن عاش هنالك عشر سنوات، فبمن ولد ونشأ هناك.

إذا عدنا إلى مراحل الاقتحام فإن الكتاب يقسمها إلى لحظات ثلاث :

-لحظة التشرب imprégnation (من هزيمة سودان إلى إخضاع المغرب الأقصى)،

-ولحظة التصريح affirmation (من الحرب الكبرى إلى حرب الريف)،

³³⁴ – La formation d'une culture coloniale, du temps des colonies à celui des guerres de mémoire, op.cit, p.

-ولحظة الذروة apogée (من معرض الفنون إلى المعرض الاستعماري الدولي في 1931).

لقد افتتحنا الكلام هنا بفكرة التدرج في تطور المشروع الكولونيالي البرتراندي، ونزعم من خلال قراءة أعماله أن هذا التدرج يمكن أن ينطبق عليه التقسيم الثلاثي أعلاه، فمع أن حياة المؤلف وتجربته كانت ثرية ومتنوعة، وفيها ذهاب وعودة في الأفكار والمواقف، إلا أننا يمكن بصورة تقريبية أن نقسمها إلى مراحل ثلاث، وقد سرنا عليها في الفصول الثلاثة الأخيرة، كما يلي:

1. **مرحلة التشرب (1890-1905 تقريباً)**، والتي توافق السنوات العشر الأولى من مسيرة برتران التاليفية، وهي الفترة التي قضاها في الجزائر مستكشفاً، متشرباً للروح الاستعمارية من خلال معايشة المجتمع الاستعماري والاطلاع على الماضي اللاتيني للجزائر.

2. **ثم مرحلة التصريح (1905-1917 تقريباً)**، أو تشكل النظرية وتبلور الأفكار، والتي توافق في بدايتها عودته إلى فرنسا وانتقاله من مهنة الأستاذ والروائي إلى المحاضر والمؤرخ والكاتب الصحفي والأديب، داعياً إلى أفكاره ومدافعاً عن نظرية الرومنة. ووافقت في شقها الثاني قيامه برحلته المشرقية، على مرتين وزيارته للكثير من البلدان.

3. **أثر هذه الرحلة المشرقية هو بداية المرحلة الثالثة (1917-1935)، مرحلة الذروة**، حيث لم تزد زيارة المشرق العربي برتران إلا ثباتاً على موقفه وتعصبا لأفكاره وعدائية كانت تجاه العربي فصارت تجاه الإسلام أينما كان.

بلغت الروح الاستعمارية والثقافة الكولونيالية ذروتها كما هو معلوم في مئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد كان لبرتران نصيب من هذا الاحتفال الكبير، حيث أحيى ذكرى هذا الحدث بتأليف رواية بعنوان وموضوع مباشرين صريحين، كما هي عادته :

رواية الغزو 1830 Le roman de la conquête ، والتي صدرت في 1930 بطبيعة الحال.

وكانت هذه الرواية تعبيراً عن أحد المبادئ التي أرساها برتران، مع أنها قد لا تكون فكرته في الأصل، ونقصد بإرسائها أنه أعطاها الحجج ووجد لها المبررات، جعل منها أمراً حتمياً والخيار الأمثل بل الوحيد : ليست وحشية الاستعمار إلا نتيجة لوحشية المستعمر. هذا المبدأ لا زال يلقي إلى يومنا هذا في المدارس الفرنسية في مادة التاريخ فيترسخ في ذهن الطالب، ثم يتداوله الإعلام ليثبتته لدى الرأي العام، ويصبح فيما بعد واحدة من خلفيات السياسة الخارجية، بل والداخلية أيضاً عند التعامل مع الفرنسيين ذوي الأصول المغاربية.

هذا ما استنتجته كاترين كوكري-فيدروفيتش (في كتابها الموسوم *الرهانات السياسية للتاريخ الاستعماري*) في فصل تحت عنوان *النسيان والسكوت* Amnésies et Silences، وتحدثت فيه عن عجز المدرسة الفرنسية في مادة التاريخ، التاريخ الاستعماري خاصة. لا زالت المادة المقدمة في هذا الميدان تصور هذه الفترة السوداء من التاريخ كمصدر للفخر بالنسبة لفرنسا. وبقي الأمر كذلك إلى غاية ثمانينات القرن العشرين.

تضرب الكاتبة مثلاً على ذلك -اخترناه من بين عدة أمثلة- أحد كتب التاريخ في المرحلة الثانوية، يتحدث عن التجاوزات التي ارتكبتها الجيش الفرنسي عموماً، على غرار الطرق الفظيعة التي استخدمها بيجو Bugeaut في حملته الجزائرية، يعرض الكتاب الأحداث دون أية عقدة، بل ويعتبرها:

"أمراً عادياً جداً في حملة استعمارية، وهو ردة فعل على وحشية الخصوم"³³⁵.

³³⁵ – *Enjeux politiques de l'histoire coloniale*, op.cit, p 61.

وبعد أن نجحت أغلب حركات الاستقلال، وتحررت جل المستعمرات، بدأ الحذف – عوض المراجعة- يطال المادة المخصصة للفترة الاستعمارية في الكتب المدرسية، فاختفى الكلام والوثائق المتعلقة بها خلا بعض الإشارات، وصارت معلومات الغالبية العظمى من الشباب الفرنسيين عن الحقبة الاستعمارية شبه معدومة، بل بالكاد يعرفها من هم أكبر منهم³³⁶.

غير أن هذا السكوت ليس من النوع الذي بالتزامه تطوى القضية، بل هو من النوع الذي يترك فراغا تملؤه الأحكام المسبقة والخطابات السياسية المعتمدة عليها، كما تفعل حاليا الجبهة الوطنية الفرنسية، في ظل غياب تاريخ يروي الأحداث من وجهة النظر المقابلة، تاريخ يرويه المستعمرون سابقا، وغياب مراجعات لهذا التاريخ من جهة المستعمر السابق فيها تحمل للمسؤولية وإقرار بالوقائع.

لا زال التاريخ الاستعماري يمثل بالنسبة للكثير من الناس، وفيهم الأغلبية الغالبة من المؤرخين، ملحقا للتاريخ الفرنسي لا يدخل في أساس بنائه، تاريخ فرنسا الذي يحصر في تاريخ الميتروبول، عن طريق دراسة ولو كانت معمقة فهي تبقى جزئية³³⁷. ولهذا تم التعامل معه بالأسلوب الذي تقدم، اعتباره إنجازا من إنجازات فرنسا، ثم السكوت عنه.

بقي هذا التاريخ لمدة طويلة يتغذى على ما تركه كتّاب الفترة الاستعمارية، على أعمال لم يكن فيها تمييز بين ما هو أدبي وما هو تاريخي، حيث كان الأدب يقدم معرفة تؤخذ على أنها مسلمات. إنها الموضة التي أطلقها برتران في الجزائر تحويل الآخر إلى مادة دراسة ووصف، واعتماد التاريخ وعلم الآثار في بناء نصوصه الروائية ليجعل منها عرضا لحقائق لا تقبل المناقشة، لا نصا خياليا له قراءات متعددة.

³³⁶ – *Enjeux politiques de l'histoire coloniale*, op.cit, p 63.

³³⁷ – *Ibid*, p 103.

نعود بعد هذا الاستطراد إلى رواية الغزو، لنربطها بالمثل الذي ذكرناه بالتحديد، مثال احتلال الجزائر الذي تركز فيه كتب التاريخ على كون الفطائع المرتكبة خلاله مجرد ردة فعل على ما هو أفظع منها. يدعي برتران في عتبته أنه يروم تصحيح التاريخ وإنصاف أبطال اتهموا بالإجرام، لنرى " كيف يمكن للأدب أن يروي بقوته الخاصة به وجود الزمن الاستعماري الذي بقي حاضرا في مخيلاتنا (مخيلة الفرنسيين، السياسيين منهم خاصة) اليوم"³³⁸.

صدر الكتاب كما ذكرنا بمناسبة مئوية احتلال الجزائر. وما فحوى الرواية -بغض النظر عن الأحداث والحبكة- وغايتها سوى تلميع لصورة القادة الفرنسيين، بيجو النبيل وأبناءه ذوو الشهامة والتضحية، وتسويد لصورة الأهالي، الدمويون المستعدون للخيانة وبيع الوطن مقابل مصالحهم الشخصية.

يتلازم الأمران، رفع الشخصية الفرنسية المتحضرة والخط من الشخصية الجزائرية الوحشية، من بداية الرواية إلى آخرها. ويظهر جوهر كل منهما عند كل موقعة يلتقيان فيها. وقبل أن نذكر أمثلة على هذه الوقائع، نشير هنا إلى أن راوي القصة يسرد أحداثها بضمير المتكلم الجمع نحن (Nous)، فيلغي المسافة بين الأحداث وبين السارد، فيرويه باسم الأمة الفرنسية التي يتبنى مبادئها، أو بالأحرى باسم الطبقة الاجتماعية التي تريد استعادة السلطة في فرنسا، التي تجسدها شخصيات رواية الغزو.

أول خصلة من الخصال الفرنسية النبيلة هي حب الوطن، والإخلاص فيه الذي يؤدي إلى التضحية في سبيله بالنفس وبأحب الأشياء إليها. فقد ضحى دوبرمون De Bourmont بأبنائه، ورافقه هم بملء رغبتهم، وهاهي خطيبة آميدي Amédée تبذل ما لديها من حجب وعاطفة لكي تنفيه عن الذهاب إلى الجزائر:

³³⁸ – STORA Benjamin et JENN Alexis, *Les Mémoires Dangereuses suivi de Transfert d'une Mémoire*, Hibr Edition, Alger, 2016, p 14.

"لماذا تذهبون ؟ لماذا تتبعون أباكم ؟ التضحية بثلاثة أبناء، أو تعريضهم للموت، يبدو لي هذا كثيرا، حتى هو، عمي، ألن يكون عرضة له هو أيضا ؟ ألن يدفع نفسه ثمنا بقبوله لقيادة هذه الحملة الرهيبة، في بلد بربري، مجهول، مليء بجميع أنواع المخاطر؟ ألم تقرأ ما يكتب في الجرائد؟"³³⁹

لم يقنعه كون أبيه وإخوته قد أدوا الواجب عن بذهابهم، ولا التخويف بالمجهول وبوحشية الأرض البربرية التي سيخوضون فيها حربهم. تعيدنا هذه الفكرة إلى الصورة التي كان يقدمها الأدب الفرنسي عن الجزائر قبل الاحتلال، والتي عرضناها في فصل "الجزائر في الأدب الفرنسي"، يؤكد برتران ما كان يقال عنها وعن أهلها القراصنة المتوحشين، مع أنه زارها وعاش فيها قرابة العشر سنوات.

أميدي وإخوته كانوا من "كتيبة الأبطال، الجيش النبيل الباسل"، كما وصفهم أحد شعراء الحملة الفرنسية ضد الجزائر (ينظر : الفصل الثاني)، وهم من سيغسل شرف فرنسا الذي حاول "زعيم القراصنة" تدنيته من خلال إهانة ممثلها، هذا ما تعرضه الرواية على لسان ملك فرنسا، ك"سبب واحد يطغى على غيره" من أسباب شن الحرب، أن "يحاسب" من شتم ممثل فرنسا"³⁴⁰.

من الأسباب أيضا، وهو ثانوي من حيث الأهمية، وقوف الملك والجيش أمام أعضاء غرفة البرلمان الجدد موقفا قويا، بتقديم مفاتيح الجزائر المحتلة، خاصة وأن شارل العاشر Charles X كان على وشك أن يزاح من عرشه. ولا يخفي المتحدث الأسباب الأخرى، الحقيقية في الواقع، المتمثلة في تحرير الاقتصاد ورفع شأن فرنسا بين دول أوروبا في زمن بلغ تنافس القوى الاستعمارية أشده :

³³⁹ – BERTRAND Louis, *Le roman de la conquête 1830*, Ed Arthème FAYARD et Cie, Paris, 1930, p 25.

³⁴⁰ – *Ibid*, p 36.

"سنعيد الحرية إلى بحارنا. ستستفيد أولاً تجارتنا وتجارة جيراننا كذلك. أعتقد أيها السادة أن حرية كهذه، من شأنها أن تجعل فرنسا تشعر بالفخر أنها تمنحها للعالم وأنها أنجزت عملاً يليق بمقامها ومقام المملكة"³⁴¹.

غير أن أعز هذه الأسباب على برتران هو إحياء الأمة المسيحية وإعادة مجدها المفقود: "ثم في الأخير أيها السادة، فإن الأمر يتعلق بعار قديم جداً لا بد أن يغسل، عار الأمم المسيحية المجبرة على دفع الضريبة لأولئك البربريين"³⁴². بل لا يتردد في الكلام عن حرب صليبية جديدة، جمعت أناساً من جميع أنحاء فرنسا، وحتى من دول أوروبية أخرى:

"جيش مدهش بحماسة وحيويته. عليك أن ترى المجندين الشباب، أولئك المتطوعون الشباب الذين جاءوا من كل المقاطعات الفرنسية وحتى من الخارج، كأنها حملة صليبية جديدة"³⁴³.

يقابل هذا الالتزام بالمبادئ الوطنية، والاستعداد للتضحية من أجل مصالح فرنسا، ومن أجل الديانة المسيحية، في الضفة الأخرى من المتوسط: استعداد من الحاكم لبيع وطنه من أجل الحفاظ على حياته وعلى ممتلكاته، ولن يقدم رجل الدين صورة أفضل. بعد حصار الجيش الفرنسي للجزائر العاصمة ودخوله إليها، لم يجد استماتة ولا تضحية من طرف الحاكم ولا من طرف السكان، بل:

"ذهب المفتي الأكبر لعملية التسليم (تسليم مفاتيح المدينة) رفقة الداي الذي قبل كل الشروط، سعيداً بنجاة ثروته مع حياته وحصوله على الحرية"³⁴⁴.

³⁴¹ – *Le roman de la conquête 1830*, op.cit, p 36

³⁴² – *Ibid*, p 36.

³⁴³ – *Ibid*, p 82.

³⁴⁴ – *Ibid*, p 225.

اقترح دوبرمون على الداى أن يقوم بجولة أخيرة في قصره "ويختار ما يريد أخذه معه"، ولا يفوت السارد في هذا السياق أن ينوه بنبل وشهامة القائد الفرنسي، والذي فعل ما فعل مع الداى "بهدف إظهار نواياه الطيبة وليسترضيه"، فما كان من الداى إلا أن "عبر عن تشكراته وانطلق بسرعة لاغتنام الفرصة"³⁴⁵ وجمع ما يمكن جمعه.

لم يصدق الداى ما حدث معه، "كل تلك اللباقة والاحترام، كل تلك الرغبة في نيل إعجابه أصابت الداى بالدهشة"، فهو لم يكن ليفعل ذلك حسب السارد فالأصل عنده بصفته "رجل المدفعية التركية سابقا" أن السجين "لا يمكن أن يكون سوى مكبلا بالسلاسل، في جوف زنزانة"³⁴⁶، وهو الآن سجين هذا القائد الرومي Roumi، لكن المعاملة التي لقيها كانت مختلفة تماما.

موقف الخيانة وتفضيل المصلحة الشخصية الذي وقفه الداى كان غريبا ومشينا بالنسبة للسلوك الفرنسي الحضاري والإنساني، لكن الداى كان يعلم ما يفعل وكان يعرف رعيته التي ستعامله بالمثل لو قدرت عليه، وما أحداث الرواية سوى تجسيد لوصف حكام الجزائر وسكانها بالقراصنة وتأكيده عليه. أي أن حياتهم سطو ونهب وسرقة.

كان وقوع الداى في يد القوات الفرنسية أرحم من أن يقع في يد أبناء مدينته، فهكذا كان دخول الجنود الفرنسيين ساحات قصر الداى بعد أن هرب :

"عندما اقتحمت فرقة دامريمون Damrémont الساحات، لم تجد بدا من استعمال أخص البنادق لطرده مجموعات من اللصوص، زنج ومور ويهود، امتدت أيديهم إلى

³⁴⁵– *Le roman de la conquête 1830*, op.cit, p 233.

³⁴⁶– *Ibid*, p 233.

الأثاث والأشياء الثمينة، تخلص منها الداي وحاشيته لما صار عليهم الفرار بسرعة. كان اليهود أشدهم جشعا ووقاحة، فقد بدؤوا ببيع المنتصرين تركة المهزوم³⁴⁷.

لقد كانوا أسبق إلى نهب ممتلكات حاكمهم من العدو، بل أرادوا بيعه إياها. وكان العدو هو من أعادها إليه. هذا العدو تعامل بشرف مع الداي ومع غيره، وكما أصابت الدهشة الداي أصابت مسعود، القائد البدوي الذي أنقذه آميدي من الموت المحقق على يد فرقة من المشاة الكورسيكيين، فقد رآف به وأخذ أسيرا ليعامل معاملة لم ير مثلاً في الإنسانية، ولم يكن إفريقي عادي، رجل من البلد، ليرى في هذه الرأفة سوى علامة ضعف³⁴⁸، لأن هؤلاء لا يتخذون أبدا الأسرى.

بلغ الاحترام في معاملة دو بورمون للأعداء أيما مبلغ، حتى أنه راعى المشاعر الدينية لمسعود، الذي أخذ بعد أسره إلى معسكر أقامه الفرنسيون في مجموعة مبان تقليدية محيطة بضريح ولي صالح كانوا قد استولوا عليها. اتخذ القائد من الضريح مقراً وغرفة استقبال، لكنه لما أراد استقبال أسيره اختار مكتب الجنرال ديسبراز Desprez في مبنى ثان، لئلا يجرح مشاعره الدينية.

في نفس هذا المعسكر، قاسم آميدي غرفته رسامان وصيدليان، ورجل يدعى لوازو Loiseau، كان يعبر عن فخر لم يشعر بمثله قط لأنه انتهى من تركيب آلة طباعة في المعسكر، لتكون بذلك أول مطبعة في إفريقيا. جلب الفرنسيون إلى إفريقيا إذن، بالإضافة إلى الحضارة المعنوية، التجهيزات التقنية ليخرجوها من ظلمات التخلف إلى نور الحضارة المادية.

³⁴⁷ – *Le roman de la conquête 1830*, op.cit, p190.

³⁴⁸ – *Ibid*, p 133.

قابل البدو، كما سماهم برتران في أغلب المواضع في هذه الرواية، إنسانية الفرنسيين النبلاء بوحشية شديدة وعدائية بالغة، هي من صفاتهم الجوهرية. ينقل السارد مشهدين تنسي همجية ثانيهما عنف الأول :

أما الأول فهو مشهد قتل الملازم آموروس Amoros، من الفرقة السادسة في الجيش الفرنسي، وكان قد تجاوز في نواحي اسطوالي حدود المنطقة التي يحميها الجنود الفرنسيون، فوقع في يد "بدوي عملاق كان في دورية في تلك الناحية". كبله وأخذه إلى شيخ الدوار القريب، لتكون نهايته القتل بصورة وحشية مع أنه "حاول دون جدوى أن يستجدي رحمة جلاديه. وضعوا رأسه على طرف سرج، وجاء الشيخ بسيف في يده قطع به رأسه على مهل ليطيل مدة تعذيبه"³⁴⁹.

وأما المشهد الثاني فقد بلغ فيه برتران من المبالغة حداً قد يثير السخرية ويؤكد كذبه، ولا يحتاج إلى تعليق، إذ "أجهزت امرأة بطعنات خنجرها على أحد جنودنا المجروحين، ثم شقت صدره وانتزعت قلبه. ولتقوم بهذه العملية المرعبة، كانت قد وضعت عل أرض صبيها الذي كانت ترضعه. ولما وجدت نفسها محاطة بجنود إحدى دورياتنا، سحقت رأس الصبي على صخرة، ولئلا تقع في يد العدو طعنت نفسها بالخنجر الذي كان لا يزال يقطر دماً"³⁵⁰.

يبدو أن الهوس بالمسلمين، والتحذير من خطرهم، وبالتالي محاولة تشويهم، قد أدخل لوي برتران في حالة مرضية. يمكن أن نتفهم تحذيره من خطر الإسلام بصفة عامة، وأن المسلم لا يضع السلاح إلا مؤقتاً، فهذا من وجهة نظر الحرب الصليبية مفهوم. يمكن أيضاً أن نتفهم استخدامه للاستعارة الحيوانية في الكلام عن الأهالي، من أجل إثبات دونيتهم، أي استحقاقهم للاستعمار.

³⁴⁹ – *Le roman de la conquête 1830*, op.cit, p 143.

³⁵⁰ – *Ibid*, p 144.

لكن مرضعة تضع صبيها لتشق صدر جندي وتزرع قلبه، ثم الطريقة التي قتلت بها صبيها والتي ستمنعها فطرة الأمومة من فعلها ولو كانت مختلة عقليا، ثم قتلها لنفسها وهي مسلمة والإسلام يحرم ذلك، كل هذا يجعلنا نعتقد أن المؤلف وصل به الكبت مرحلة الجنون.

لم ينسب برتران هذا القدر من الدموية حتى للرجال من المسلمين، وإذا عدنا إلى مواطن سابقة من تصويره للمرأة العربية ازددنا استغرابا من سلوكه معها، فالنايليات في دم الأعراق، كن مقرفات ومخيفات لدرجة أن رافاييل الذي لم يردّ امرأة قط، لم يتجرأ على مسهن. أما غير ذلك فلا نجد لها ذكرا إلا بعض الإشارات، من بعيد دون تفصيل في الوصف، عن نساء أحياء القصة اللائي كن يمارس البغاء.

لقد تجرأ برتران على الرجل أكثر من جرأته على المرأة، هذا يؤكد من جهة عقدته الجسدية التي تحدثنا عنها في سيرته، وفي قراءة دم الأعراق، ويبرز من جهة أخرى جهله بهذه المرأة التي أبقاها حجابها والتزامها بعيدة عن الأنظار، فلم يتمكن من إخضاعها لملاحظته ولقلمه فبقي جوهرها مكنونا عنه وعن الكتابة الاستشراقية بصفة عامة، ما عدا صور ألف ليلة وليلة القديمة أو كشك هانم الراقصة، أما المرأة المسلمة العادية في حياتها اليومية فلم تكن في المتناول.

يصرح برتران بهذا الحرمان : "يبقى تحرير الوجوه النسائية مشكلا يربع الأذهان الأكثر صرامة [...] هذا الغموض الذي تبقى فيه المرأة المحجبة، لا يزيد الغربيين إلا سخطا باستفزاز فضولهم"³⁵¹.

³⁵¹ – BERTRAND Louis, *Le sens de l'ennemi*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1917, p 227.

تدل هذه العبارة على أن سلوك برتران، وحتى غيره من الكتاب الغربيين، ما هو إلا انتقام لحرمانهم من الوصول إلى المرأة المسلمة والاستيلاء عليها كما استولوا على الأرض وخيراتها. واستخدم برتران مصطلح غربيين، لأنها القضية عامة ولا تتعلق بمنطقة معينة بقدر ما تتعلق بصدام حضاري.

هذا هو إذن لوي برتران في مرحلة الذروة من حياته الفكرية، أو بالأحرى من مشروعه الكولونيالي، اتخذ وضعية الهجوم، ووسع حقل الرؤية والنقاط المستهدفة، كما زاد حدة الانتقاد ودرجة التشويه للوصول إلى إصابة الأهداف، هي أيضا مرحلة الذروة بالنسبة للاستعمار في الجزائر، واحتفاله بذكراه المؤوية، فكان إذن قلب برتران ينبض بنبض الكولونيالية، وتتسارع دقاته أو تتباطأ، بمقدار الدم الذي تضخها فيه.

2. العدو الجديد والوحدة اللاتينية الكبرى

لقد حددنا نهاية المرحلة الثالثة من مراحل غزو الثقافة الاستعمارية للوعي الفرنسي فيما سبق، ببضع سنوات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، حرب كان برتران قد استشرّف قدومها وتحدث عن إرهاباتها في بعض كتاباته، خاصة تلك التي تحدث فيها عن القوة الألمانية التي صارت على وشك الانقراض على أوروبا، كتب عن هتلر Hitler وكتب عن نيتشه Nietzsche وغوته Goethe واستحضر ذكرياته اللورينية وزار مدنا ألمانية، فأحس بالخطر وعبر عنه.

عاش برتران بداية الحرب ورأى نبوءاته تتحقق، وعاش احتلال باريس، ثم مات في 1941 ولم ير نهايتها. فكانت الهزيمة أمام الألمان أول ما فتح عليه عينيه وآخر ما رآه من هذه الدنيا. وكما تركت هزيمة 1870 آثارا بليغة في نفسه لما كان صبيا من خلال مظاهر الحزن والمراثي ونتائج التقسيم، التي عاشتها اللورين، ترك احتلال باريس آثاره أيضا حين منع من رخصة الدخول إليها وأعلمه بذلك زميله في الأكاديمية آنذاك، بيتان Pétain بعد أن لم يأذن الألمان له بمنحه إياها، كان ذلك في 9 جويلية 1941.

استدل **موريس ريكور** بهذه الحادثة التي أصيب فيها برتران في مقتل وشعر بالإهانة الشديدة بتعبيره، من أجل الرد على الحملة التي طالت المؤلف واتهم فيها بأنه عميل لألمانيا ويدعو للتعاون مع هتلر، فلو كان كذلك لما منعه الإدارة العميلة من زيارة باريس، واحتج بيتان في رده بأن الإدارة الألمانية هي وحدها المخولة لمنحه الرخصة، فدل ذلك على أن الألمان اعتبروا برتران عنصرا خطيرا حسب ريكور الذي يعلق:

"هكذا يجد هذا "المتعاون" نفسه ممنوعا من امتياز كان رغم ذلك يمنح بكل سهولة لأي كان إذا بدا منه أدنى قدر من المرونة في عموده الفقري"³⁵². كناية عن الركوع.

³⁵² – RICORD Maurice, *Louis Bertrand l'Africain*, 2^e édition, A.Fayard, Paris, 1947, p .

والدليل الثاني حسب كاتب *لوي برتران الإفريقي*، هو رفض هذا الأخير إعادة نشر كتابه *المعنون هتلر*، بعد أن طلب منه الألمان ذلك، طلب خطي رسمي جاءه من السفارة الألمانية مع ضمان بمنح جميع التسهيلات للطبع والنشر، كان رد برتران كالتالي :

"طبعة ثانية من المطوية التي تكلموني عنها، ولو معدلة ومتممة، تبدو لي غير ممكنة، أولاً بسبب الوقت غير الملائم كما تعلمون وخاصة لأنها لا تستجيب للوضع الراهن، ولا للضرورات القائمة. لا بد من القيام بشيء مختلف تماماً، عندما يتضح الوضع ويستقر. ربما كتاب حقيقي"³⁵³.

غير أن الكتاب طبع فعلاً لأنه، كما يقول بول كريستوف Paul Christophe، "سيخدم بروباغاندا الغزاة، فقد صدرت منه طبعة ثانية في 1942. ضغطت السفارة الألمانية وفرضت إعادة الطبع، رغم رفض *لوي برتران* منح الموافقة عليها في فيفري 1941"³⁵⁴.

إن الطلب الخطي الذي أرسلته الجهات الرسمية الألمانية لبرتران بإعادة نشر كتابه على حسابها، ومنحها لجميع التسهيلات، يعطي المبرر لاتهامه بالعمالة أو على الأقل بالإعجاب بالألمان والتعاطف معهم. لم نتمكن للأسف من الوصول إلى هذا الكتاب، إلا بعض الصفحات من ترجمته إلى الإنجليزية، وبعض المقاطع التي وجدناها في كتب تتحدث عن الموضوع، ولهذا سنعرض منها فكرة عامة عنه، ونعتمد فيما بقي على ما ذكره ريكور في الملحق الذي خصصه في كتابه للدفاع عن أستاذه، وعلى بعض الكتابات التي عرضت مواقف برتران.

³⁵³ – Louis Bertrand *l'Africain*, op.cit, p 401.

³⁵⁴ – CRISTOPHE Paul, *1939-1940 Les catholique et la guerre*, Les éditions Ouvrières, Paris, 1989, p 50.

يرد التلميذ على هذا الاحتمال بأن الكتاب أسىء فهمه من الجانبين، الفرنسي والألماني معا، فقد اعتبره الطرف الأول دعوة إلى التعاون مع العدو الألماني، واعتبره الثاني إشادة به وانتصارا له، وهو ليس هذا ولا ذاك. يقول ريكور مدافعا عن أستاذه :

"إذا كان الأستاذ غريم وأوتو آباتز قد ظنا أنهما قد وظفا بعض عبارات الكتاب لصالح "العمالة"، فذلك لأنهما حملاها معنى لم يكن بطبيعة الحال فيها ولأنهما قطعاهما عن سياقها الضروري. استحضار لوي برتران لصالح "العمالة" يعني القيام بعملية احتيال أخلاقي. واتهامه بذلك يعني خبث النوايا"³⁵⁵.

قصة الكتاب، الذي يحوي مائة صفحة تقريبا، وهو كما يصفه الملخص عبارة عن تقرير عن زيارة دامت أسبوعا قام بها برتران لمدينة نورنبورغ الألمانية، هو الأسبوع الذي نظم فيه الحزب الوطني الاشتراكي الألماني مؤتمره بحضور هتلر، ليسجل ملاحظات عن الحدث وعن شخصية الزعيم النازي. ويتحدث الملخص الذي نقرأه في ظهر النسخة الإنجليزية للكتاب عن "شهادة مهمة عن الأحداث السياسية وعن أحد زعماء العالم ذوي التأثير الكبير على المستقبل"³⁵⁶.

لم يشرع برتران، حسب ريكور، في 1935 في رحلته إلى نورنبورغ إلا ليجمع المعلومات، وينقل على لسانه: "فقط لأرى ولأعي : ما هو دور كل مواطن يمكن أن يمارس أي أثر على الرأي العام"³⁵⁷.

تصدق فصول الكتاب هذا الوصف، بأنه تقرير يحوي مجموعة من الملاحظات والتعليقات على الحدث : كيف رأيت هتلر، كيف يصبح أحدهم دكتاتورا، إيديولوجية

³⁵⁵ – BERTRAND Louis, *Hitler*, translation by Dan Desjardins, Bloomington, Indiana, 2005, p 120.

³⁵⁶ – *Ibid.*

³⁵⁷ – *Ibid.*

الحزب الاشتراكي الوطني، كيف يجب أن يكون موقفنا من الهيتلرية. لكن الطريقة التي تحدث بها الكاتب والانطباعات التي نقلها قد يكون فيها شبهة اتهم على أساسها.

يشق على المؤلف كبت إعجابه بطريقة تنظيم التظاهرات على الطريقة الهيتلرية، "الفن المحكم الذي كان مسيطرا على الديكور، وعلى التقدم المنسجم لكل هذه الحشود؛ وبهتلر نفسه، "رجل ذو عزيمة، يتجه مباشرة نحو الهدف، دون خوف، ودون تردد، -رجل جد شجاع وجد بسيط". يدعو لوي برتران الفرنسيين إلى الثقة في هذا الرجل³⁵⁸.

لو لم يكن لبرتران كلام على ألمانيا، في الموقف منها وطريقة التعامل معها إلا كتاب هتلر، لتوقفنا عند ما يقوله موريس ريكور واكتفينا به، لكن له نصوص أخرى تعطي لخصومه دليلا آخر على التهمة المذكورة. منها مقال كتبه في 1941، لمجلة *آنتار-فرانس Inter-France*، يبرر فيه دعوته إلى التحالف مع الألمان أو إلى عقد اتفاقيات معهم، كلام يبدو أنه تراجع عنه لأنه قد يفهم بأنه اعتراف.

كتب برتران لصديقه ريكور أن كتابه عن هتلر كان لسنة 1936، وأنه لم يعد مناسباً للوضع الحالي، وأنه لم يتكلم في 1936 عن تعاون، ولا عن اتفاق، "إلا أن يكون ذلك في مستقبل بعيد نوعاً ما". هذه الرسالة كانت بتاريخ 28 أوت 1941، بعد شهر من صدور المقال، ذيلها، بعد أن أجاب مراسله عما كان سألته عنه، بملاحظة :

"مساء هذا الخميس 28. وبعد أن فكرت، لا تكتب شيئاً عن مقال *آنتار-فرانس*، الذي كتبتة من شهر ولم يكن له في ما بدا لي صدى كبير. بلغ الوضع حالة من الاضطراب

³⁵⁸ – BERTRAND Louis, *Hitler*, Fayard, Paris, 1936, p 57.

لا أريد معها أن أعقده أكثر. لا أرى لنفسي حقا في أن أعطي رأيا في الوقت الحاضر"³⁵⁹.

كانت الحجة الرئيسية لدى برتران في تبرير التحالف مع الزعيم النازي هي قطع الطريق أمام امتداد تأثير البولشفية في أوروبا. وقد وضح في مؤلفه أن التقارب مع ألمانيا لا يقتضي بتاتا "أننا سنهدىها قلوبنا وأرواحنا. بل نعلم أكثر من اللازم ما يفرقنا عنها وهي فروق جوهرية وغير قابلة للاختزال". وفي موضع آخر: "لا يتعلق الأمر بالاكتماء بلعب دور المتألق في المرتبة الثانية ... بل اتفاق كهذا لا يمكن تصوره إلا بين طرفين متساويين، وإلا إذا عزمنا على استخدام كل قوتنا، بل وعلى تكثيفها"³⁶⁰.

لكن تطور الأحداث وبداية الحرب ما كانت لتترك له أية حجة، ومن حاول أن يجد له العذر -بغض النظر عن دفاع ريكور فهو متعصب لأستاذه- قال أنه لم يدرك حقيقة النازية، مع أنه قال في عتبة كتابه: "بما أنه من السهل دائما أن نطعن في النوايا الأحسن، علي أن أقول بأنني لست هتلريا، يبدو لي كون فرنسي هتلريا أمرا غير معقول". أي أنه كان يعي احتمال تلقي كلامه بهذه الطريقة.

في الأخير، لا بد أن نشير إلى أن لوي برتران لم يكن الوحيد الذي اهتم بهتلر لما سطع نجمه، ففي سنة 1936 وحدها صدر كتابان آخران، أحدهما مطول والثاني أكثر اختصارا من كتاب برتران. بالإضافة إلى حوار أجراه مع الفوهر الصحفي الفرنسي برتران دو جوفونال Bertrand de Jouvenel، وبعض المعلومات المسربة عن حياته ونشاطه.

³⁵⁹ – MAUGENDRE L.-A, *La renaissance catholique au début du XX^e siècle*, Editions Beauchesne, Paris, 1971, p 342.

³⁶⁰ – *Hitler*, op.cit, p 119.

والمثير في القضية أن كتاب برتران لم يكن الأكثر صدق وانتشارا في فرنسا، لكن اختيار الألمان وقع عليه، كما أن الاتهام بالتعاون وقع عليه دون غيره من المؤلفين. في مقال وجدناه من جريدة باريس منتصف اليوم Paris Midi (وتحتل كلمة Midi ترجمتها بالجنوب)، بتاريخ 4 مارس 1936، يتحدث المحرر نوال سابور Noël Sabord عن ما نشر عن الفوهر في فرنسا، ويضع كتاب برتران في المرتبة الثانية.

"أكثر الكتب الثلاثة انتشارا هو كتاب فرانسوا دو توسون François de Tesson : ها هو آدولف هتلر Voila Adolf Hitler. ويتميز الكتاب بأنه، كما ينقل الصحفي عن مؤلفه: "ليس سيرة روائية للفوهر ولا قصيدة هجائية ضد الرايخ الثالث. بل كتاب توثيقي، ليس فيه تكلف الهجاء والنقد، بل محاولة للفهم. توثيق بلغ أقصى ما يمكن من الموضوعية والهدوء عن النازية وعن أعمال السلطة الهتلرية"³⁶¹.

وربما الفرق بين دو توسون وبرتران أن الأول لم يبد إعجابا كبيرا بالزعيم النازي وقدمه كـ "ألماني متوسط من عرق صافي، ذو هيئة عادية"، يكمن سر نجاحه في الصوت المدوي، والنظرة الحادة، وخاصة في "روح مغامرة وقيادية"، أما نفسيا فطبيعته المعقدة التي يصعب فيها التمييز بين ما هو صادق وما هو تمثيل مسرحي، جعلته مهابا.

الكتاب الثالث ألفه بيار ديكاف Pierre Descaves، يتحدث أيضا عن "ألماني متوسط"، يكاد يكون مهرجا، أو لاعب خفة بارع في استخدام العصا، تساعد في التأثير على الغير قوة من الطبيعة مع الصوت والعينين. لا يكمن سر نجاحه في الذكاء، بل في طبع حاد قاد به الرجال، ويختتم ديكاف هذا الكتاب المختصر بما يصفه الصحفي "صرخة تحذير موجهة لأوروبا".

³⁶¹ – Noël Sabord, *Et voila Hitler*, in Paris Midi, 26^e année, n°2714, Paris, Mercredi 4

Mars 1936, p 2.

يختلف برتران عن الاثنين في كونه 'رأى هتلر وعلم من هو"، إنه "رجل متميز"، يكمن سر نجاحه في أنه "كان بكل بساطة محل إعجاب"، ثم يشبهه ببونابارت الثاني "الذي كانت جاذبيته سببا في نجاحه". لم يكتب برتران، حسب صاحب المقال، بالموضوعية الأكاديمية السطحية، بل بعقلانية خشنة توقظ الفرنسيين من هذيانهم حول هتلر، وموقفهم الذي ينم عن غباء وسوء فهم وخوف، سيكون على الفرنسي عن قريب، أن يقولوا نعم أو لا، أمام عروض الفوهر. هذا جانب مما قالتها الصحافة عن الكتاب عند صدوره، ولم تحم الشبهة والتهمة حوله حينها، لكن الأحداث أدت إليها ولم تكن في صالح برتران.

إن هذا الاهتمام بالفكر الألماني، ولن نبالغ إن قلنا التأثير بالفكر الألماني، وخاصة بالروح الوطنية والولاء للعرق والالتزام لدى germانيين، لم يبدأ عند لوي برتران مع سطوع نجم هتلر، بل قبل ذلك بكثير. تحديدا في سنتي 1914 و 1915 فيما يمكن أن نصفه بثلاثية برتران الجرمانية، حيث كتب ثلاث مقالات نقدية لمجلة العالمين : *هيته سنه والحرب* Nietzsche et la guerre (مارس، 1914)، *وغوته والجرمانية* Goethe et le germanisme (نوفمبر، 1914)، و *نيتشه والبحر المتوسط* Nietzsche et la méditerranée (جانفي، 1915).

ومع أن المقالات جاءت بنبرة انتقادية تهجمية، خاصة المقالان الأولان، لتصور نيتشه للقوة ولتحالف فاوست Faust مع الشيطان، فإن القارئ المنتبه سيجد عبارات صريحة أو إشارات ضمنية عن إعجاب برتران بأفكار الرجلين، وإقرار لهما بالتأثير وبالإسهام في نهضة الأمة الجرمانية، فغوته ألهم في القرن الثامن عشر ألمانيا التي هزمت فرنسا في 1870، وألهمها نيتشه لتهدد أوروبا بأسرها في بداية القرن العشرين.

نبذة التهجم خفت في المقال الثالث الذي تكلم عن علاقة نيتشه بالبحر المتوسط، بمناخه وشمسه خاصة، والتي هي مصدر الطاقة والحياة، هكذا اعتبرها الفيلسوف

الألماني، وهكذا هي عند برتران منذ وطئت أقدامه الجزائر. بل نجد في هذا المقال دعوة إلى فهم نيتشه وأخذ بعض الدروس من فلسفته، درس القوة :

"من يرى أن كل هذه النظريات النيتشافية مرفوضة، وقد شوهتها الوحشية الشريرة والغلو في التعصب العرقي؟"

لا يرى ذلك كاتبنا إذ يعقب مباشرة على هذا التساؤل بقوله :

"لم نكن أبدا بحاجة إلى القوة من أجل الدفاع عن حقنا مثلما نحن اليوم، كما لم تبد ضرورة أن نصبح أقوىاء بالقسوة التي هي عليها اليوم. [...] يمكن أن نأخذ من نيتشه النصيحة، مثلما وعّاها عنه أبناء بلده"³⁶².

لم ير الفرنسيون في نيتشه إلا فيلسوف داعيا إلى الفوضى في الفكر وفي الإرادة، ومدمرا للأخلاق وللميتافيزيقا، فردانيا وأنانيا بلا حدود، وهذا حقيقة بالنسبة لبرتران، إلا أنه يريد أن لا يمنع هذا الجانب المظلم في فلسفة الرجل وشخصيته من النظر إلى الجانب الثاني من فكره ومن شخصه، فنيتشه "في الواقع مربّ -مربّ للشعوب-" جاء يطلب مبادئ "بيداغوجيته البطولية" في الأرض المتوسطة العتيقة.

وبعد سنة من كتابة هذا المقال، عاد برتران بمقال آخر في نفس المجلة (عدد سبتمبر/أكتوبر 1916)، ليبدو مقتنعا بأن الطريقة الألمانية هي الأنجع للنهوض بفرنسا وإعادة هيبته لها، نقصد بالطريقة تمجيد القوة والالتفاف حول العرق، خاصة لما بدأت ألمانيا توحيد الدول الجرمانية تحت مسمى البانجرمانية pangermanisme (الوحدة الألمانية)، وصارت تبدو القوة التي لا تقهر.

³⁶² - Bertrand Louis, *Nietzsche et la Méditerranée*, In la Revue des deux mondes, LXXXIV° Année, Sixième période, Tome vingt-cinquième, Paris, 1 Janvier 1915, p181.

المقال المذكور عنوانه نحو الوحدة اللاتينية *Vers l'unité latine*، يقترح فيه الكاتب إنشاء وحدة إقليمية ويرافع من أجلها، وحدة تجمع الدول اللاتينية مثلما جمعت البانجرمانية الدول الجرمانية، وحدة تضم إيطاليا وفرنسا وإسبانيا أولاً، وهي الشعوب اللاتينية الأصيلة، دون أن ننسى الشعب اللاتيني الجديد في شمال إفريقيا. ثم يمكن أن تتسع الوحدة وتتحالف وفق المصلحة مع دول أخرى، روسيا وإنجلترا على وجه التحديد.

رأى برتران إذن مواجهة ألمانيا بنفس الطرق التي استعملتها هي، وقدم في مقاله الحجج على فعالية هذه السياسة، وحاول رسم خطة لكيفية بناء الوحدة اللاتينية المنشودة. الوحدة اللاتينية التي صنعت شعباً جديداً وعرقاً جديداً في الجزائر المستعمرة، نجحت بها فرنسا في مواجهة الأهالي العرب المسلمون، العدو الشرس للحضارة، ستنتج حتماً بالنسبة لبرتران في مواجهة العدو الجديد، ألمانيا.

مقدمة المقال هي عبارة عن استنتاج من الواقع الراهن الذي كتب في سياقه :

"قبل كل شيء، هنالك حقيقة من المهم أن نكون على قناعة تامة منها وهي ستكون مضمنة في هذه الدراسة من بدايتها إلى نهايتها: الإفلاس النهائي -والتي سلطت الحرب الأوروبية الحالية عليه ضوءاً ساطعاً- للدعوة إلى السلام وللإنسانية الثورية، التي تعتبر مثالية كونية"³⁶³.

لا بد على أوروبا -اللاتينية بطبيعة الحال- إذن أن تدع عنها المثالية التي لا يمكن أن تتحقق، والتي ستكون سبباً في نهايتها على يد العنصر الجرمانى. لم تدع الحرب العالمية الأولى مجالاً للشك في إفلاس الفلسفة الداعية إلى السلام والإنسانية، فإذا كانت أوروبا اللاتينية قد اعتنقت هذه المبادئ، فإن الأعداء لا يعترفون بها، ولا يفهمون منطقاً

³⁶³ - BERTRAND Louis, *Vers l'unité latine*, in La revue des deux mondes, LXXXVI° Année, Sixième période, Tome trente-sixième, Paris, Septembre/Octobre 1916, p 314.

غير منطق القوة. ينطبق هذا على الإسلام، العدو الأول والأبدي، وعلى ألمانيا، العدو الذي يمكن التعامل معه في ظروف معينة.

ومما يدل على أن برتران يضع الجميع -غير اللاتينيين- في بوتقة واحدة، بوتقة الأعداء هو وصفه لفرنسا التي يجب على الأصدقاء من العرق الواحد الانضواء تحت رايتها، بقوله : "وإذا كنا متحضرين، فنعلم على الأقل أن حضارتنا ليست إلا جزيرة صغيرة مفقودة في محيط من البربرية"³⁶⁴، جملة يحب تكرارها فهي هنا في سياق الحديث عن ألمانيا وهي أيضا في أمام الإسلام في سياق الحديث عن الإسلام.

نعم ! اللاتينية المسيحية في حرب مع الجميع، لأنها الجزء الوحيد الإنساني على هذا الكوكب. وعلى افتراض أن المبادئ التي يتحدث عنها هي مشتركة، بل واحدة بالنسبة للجميع، هنالك إنسانية أينما وجد إنسان، يجيب برتران بأنه "لا بد أن يكون كل من نقترحها عليهم بشرا، أي أفرادا واعين بكرامتهم أو يطمحون ليكونوا كراما"³⁶⁵، البشر إن لم يكن واعيا بإنسانيته -بمفهومها اللاتيني المسيحي- فليس بشرا ولا يجب أن يعامل بصفته كذلك.

وكما "أن النوايا الأكثر سلمية لا تضع بلدا ما في مأمن من الهجوم"، فإنه لا جدوى أيضا "من الترافع إلى التحكيم الدولي"، لأن التحكيم الدولي لن ينصف المظلوم إلا بالكلام، وسيكتفي بإصدار قرارات لن تطبق، فلن يحترمها الأعداء لأنهم لا يتبنون مبادئ الإنسانية والسلام، وليس للمحاكم الدولية الإمكانيات أو القوة التي تجعلها تفرضها عليهم، مجرد "رسالة ميتة دون دعم الدركي"³⁶⁶.

³⁶⁴ – *Vers l'unité latine*, op.cit, p 316.

³⁶⁵ – *Ibid*, p 316.

³⁶⁶ – *Ibid*, p 315.

بعد هذا العرض لاهتمام برتران بالفكر الألماني النيتشواي والغوتاوي، وإعجابه بهتلر، وإذا نظرنا إلى القضية من وجهة نظر إيديولوجية، سنجد أن هذا الاهتمام والإعجاب لم يكن بسبب ما رأى برتران وما قرأ عند زيارته لألمانيا، وبسبب الظروف والإحداث الراهنة التي عايشها فحسب، بل هناك ما هو أعمق : وهو أن الفكر الألماني -النازي- عبارة عن امتداد للنظريات العنصرية الفرنسية في القرن التاسع عشر، وهو تجسيد حرفي صريح لها. رضع هتلر وبرتران من نفس الثدي.

كان مؤلف كفاحي يدعو إلى عقائد لا تختلف بشكل محسوس عن عقائد أصحاب النظريات العنصرية، والذين يقال -حسب تودوروف- أنه قد قرأ لهم. الطبيعة عند هتلر أيضا ذات سلطة مطلقة ولا بد من الاكتفاء بالاستسلام لقوانينها : هذه الأخيرة تعلمنا أن الحياة كفاح وحرب، لا يبقى على قيد الحياة فيها إلا القادرون على خوضها، أي الأقوى : تماما مثل غوبينو الذي يعرف الحضارة بالتفوق العسكري. ويدين هتلر في البورتريه الذي رسمه للساميين بالكثير لرينان.

يمكن أن نقول عند هذه النقطة أن لكل إيديولوجية آثار التطبيقية وتجليات فنية، منظرو العنصرية الفرنسيون في القرن التاسع عشر وضعوا أسس هذه الإيديولوجية المبنية على العلمانية، وسمو العلم على الأخلاق، ثم جاءت نصوص برتران ومن على شاكلته من الكتاب الكولونياليين لتمثل تعبيرا فنيا عنها، ثم نازية هتلر لتمثل أثرا تطبيقيا لها على الرغم من أن "بوفون وغوبينو وورينان وتان لم يتصوروا يوما إبادة الأعراق الأدنى في غرف الغاز"³⁶⁷.

لقد أسهمت العلمانية التي أنتجت النظريات العنصرية في إرساء القواعد الإيديولوجية للأنظمة الشمولية، كما تجلت في نازية هتلر وفي السياسات الكولونيالية لفرنسا خاصة،

³⁶⁷ – *Nous et les autres*, op.cit, p 186.

أعمال غوبينو ورينان ولوبون وغيرهم هي التي مهدت لهوس هتلر في معاداة السامية
وهيأت الشعوب الأوروبية لتقبلها، ولم يكن لوي برتران سوى حلقة في هذه السلسلة
وضاربا بسهم في الساحة السياسية والاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن
العشرين.

3. بعث الأمة الفرنسية من جديد

بعد أعوام من الرحلة والملاحظة والتأليف والمحاضرة والمرافعة، انتهى برتران إلى تصور نهائي كامل ومتكامل للمشروع الذي يروم به إعادة إحياء فرنسا. فرنسا التي كانت تعيش آنذاك فترة جد صعبة، فترة ضعف وأفول جعلت مكانتها السياسية والفكرية والعسكرية، التي حصلت عليها بعد قرون، في خطر كبير، مع صعود قوى جديدة، خاصة -كما ذكرنا- ألمانيا التي أصبح تطورها يصيب العبقرية الفرنسية بالخلل من نفسها.

يلخص برتران هذا التصور في خمس اقتراحات أساسية سنجد في ثناياها وكتفصيل لها جل الأفكار التي التقيناها في قراءتنا لآثار المؤلف، مقسمة حسب المواضيع والمراحل الزمنية. تتمثل الاقتراحات، أو بالأحرى الأسس التي ستقوم عليها نهضة فرنسا في إدراك:

-أن العالم الخارجي (أي خارج فرنسا) موجود فعلا،

-وأن الوطن ليس هنا حيث يرقد الأموات، بل في كل مكان تحيي فيه فرنسا،

-وأن أفضل طريقة لتكون فرنسيا هي أن تسعى في اكتساب جميع الخصال التي يفتقدها الفرنسي،

-وأن تتأقلم مع ظروف ومتطلبات العالم الحديث،

-وأخيرا أن يعود الفرنسيون إلى بربريتهم.

فصل كل عنصر من هذه العناصر في كتاب معنى العدو (أو حس العدو) الذي ذكرناه من قبل، ويمكن ربط كل مبدأ بما قرأناه عند لوي برتران ثم ندرس ما تركته هذه الأفكار من أثر، لأننا نزعم أن برتران لم يكن مصدر إلهام لمنظري الجزائريين وأدبائها

فحسب، ولكنه وضع أسسا لذهنية اجتماعية وسلوك سياسي لا زلنا نلتمسه إلى يومنا هذا في فرنسا، وحتى في الجزائر.

يعبر عن ظل أفكار برتران القديمة الذي يمتد إلى حاضرنأ خطاب اليمين المتطرف، التيار الذي تشهد فرنسا خصوصا، وأوروبا عموما، عودة قوية له. ويصيب بنيامين ستورا إذ يربط بين خطاب جون ماري لوبان Jean Marie Le Pen، زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية التي تمثل التيار اليميني المتطرف، وخطاب الجزائر الفرنسية قديما على أساس أنهما خطابان بنيا على نفس القاعدة البلاغية، القاعدة التي أسس لها برتران وأضرابه.

"عاد حزب ج. م. لوبان إلى كل موضوع تم تناوله في وقت ليس ببعيد، وقت الجزائر الفرنسية. القاعدة البلاغية كانت نفسها بشكل غريب: الاستيعاب المستحيل للسكان ذوي الثقافة أو الديانة الإسلامية". بنى اليمين المتطرف على هذه القاعدة "ضرورة تهيئة الاحتقار القانوني للمهاجر، التفريق بين الوطنيين وغير الوطنيين ووضع جدار عازل بينهم"³⁶⁸.

هذا الاستيعاب المستحيل هو فكرة برتراندية خالصة، لا يمكن استيعاب عدو أبدي لا يضع السلاح إلا مؤقتا، لأن من جاؤوا بعده فتحو لهذا الاستيعاب منفذا وجعلوه ممكنا بدرجات متفاوتة ووضعوا له شروطا مختلفة، من كاتب إلى كاتب ومن تيار إلى تيار آخر، من روبير راندو إلى جون بومبي إلى أوديزيو، وغيرهم، إلى أن رأينا من الفرنسيين من ساند القضية الجزائرية. لكن برتران جعل الاستحالة أمرا مسلما، والعداوة قدرا محتوما.

كما بنى اليمين المتطرف على هذه القاعدة ضرورة احتقار المهاجرين، ولو استدعى الأمر سن قوانين لذلك، بل اعتبروها ضرورة بتعبير ستورا، كانت القوانين التي بدأت

³⁶⁸ – *Les Mémoires Dangereuses suivi de Transfert d'une Mémoire*, op.cit, p 12.

تسبها فرنسا المستعمرة من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، لتتوج بقانون الأهالي خير تعبير عن هذه الإرادة، إرادة الاحتقار.

إذا كان التصريح بهذا المبدأ قد اختفى أو صار غير مباشر، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، والتي شارك فيها عدد كبير من المجندين الجزائريين إذ كان لا بد من إبداء بعض الامتنان لهم، في الإعلام وفي الأدب وفي الخطابات السياسية وفي بعض التغييرات التي طرأت على قانون الأهالي، فإنه من ناحية السلوك الاجتماعي والمواقف السياسية بقي على حاله.

عبر عن ذلك بصيغة أدبية المؤرخ شارل أندري جوليان، نعيد ذكرها، في مقدمته لكتاب فرنسيي الجزائر، حيث قال: "يشبه كل فرنسيي الجزائر كاغايو، حقيرون ومحترقون"³⁶⁹.

لنعد إلى كتاب معنى العدو le sens de l'ennemi، لأنه يجمل ويلخص النظرية البرتراندية، فنختم بها لنجمع ما بعثناه في ثانيا هذه الأطروحة. يحتل العنوان بهذه الصيغة، يحتل باللغة الفرنسية معنيين لا مانع من اجتماعهما، وقد يستلزم أحدهما آخر، ونحن نرجح أن هذا ما قصده المؤلف. كلمة sens تستخدم بمعنيين : أولهما هو "المعنى" sens du mot أي معنى الكلمة، والمعنى الثاني هو "الحس" و"الحاسة" فيقال مثلا sens de l'humeur أي حس الفكاهة أو les cinq sens الحواس الخمس.

يصبح المقصود من عبارة معنى العدو إذن : إما معناه، أي أن الكتاب سيقدم تعريفا للعدو، يجب عن السؤال من هو العدو ؟ وهو لا يفعل ذلك بشكل مباشر، بل من خلال سرد للأحداث وتقديم للأمثلة. وإما "حس العدو" أو "حاسة العدو"، أي القدرة على

³⁶⁹ – NORA Pierre, *Les français d'Algérie*, Christian Bourgeois éditeur, Paris, sd, p 48.

الشعور به، وإدراك خطره. وقدّمنا أن المعنيين مقصودان كلاهما على الأرجح، لأن الحاسة التي تستشعر العدو لا سبيل إلى امتلاكها إلا عن طريق المعرفة.

قسم لوي برتران كتابه إلى فصول سبعة هي : *عدو الخارج وعدو الداخل، والحياة الفرنسية الناعمة، وفرنساتنا* — إن صح التعبير كترجمة للعبارة *nos autres Frances* — الأخرى، *إسبانيا العزيزة والقيحة، الإسلام، النسر اللاتيني، وحده الرب يبقى إلى الأبد.*

نقرأ تحت كل واحد من هذه العناوين مجموعة من النصوص، هي عبارة عن مقالات قصيرة منفصلة بعضها عن بعض ولكل عنوانه وموضوعه، تجمع بينها فكرة التي في عنوان الفصل. ينتهي كل فصل بتاريخ ومكان الكتابة. ولا نعلم إن كانت هذه مقالات منشورة في جرائد ومجلات ثم جمعت في معنى العدو، أو أنها خواطر ومتفرقات كان يكتبها في مناسبة أو رحلة أو زيارة ما وجمعها لما رأى فكرته تمت، وهذا هو الاحتمال الأقوى، فنحن لم نجد هذه المقالات في موضع آخر ولا ندعي الاستقصاء في البحث عنها، كما أن برتران لم يقدم أي معلومة عن الموضوع ولا أحال مقالا إلى مصدر.

يرسم الكتاب الذي نحن بصدد قراءته مخططا لتطور النظرية البرتراندية، نظرية لم يعرض لها صورة كاملة بل بناها شيئا فشيئا، وما كل جزء من أجزاء هذه النظرية إلا مرحلة من مراحل حياة برتران وتجربة من تجاربه تراكت لتعطينا في النهاية معنى العدو بالنسبة إليه، وتجعلنا ندرك القضية التي أفنى من أجلها عمره. هذه القضية هي الوطنية الفرنسية.

ستشكل نظرية برتران أصلا للقالب الإيديولوجي الذي يحكم باستحالة تصور ثقافة جزائرية ولا حتى فرنسية إلا من خلال منظور ثنائية هوياتية جامدة يستحيل التوفيق بين طرفيها. نبع هذا القالب الإيديولوجي من هذه الفترة البرتراندية، فترة الاستعمار في أوج قوته وتعصبه، والتي شيدت فيها الجزائر، نقصد الجزائر المستعمرة بمدنها ذات الطابع

الأوروبي، وبلغت من القوة السياسية والاقتصادية درجة طالبت معها بالاستقلال عن الميتروبول. كانت أعمال برتران التعبير الأكثر شمولية عن هذه الإيديولوجية.

قلما تذكر أعمال برتران المتأخرة، مثل هذا الكتاب، ويحسب في أغلب الدراسات التي تحدثت عنه على الأدب الكولونيالي في الجزائر، وأن نصوصه هي نصوص جزائرية. نعم، بنى برتران كل فكره على التجربة الجزائرية، لكن أعماله الجزائرية البحتة – بمعنى التي تدور أحداثها في الجزائر يلعب فيها أوروبيو الجزائر دور الشخصيات الرئيسية – لم تكن سوى جزءا من كتاباته.

عبارة "لوي برتران الإفريقي" التي أطلقها موريس ريكور على أستاذه، فيها إذن شيء من المبالغة. كان إفريقيًا في الفترة التي عاشها في الجزائر، لكنه عاد إلى أصله فرنسا كاثوليكيًا وملكياً. لتصبح إفريقيا، أو بالأحرى الجزائر، مكونا من مكونات إيديولوجيته، يمكن أن نضيفها إلى تاريخ الأفكار الذي عرضناه في الفصول الأولى وكان القاعدة التي انبنى عليها تكوين برتران وثقافته.

وقولنا أن الجزائر مكون من مكونات إيديولوجية برتران لا يعني أنه مكون عادي، بل هو المكون الذي ميزه عن مفكري تلك الفترة، خاصة الكاثوليكين والملكيين المتعصبين المنتمين للطبقة البورجوازية القديمة التي بدأت تفقد مكانتها وامتيازاتها في إطار الجمهورية. برتران إذن يشبه رينان أو غوبينو أو أمثالهم، يتفق معهم في الغاية لكن وسيلة الوصول إليها والبرنامج المسطر ليس واحدا، رسمته عند برتران تجربته الجزائرية.

يكمن الفرق في كون أدباء فرنسا ومفكريها وسياسيها في تلك الفترة لا يعتبرون المستعمرة سوى أرضا يمتلكونها، تدر عليهم الخيرات وتسهم في صنع ثروتهم، وليس من في المستعمرة سوى عمالا يشرفون عليها أو عبيدا يشتغلون فيها. أما برتران فجعل منها

مصدر الطاقة التي ستحيي فرنسا من جديد، ستستعين هذه الأخيرة بالقوة التي تمنحها إياها الجزائر على منافسيها، ألمانيا خاصة.

أول محطة في الكتاب هي التوعية بخطر هذا المنافس، أو بالأحرى العدو، العدو الخارجي المتحالف مع عدو داخلي -سناطي على ذكره- ولا بد من محاربتهم معا، يرفق برتران بعنوان الفصل (عدو الداخل وعدو الخارج) عبارة "لا نتجنب الحرب في الحدود إلا لنجدها في الشارع". يجد برتران هذا الوعي، الذي يمتلكه سكان المستعمرة وسكان الحدود مع ألمانيا مثله هو ابن اللورين، مفقودا عند الفرنسيين في الميتروبول :

"في ما عدا مستعمراتنا ومدننا الحدودية، يبقى الفرنسي تحت تأثير مخدر الوهم بالأمن وفي عادات رسخت لديه، ويمنعه ذلك من التفكير في خطط الجار الماكرة"³⁷⁰.

سبب غفلة الفرنسيين هو أولا "سذاجة الناس الطيبين الذين يريدون الخير للجميع" يقصد الفرنسيين ثم يقول "نحن مقتنعون أن الجميع يبادلوننا نفس الشعور". وثانيا البروباغاندا المريبة لصالح الحركة الشيوعية العالمية، التي "نومت الفرنسيين بالقضية الاجتماعية".

كل هذا في وقت يغزو فيه السواح والمستثمرون الألمان سواحل جنوب فرنسا، "بقعة زيت تتسع، شيئا فشيئا، حتى تغطيها"³⁷¹، في دلالة على رغد العيش الذي وصلت إليه ألمانيا، بالإضافة إلى قوتها العسكرية الهائلة. يتعجب برتران من سذاجة الفرنسي الذي يحدث كل هذا أمام عينيه ولا يحرك ساكنا، بل يعتقد أنه يصنع "الجمهورية التي تنير العالم"، هذه نتيجة "الموجة الحمراء" التي تضرب فرنسا وتهددها بالانهيار.

³⁷⁰ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 27.

³⁷¹ – *Ibid*, p 41.

هذا هو العدو الداخلي بالنسبة لبرتران : "الموجة الحمراء [...] تقف حكومتنا الشبح عاجزة عن استيعابها أو قيادتها. نقف مكتوفي الأيدي ونراها تمر. وأشجعنا يكتبون عنها"³⁷².

من يقرأ كلام برتران هنا، ثم يربطه ببعض ما قاله في مذكراته من جهة، وبأحداث التي عاشها خلال طفولته في اللورين، والأجواء التي سادتها آنذاك، سيفهم خوف برتران وعداوته للجمهورية وللإشتراكية، ثم حنينه إلى الملكية التي ترك سقوطها على عائلته، بل على الطبقة البورجوازية التي ينتمي إليها بالغ الأثر.

الفترة التي نتحدث عنها هي فترة ما بعد هزيمة 1870، سنوات خيم فيها خوف كبير، ومعه جو من الانتظار، انتظار نهاية العالم، أو قدوم مسيح آخر الزمان، انتظار ارتبط بعمق بالأمل في عودة النظام الملكي، وكان في اللورين وخاصة في المناطق الريفية منها أشد الناس اعتقاداً في النهاية، فقد كانت هذه المنطقة هي الجبهة الأمامية والساحة الرئيسية للحرب.

لم يول هؤلاء اهتماماً بالجمهورية التي أنزلت الملوك عن العرش ودمرت أسس الدين، بالإضافة إلى أنهم اعتبروها أضعف من أن توفر الأمن والأمان. وكانوا بالمقابل مع نظام قوى، هرمي وشديد على كل أشكال الليبرالية الاجتماعية أو الأخلاقية. باختصار، المثال الأعلى هو كونت شامبور والبابا بي التاسع.

ظهر هذا الجو الرجعي الذي يسود اللورين جلياً في الحفلة التي نظمها راهب سبانكور والتي فرح بها برتران أيما فرح. كانت إذن هذه الآمال في عودة الملكية ذات صبغة دينية واضحة : العودة إلى المحارب، دعوات إلى التوبة والتكفير عن الخطايا، الرجوع إلى

³⁷² - *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 68.

الغذاء، عودة مذهب القلب المقدس، الحج إلى لورد وساليت وإحياء الإيمان بالمعجزات (ظهور الغذاء).

إنه التاريخ يعيد نفسه، عودة القوة الألمانية، وعودة الخوف، وعودة الحاجة إلى الإيمان وإلى شخصية المخلص المتمثل في الملك أو الحاكم يضع الناس ثقتهم فيه، وقد يكون هذا من أسباب إعجاب برتران بزعيم النازية القوي، كما ذكرنا سابقا في هذا الفصل.

هذه هي القاعدة الصلبة التي لا بد للأمة أن تنهض عليها، أما الحركة الشيوعية الاشتراكية فهي حركة ذات مبادئ المزيفة، لم ينتج عنها إلا شل اقتصاد البلد بإضراباتها ونشاطاتها، وبطيل برتران، كدليل على ما يذهب إليه، الحديث عن إضرابات ميناء مرسيليا المتكررة، خاصة بين 1890 و1903، وعن الخسائر التي سببتها والفرص التي منحتها للأعداء، ويشبه النقابات بقوله "إنه المتوحش الذي يقطع الشجرة من أجل قطف ثمارها"³⁷³.

مهما تخفى برتران بأفكار دينية أو إنسانية أو أدبية، فإن الخطاب الطبقي ما يلبث أن يعود إلى السطح في نصوصه، صوت الطبقة البورجوازية التي فقدت الكثير من امتيازاتها مع قيام الجمهورية، ومع انتشار الحركة الاشتراكية الشيوعية العالمية. لن تغيب عن ذهن برتران معاناته المادية أيام طفولته وت مدرسه بعد أن ضاقت وضعية العائلة المالية، مثلما ذكرنا سابقا في عرضنا لسيرته.

لن نجد في هذا السياق اعترافا أو دفاعا عن الطبقة المهددة، بل سيجد برتران مبررات أخرى وحججا يهاجم من خلالها حركة العمال، من بينها أن هذه الحركات الاحتجاجية والإضرابات تلحق بفرنسا أضرارا، ليست اقتصادية فحسب، بل سياسية وسيادية :

³⁷³ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 74.

"الحقيقة هي أننا بعيدون عن التأثير على البلدان الأخرى، بل معزولون، مجرد مهووسين ناعمين، مسجونون في أحكام مسبقة ضيقة جدا لا يحسدنا أحد عليها. عوض أن نقحم أنفسنا في محاولة تدريس العالم، الذي لا حاجة له إلى دروسنا السياسية ولا الاجتماعية، علينا أن نشتغل أكثر بالعمل وبتقوية أنفسنا : سيأتي الباقي بعد ذلك بأكثر مما نتوقع"³⁷⁴.

خاصة وأن الأعداء -الألمان بطبيعة الحال- يغتتمون فرص الركود والتوقف بسبب الإضرابات، ليتحركوا أكثر ويوسعوا نشاطاتهم، في حين يوهم الفرنسيون أنفسهم بأنهم يعلمون العالم حقوق الإنسان والمبادئ الاجتماعية.

بعد أن وصف الوضع وحلله، انتقل الكاتب إلى المرحلة الثانية من برنامجه، وهي عرض المقومات التي تمتلكها فرنسا للنهوض، فرنسا التي عاشت المجد قبل قدوم أفكار الجمهورية الهدامة، وعلى قول برتران "من لم يعيش قبل الثورة فما عرف رغد العيش"³⁷⁵. هذه المقومات نوعان : مقومات حضارية معنوية، ومقومات مادية : اقتصادية وعسكرية.

أما المقومات المعنوية والروحية فتتمثل في رموز فرنسا، رموز فرنسا المملكة المسيحية التي دمرتها فرنسا الجمهورية، ولم يزل برتران، خلال تجواله، يرى آثار الجراح التي خلفتها "الهمجية الثورية" le vandalisme révolutionnaire، في جميع أنحاء فرنسا. الثورة الفرنسية، تلك "الحماسة الماسونية" التي حولت اسم فناء الكاتدرائية إلى "ساحة الثورة"، وحولت اسم شارع الأسقفية إلى "شارع حقوق الإنسان".

"ومن يدافع عن حقوق الإنسان مثل الأساقفة، حماة المدينة"³⁷⁶، يقول برتران وكله حنين إلى فرنسا الملكية، حتى أنه يخصص مقالا برمته في هذا الجزء من الكتاب لصورة

³⁷⁴ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 60.

³⁷⁵ – *Ibid*, p 87.

³⁷⁶ – *Ibid*, p 91.

زهرة الزنبق، والتي كانت شعارا يزين راية المملكة وبنائياتها. روى المقال قصة وتغزل بجماله ونقل الأشعار في مدحه، ثم دعا إلى إعادته إلى مكانه ومكانته لتعود معه إلى الحياة الروح الفرنسية الأصيلة.

"كنا في الماضي بلا شك، عندما نسافر إلى الخارج، نحب إلقاء التحية لما نمر بهذه الأزهار الفرنسية، والتي كانت بنبها ترفع علم راية بلدها. اليوم، على العكس، نسلك طريقا غير الطريق الذي تواجهنا فيه الشارة الجمهورية البغيضة، التي لا تشرف سفاراتنا"³⁷⁷.

كانت الراية الفرنسية القديمة المزهرة علامة على الذوق الرفيع والفن الراقي الذي تميزت به المملكة، ذوق وفن ماتا ودفنا في الروح الفرنسية وعلقت على قبرهما الشارة الجديدة، علم الجمهورية الفرنسية. قد يبدو الكلام عن الراية بهذه الطريقة وإعطائها كل هذه الأهمية أمرا مبتذلا مبالغا فيه، لكن فيه تعبيراً عن المدى الذي بلغه التغيير في فرنسا، فتغيير الشعار يأتي بعد السيطرة الكاملة، فيريد برتران من الفرنسيين أن يشعروا بالخطر.

إن أثر التغيير السياسي أو الاقتصادي، مهما بلغت قوته، يبقى محدودا ومؤقتا إذا حافظ المجتمع على هويته وثقافته وذوقه العام والفني، إذ يمكنه متى توفرت الإمكانيات والظروف أن يستعيد سلطته على المجالين الأولين، أما إذا فقدت هوية فلن يجد إلى ذلك سبيلا. بل قد لا يضر مجتمعا ما، أن يكون تحت سلطة لا توافقه في الهوية أو المعتقدات ما لم تمس بهويته ومعتقداته هو، وكانت في نفس الوقت تحقق مصالحه.

من أجل التحليل، نطرح الفكرة هكذا مجردة مع اعتقادنا بعدم وجود صورتها في الواقع، فمن أمسك بزمام الحكم في رقعة ما، اجتهد في تحويل ذهنية المجتمع وهويته،

³⁷⁷ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 95.

وحتى ديانتته، باتجاه يضمن له البقاء، وهكذا كان حال الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وبالمقابل، قد يتطلب الوصول إلى الحكم عملا على الوعي وعلى الهوية، وهو ما يشير إليه برتران في سياق الحديث عن الغزو الشيوعي.

إذا نزلنا هذه الفكرة على الواقع سنجد الصورتين المذكورتين مع تفاوت كبير في حالات الصراع التي تتحققان فيها، بين أنظمة وشعوب، أو بين مستعمرين ومستعمرين، بين استعمار مباشر واستعمار غير مباشر. لكننا لن نخوض في هذا لأنه سيخرجنا عن الموضوع. لكننا نريد تنزيلها على برتران لنتبين طريقة تعامله مع الحالات التي يعالجها.

يدرك برتران هذا الصراع تمام الإدراك، صراع يمكن أن نقول عنه أنه بين المادي والروحي، وأيهما أشد تأثيرا على الآخر، وبالتالي أيهما لا بد أن يغلب، ويجعله هذا الإدراك يتخذ موقفا واضحا، وهو منحاز بقدر ما هو واضح، منحاز للمصلحة، مصلحة الطبقة داخل الوطن، ومصلحة الوطن في موازين القوى العالمية.

في سياق كلامه عن التهديد الألماني، يقدم برتران الجانب الاقتصادي المادي وأنه هو الأولى بالعناية كما رأينا في الفقرات السابقة، فدعا الفرنسيين إلى وضع مثلهم العليا ودروسهم الإنسانية جانبا وتوجيه الجهد إلى بناء الاقتصاد والقوة العسكرية. وما يعيق طريقهم إلى بناء هذه القوة هو المد الشيوعي فلا بد من التخلص منه ومن مبادئه، بالعودة إلى الرموز التي بنت مجد فرنسا القديم، فالخطر داهم وأي اشتغال بالفكر وبالمبادئ والقيم، سيمنح العدو التقدم.

أما في سياق الكلام عن المستعمرة، والسياسة التي يجب أن تتبع فيها، فيغلب برتران العمل على الجانب الروحي والفكري، وبناء الهوية اللاتينية المسيحية الجديدة على القواعد القديمة الموجودة في إفريقيا. لقد بينا في الفصول التي خصصناها للكلام عن المسيحية واللاتينية في أعمال الكاتب، الاهتمام الكبير الذي حضي به إحياء هذه الهوية

عنده. وذلك أن القوة الاقتصادية والسيطرة السياسية والعسكرية موجودة في المستعمرة، ومضمونة للطبقة البورجوازية، تحتاج فقط إلى الشرعية التي تمنحها إياها الهوية.

لفت انتباهنا في هذا السياق عرض برتران اللاتينية لغة وثقافة، ومكانها من التعليم والتعليم العالي في الميتروبول، للنقاش، ولو عدنا إلى أعماله التي توصف بالإفريقية لما وجدناه بهذه المرونة. تعلم اللغة اللاتينية ودراسة التاريخ الروماني فرض عين عند لوي برتران الإفريقي. أما لوي برتران الميتروبولي فيرى رأيا آخر، فيه لكن :

"مع أنني، مثل الكثير من نظرائي، مؤيد مقتنع للاتينية وللإنسانيات القديمة ... لكن بشرط، هو أن لا يكون لهذا التعليم بطبيعة الحال طابع النفعية"³⁷⁸.

لم يكن تأييد برتران للاتينية مشروطا لما كان في الجزائر، أما في الميتروبول فهو يضع لتأييده شرطا يجعل من تعليمها محدودا، وتوضيحا لعبارة "أن لا يكون لهذا التعليم بطبيعة الحال طابع النفعية"، فتعليم اللاتينية يجب أن يقف عند إنقاذ التقاليد الفنية والفكرية والحفاظ عليها، ولا داعي إلى ما عدا ذلك. ويوجه برتران في هذا السياق انتقادات إلى الطرق التعليمية المنتهجة في ألمانيا وفي السوربون لتدريس اللغة اللاتينية، في التطرق إليها إطالة لا داعي لها. ثم يستنتج :

"لا يتعلق الأمر بتخزين القواعد النحوية، والأحداث والتواريخ، أو بالتفوق في اللغة الفرنسية، أو بتحصيل لقمة عيش : بل يتعلق بإنقاذ تقاليدنا الفنية والفكرية والحفاظ عليها [...] تمجيد القول الفصيح، تمجيد الجمال، والأناقة والدقة، والاختصار مع وضوح الفكرة، كل هذا علمنا إياه أساتذة روما الشيوخ"³⁷⁹.

³⁷⁸ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 137.

³⁷⁹ – *Ibid*, p 137.

في هذه العبارة تلخيص لما سماه **وحيد بن بوعزيز** "الرومنة"، كما ذكرنا من قبل، التي أخذت حظا كبيرا من أعمال **برتران**، وفيها أيضا توضيح لما قد يتوهمه البعض من اهتمامه الكبير باللاتينية حضارة ولغة. فهو لا يقصد من تمجيدها ودراستها وإعادة إحيائها، أن تدرس اللاتينية في المدارس بقواعدها وبلاغتها، وأن يدرس التاريخ الروماني، بل يُكتفى من كل ذلك بما من شأنه الحفاظ على العرق اللاتيني وخصائصه.

يتضح من هذا أن كل ما رأيناه من بحث وتقيب في أدق تفاصيل الحياة اللاتينية في الحقبة الرومانية في شمال إفريقيا، وكذا من سير وروايات كان أبطالها لاتينية، ليس له داع في الميتروبول، ولم يكن الهدف منه سوى إعطاء الشرعية للاستعمار وإراحة الضمير الكولونيالي، وضمان إدماج الجزائر المعنوي في الحضارة اللاتينية عن طريق هذا الربط الهوياتي.

ليست **الرومنة**، أو العودة إلى التراث اللاتيني هي الوسيلة لإحياء فرنسا من جديد، بل هي مجرد شرعنة للوسيلة التي سيتطرق إليها **برتران** في المقالات التالية من الكتاب : الاستيطان، والوصول في تحقيقه إلى إحلال العنصر الأوروبي محل العنصر العربي الإسلامي، ومنطق **برتران** معروف في هذه المسألة، منطق عرقي يقابل بإنجازات المستعمر بفعل نشاطه وفحولته، بكسل العربي وانحرافه الذي يوجب إقصاءه من الأرض.

ما يجب أن يفهمه الفرنسيون، الشباب منهم خاصة، هو أن فرنسا ليست الميتروبول، بل هناك فرنسات عديدة، إن صحت ترجمة عبارة *d'autres Frances*، لأن "الوطن ليس حيث يرقد الأموات : بل في كل مكان تحيى فيه فرنسا". والعمل الذي يجب أن يقوم به أصحاب القرار في فرنسا، ليس تدريس اللاتينية والإغريقية وماضي أوروبا المجيد، بل إعطاء الشباب دروسا تطبيقية وحماسية توقظهم من غفلتهم وخمولهم.

ومن أفضل من الاستعمار ليعطيهم هذه الدروس، فيقول برتران : "لا يوجد مكان تعليمي وتربوي في العالم يضاهي هذا المكان (الجزائر)، بالنسبة للشباب الفرنسي الذي لا زال يتابع دراسته".

ثم يبين عناصر هذا الدرس : "حيث تسجل كل خطوة التاريخ البطولي للغزو، حيث تحقق الحركة الحضارية اليوم إنجازات عظيمة، حيث ينظم العمل البشري بقوة وبإقدام صارا نادريين جدا عندنا، حيث تتنافس روعة الآثار القديمة روعة المناظر، أما الهدف الذي سيتحقق فهو أن الشاب "سيستمع إلى الدرس الحماسي الذي يقدمه الماضي، وسيرى كل خصال عرقنا الفحولية في مثال حي منتصبا أمام عينيه"³⁸⁰.

هذا هو الدرس الحقيقي الذي لا بد أن يعطى للأجيال الصاعدة في فرنسا، درس العمل والفحولة، ولو على حساب حقوق شعوب أخرى؛ أما التاريخ القديم فيبقى في إطار الأدب والكتابة التراثية لكي يحفظ من النسيان.

ويعطي برتران في الكتاب بعض التفاصيل عن عناصر هذا الدرس، بعد أن يعبر عن انبهاره بالتحول الهائل الذي حدث في الجزائر بعد أن عاد إليها، ولم تطن المدة طويلة. من هذه التفاصيل تحويل الاستعمار ثكنة انكشارية إلى ثانوية الجزائر العاصمة، تحولت إلى منارة للعلم بعد أن كانت رمزا للظلم والقهر، فقد كان تجار المناطق المجاورة لا يدخلون العاصمة إلا مقابل دفع جزء من سلعهم للعساكر.

ومنها العزة التي يشعر بها الفرنسي عند زيارته الجزائر، لما يشاهده من إنجازات، وهذا ما يجب أن يحل محل الشعور بالحرج وبالإهانة بعد زيارة ألمانيا أو إيطاليا، اللتين شهدتا في فترة ما بين الحربين نشاطا هائلا، خلافا لفرنسا الغارقة -بتعبير برتران- في فضائح السياسة التي لوثت ذهن الفرنسي وحطمت معنوياته.

³⁸⁰ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 155.

ومنها ربيع الجزائر الشمس المزهرة الذي يعيد إلى الروح سعادتها، ومنها أسرارها ومناطقها الغامضة التي تثير الفضول وتدعو إلى الاستكشاف، ومنها كنائس شمال إفريقيا المليئة بالمؤمنين الملتزمين بصلواتهم وبأعطياتهم لها، بعد أن هجرت كنائس فرنسا وصارت مجرد أطلال تزار كمتاحف لا على أنها أماكن عبادة، من أجل هذا يقول برتران بكون المستعمرة مصدر الحياة الوحيد لفرنسا.

إن ما يمكن أن يجعل الشاب الميتروبولي مترددا في الذهاب إلى الجزائر، أو رجل الأعمال في الاستثمار فيها، أو السياسي في اعتبارها مقاطعة إدارية فرنسية، هو وجود العنصر المحلي، كان برتران في الأعمال الأولى يتحدث عن العربي، أو عن الأهالي، ثم صار عدوه في نهاية الأمر الإسلام بصفة عامة. لا يخفي برتران هذا التهديد بل يوجه إلى الطريقة الصحيحة في التعامل معه، والتي أخطأتها الإدارة الاستعمارية.

أول ما يجب على الإدارة أن تعرفه هو أن الإسلام بصفة عامة عدو أبدي، بحيث يجعل برتران حديث النبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت ظلال السيوف"، عنوانا فرعيا لمجموعة المقالات التي يخصصها للإسلام في الجزائر، والعنوان الرئيسي هو كلمة "الإسلام"، فنجد في صفحة بيضاء كلمة الإسلام بالبند العريض، وتحتها الحديث المذكور، فيتحقق الرابط بينهما في ذهن القارئ قبل القراءة ولا ينفك خلالها، بل يترسخ.

يكثر الكلام في فرنسا عن الدور المهم الذي تلعبه المنظمات والجماعات الإسلامية في الشمال الإفريقي، ولا يجهل أحد -حسب برتران- التأثير العميق التي تمارسه، وكذا عداءها الصريح للتواجد الأوروبي وللحضارة الأوروبية بصفة عامة، والجزائر تنتمي حسبه إلى المذهب الأكثر رجعية من بين المذاهب الإسلامية : المذهب المالكي.

لا يكمن الخطر الأكبر في الجماعات أو المذاهب بقدر ما يكمن في المسلمين كأفراد فمعهم "لا يمكن أبدا أن نعرف خفايا الأشياء"³⁸¹، والخطأ الكبير الذي وقعت فيه الإدارة الاستعمارية هو "التمييز بين المؤمن والمواطن"، وتطبيق "المبدأ اللائكي القائم على فصل الكنيسة عن الدولة" على المسلمين، وكأن "الإيمان بالنسبة للمسلم حدث فردي، داخلي، ليس له أي أثر ملحوظ على الممارسة"³⁸².

الإسلام إذن هو العدو الأبدي للحضارة الأوروبية، والمسلم إنسان غامض لا يمكن فهم نفسيته ولا الوثوق فيه، فوجب على الإدارة الاستعمارية أن تتعامل معه على هذا الأساس وأن تطرح أي فرضية لاستيعاب المسلمين أو إدماجهم في نظام الدولة المدنية. وقد سبق الكلام عن هذا بما يغنيينا عن إعادته.

بعد الحرب العالمية الأولى وبرز الحركات الوطنية وبداية النضال في المجتمعات المستعمرة، شعر برتران مثل غيره بالخطر على الاستعمار، ففتح قليلا باب المدينة الممنوعة أمام المسلمين، لكنه فتح مشروط إذ يقول "أرى أنه يجب علينا عمل المستحيل لجذب مسلمي إفريقيا نحو ثقافتنا"³⁸³. العداء هو العداء والإدماج مرتبط بالتخلي عن الإسلام.

وقد يتبنى خطابا مسترضيا تجاه الأهالي يعطيه أحيانا نبرة إنجيلية : "يا رجال إفريقيا، كونوا عادلين لتصيروا إخوة، كونوا إخوة لتقوموا بعمل خالد، كونوا عادلين وستتجزون عملا فرنسيا، فلما لم تكونوا كذلك بالدم فكونوا بالروح على الأقل"³⁸⁴. المهم هنا أن لا نتوهم أن برتران تساهل أو غير موقفه من الإسلام والمسلمين، هو لا يهتم مثقال ذرة بمصيرهم بل كان همه الوحيد حماية المنظومة الاستعمارية.

³⁸¹ – *Le sens de l'ennemi*, op.cit, p 221.

³⁸² – *Ibid*, p 219.

³⁸³ – *Louis Bertrand, miroir de l'idéologie coloniale*, op.cit, p 262.

³⁸⁴ – *Ibid*, p 263.

في نهاية هذا الكتاب، معنى العدو، يتحدث برتران عن إسبانيا وعن إيطاليا فهما الشريكتان في حال أرادت فرنسا تأسيس وحدة لاتينية، ولا يفوت برتران أية فرصة في التذكير بالماضي المشترك الذي لا بد أن يفضي إلى مصير مشترك بين فرنسا -بقيادتها طبعاً- والجارتين.

ويختم بخواطر إيمانية يتحدث فيها عن وجوب عودة العرق اللاتيني إلى الديانة المسيحية وتعاليمها السامية، متحدثاً عن حج المؤمنين إلى منطقة لورد Lourdes المقدسة، وكأنه يشير إلى أن تمثيل العالم المسيحي لا بد أن يكون لفرنسا.

إن قراءة هذا الكتاب ترسم لنا مخططاً للمشروع البرتراندي، عناصره ومراحله وغايته النهائية التي هي إحياء الأمة الفرنسية وإحياء فرنسا المملكة المسيحية الأوروبية، التي يتربع على عرشها عرق نقي. يؤكد لنا هذا المخطط أن برتران لم يفصل أبداً القضية الاستعمارية عن القضية الوطنية -كما لاحظ رابح بلعمري-، لقد وظف نظريته الاستعمارية لأجل عقيدته الوطنية المتعلقة بإعادة بعث فرنسا اجتماعياً و أخلاقياً.

إن الاختلاف الوحيد بين برتران وبين المنادين بإحياء الأمة الفرنسية، مثل سلفه في الأكاديمية الفرنسية موريس باراس Maurice Barrès، من أصحاب الاتجاه اليميني المغلقين في الميتروبول، هو أنه يرى الخلاص لفرنسا في امبراطوريتها الاستعمارية التي اعتبرها مدرسة للطاقة الوطنية.

لقد استقر المشروع البرتراندي على هذه الأفكار إلى آخر حياة مؤلف، وكتاب معنى العدو نشر في 1926، وما تلاه من كتابات لا يخرج عن الإطار الذي وضعه، وهي إما كتابات سياسية عن الوحدة اللاتينية وعن التهديد الألماني، وإما مذكرات أو روايات يرثي فيها اللورين أو يعبر فيها عن معاناة المعمرين، ليختم مسيرته بكتاب عنونه *الغروب* Crépuscule وهو تعبير عن أفكار وخواطر رجل يفارق الدنيا، إذا غضضنا فيه النظر

عن الذكريات وبعض الأحداث نجد محتواه هو محتوى كتاب معنى العدو بأسلوب أقرب إلى الأدب.

خاتمة

لقد تناولنا بالدراسة في هذه الأطروحة خطابا أدبيا نقل واقع فترة معينة، من نهاية القرن التاسع عشر إلى بدايات الحرب العالمية الثانية، وهي أيضا الفترة التي اشتغلت فيها الآلة الاستعمارية الكولونيالية بأقصى قوتها. فاستنزفت فرنسا ثروات مستعمراتها المادية والبشرية من أجل خوض الحربين، ومن أجل الإبقاء على مكانتها كقوة كبرى، وكانت أكبر ضحية لهذا الاستنزاف هي الجزائر، أكبر وأهم مستعمرة.

إلى جانب عمل الجيش ورجال السياسة، أدى الأدباء والنقاد وعلماء الإنسانيات ورجال الدين دورهم في ضمان اشتغال هذه الآلة، وهو دور ما كانت فرنسا تنتج لولاه. ألم يقل لوي برتران عن لافيجري أنه نجح حيث فشل رجال الجيش والسياسيون ؟

إن ما قمنا به في هذا العمل البحثي هو العودة إلى نقطة انطلاق مشروع أدبي ثقافي أسدى للسياسة الاستعمارية خدمات جليلة، المشروع البرتراندي الذي تحول إلى الجزائرية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى وضع هذا العمل قاعدة بلاغية لا زالت السياسة الفرنسية تبني عليها خطابها إلى اليوم، وصنع صورا نمطية وقوالب لازال الذهن الفرنسي، بل والجزائري أيضا، يبني عليها تصوره لنفسه وللآخر.

لم يكن برتران أول من أثار المواضيع التي تطرقنا إليها بالتحليل في أعماله، فقد سبقه إلى التاريخ اللاتيني والمسيحية في شمال إفريقيا العديد من علماء الدين والآثار، وسبقه إلى وصف الجزائر وطبيعتها الخلابة وخصائص سكانها الكثير من الأدباء، وسبقه إلى التمييز العرقي وترتيب الأجناس بناء على الربط بين الفيزيولوجي والذهني الكثير من المفكرين والعلماء، وسبقه ميزات إلى الأدب البيكاريسكي وقصص الصعاليك من أبناء المستعمرة الجدد.

لكن ميزة هذا الكاتب، النابعة من كونه أستاذا للبلاغة، أنه أذاب كل ذلك في بوتقة واحدة ليصوغه في قطعة فنية أهداها إلى الإدارة الاستعمارية وإلى المستوطن الأوروبي،

أراح بيها ضميرهما الإنساني بحيث أثبت لهما الشرعية الكاملة لما كانوا يمارسونه من انتهاكات في حق الإنسان والأرض.

لم يكن برتران كما قلنا أول من تكلم فيما تكلم فيه، ولم يكن هو الأخير بل كان مصدر إلهام للكثير من الكتاب والمفكرين، منهم من تبعه خطوة بخطوة مثل بعض الكتاب المتطرفين للمركزية الاستعمارية، ومنهم من حاول أن يجدد أو يعيد الصياغة مثل راندو وزملائه في المدرسة الجزائرية، ومنهم من وسع المشروع ليعطيه صبغة كونية تغطي نوعا ما كولونياليته مثل كامى وزملائه في مدرسة الجزائر العاصمة.

مما استنتجناه خلال بحثنا عن مصادر ومراجع هذا البحث، وجود دراسات لا تعد ولا تحصى عن من قبل برتران ومن بعده، وعن معاصريه أيضا، أما عنه هو فلم نجد إلا النزر اليسير، وإن وجدنا فهي فصل من فصول كتاب أو مجرد مقال في مجلة. ثم إذا وجدنا دراسة رأيناها تركز على التاريخ الروماني وآثاره وإسهامه في إحيائها. ولقد أثبتنا في عملنا هذا أن اللاتينية والمسيحية لم تكونا بالنسبة إليه إلا وسائل ومرحلة من المراحل التي مر بها مشروعه الكولونيالي.

يعني هذا أن هناك تغيبا متعمدا لهذا الكاتب، وهناك سبب معروف ومذكور، حتى في حياة الكاتب، وهو إعجابه بهتلر، وتقرب الإدارة النازية منه من أجل نشر الكتاب الذي ألفه عن زعيمها، وقد استمات تلميذه مورييس ريكور حينها في دفع تهمة العمالة عنه.

هناك في نظرنا سبب آخر لتغيبه، وهو بالذات السبب الذي يعطي كل الأهمية لدراسته، وهو وضوحه في عرض المشروع الكولونيالي وصراحته في طرح خطوته الكبرى وتفاصيله مهما بدت عنصرية ومهما كانت معارضةً لسياسة باريس، كما أنه لخص عناصر الإيديولوجيا الكولونيالية التي قد يشق علينا البحث عنها في نصوص

كثيرة ومتعددة تستعمل لتغطيتها ولتسويقها وسائل عديدة، برتران قدمها على شكل نقاط توفر علينا الكثير من الجهد وتسهل علينا التعرف عليها في أي خطاب، بما في ذلك الخطاب السياسي المعاصر.

الخطابات التي يلقيها اليوم الإعلاميون والمفكرون والوزراء الفرنسيون، من معادات للإسلام، واستحالة إدماج ذوي الثقافة والديانة الإسلامية والأصول المغاربية العربية في المجتمع اللاتكي، وإيهام المتقنين من بلادنا بأنهم متحررون عندما يتبنون خطابا معيناً، لن يعيننا على فهمها وربطها بالمشروع الإمبريالي الاستغلالي، أفضل من لوي برتران.

بقيت مواقف برتران ثابتة وورثها لغيره كما هي، ثم تصرف فيها من بعده كل حسب توجهه، موقفه من الإسلام : دين التطرف، والعدو الأبدي لحضارة لا قبل له بها، ولا يتردد في وصف الصراع معه على أنه حرب صليبية ؛ وموقفه من المسلمين : كسالى وخبيثون، لا يضعون سلاحهم الموجه ضد الأوروبي المتحضر إلا إذا عجزوا عن حمله، وهم غير قابلين للخروج من هذا التخلّف وهذه العدائية ولو ظهر منهم غيرها لكان ذلك نفاقاً وخديعة، يقول ذلك بكل صراحة في كلامه مثلاً عن الأمير عبد القادر وعن الكاتب عبد القادر حاج حمو.

وكذلك موقفه من الاستعمار، لم تكن شرعيته تقبل أدنى تساؤل أو نقاش، وإضافة إلى النظريات العرقية التي بنى من قبله حجاجهم عليها ولم يتخلّ هو عنها، أي أن سكان المستعمرة عرق أدنى غير قابل للتحضر وغير قادر على استغلال الثروات التي بين يديه فكان على العرق الأسمى العمل عنه وإخضاعه ليعضمن الاستغلال -لأنه يمتلك وسائله- الصحيح للثروات، أضاف برتران الحجة التاريخية، وهي الحضور القديم الذي توثقه الكتابات والصروح المشيدة لروما المسيحية في شمال إفريقيا، فالأرض تعود لوريثتها الشرعية : فرنسا.

عداؤه للاشتراكية ولل فلسفة الإنسانية، وللجمهورية كان أيضا واضحا، لم يكن لدى برتران أي حرج في التصريح بكونه ناطقا باسم الملكية وباسم البورجوازية، التي يتوقف وجودها وبقاؤها على استمرار الاستغلال الرأسمالي، ولو كان ذلك على حساب حقوق الإنسان، لا بد على الدولة أن تضع التفلسف والضمير جانبا وتتعامل مع مشاكلها بواقعية وبحزم، وهذا ما يتجلى من خلال مصير ميشال في رواية لا سينا، فكرة أكدها برتران في مقالاته السياسية والنقدية مرات ومرات.

يفضح برتران بمواقفه حقيقة فرنسا، الجمهورية المبنية على العدالة والحرية وحقوق الإنسان، بموافقته لنييتشه في الكلام عن منطق القوة والتقاءه مع هتلر في اعتمادهما على نفس المصدر (نظريات العرق)، تبين تحليلاته للسياسات الفرنسية أن الكثير منها مبني على هذه القاعدة، خاصة فيما يتعلق بالمستعمرات، وينتقد هو من هذه السياسات كل ما يخرج عن هذا الإطار، إطار القوة وسمو العرق.

نفس الملاحظة نجدها في القضية الدينية، فكما أن فرنسا الاستعمارية كانت نازية في ثوب إنساني، والعداوة مع النازية لم تكن فكرية وعقدية بقدر ما كانت صراع مصالح ونفوذ، فإن الموقف من اليهود ومن الصهيونية كان كذلك. يصرح برتران بالعداء للصهيونية ولل يهود وللماسونية، لكن فكرة العودة إلى الأرض المسيحية وجعل ذلك عقيدة وربطه بالتضحيات تشبه كثيرا عقيدة العودة إلى أرض الأجداد عند الصهيونية.

يؤكد هذا التشابه بين الاستعمار الفرنسي والصهيونية ما حدث بعد ذلك، عندما استغلت هذه الأخيرة الديانة اليهودية لإعمار الأراضي المحتلة بيهود من مختلف الجنسيات، وإقناعهم بالهجرة إليها، مثلما استغلت الإدارة الاستعمارية الفرنسية الديانة المسيحية لاستقدام طاقات المهاجرين الشابة من جنوب أوروبا (إيطاليا، إسبانيا، مالطة، ...)، من أجل بناء المستعمرة وإعمارها.

ليس هذا فحسب، بل إن طريقة الاستغلال والاستيطان في الحالتين تكاد تكون متطابقة، إذ جعلت الدولة العلمانية التي يسيطر عليها رأس المال، أناسا يكّدون ويضحون في سبيل مصالحها باسم الدين، بمباركة الكنيسة في الحالة الأولى ومباركة الحاخامات في الحالة الثانية، وكما جعلتهم يحاربون أناسا لقننتهم المؤسسة الدينية عداوتهم ووجوب محاربتهم أينما كانوا.

إن إيهام الذوات أنها حرة هو تمهيد لاستغلالها، هذا ما فعله برتران في نظرنا، أنه أوهم أوروبيي الجزائر بأنهم أحرار، وهم في الحقيقة تحت هيمنة الإدارة الاستعمارية وفي خدمة مصالحها، فكانت كتاباته ومحاضراته وسيلة إيديولوجية للاستغلال المادي. وما زالت هذه الطريقة منتهجة إلى يومنا هذا وقد ذكرنا عرضا في السطور السابقة مثال فئة من المثقفين في بلادنا أو المستعمرات السابقة عموما.

هذا هو لب مشروع لوي برتران، فقد وظف كل ما أوتي من فكر وبلاغة من أجل أن يحول العلاقة النفعية والمصلحة التطبيقية إلى قضية دم وعلاقة دينية وتاريخية.

من أهم ما يمكن ذكره أيضا في أهمية أعمال لوي برتران، ويشاركه في هذا غيره من كتاب الحقبة الاستعمارية، هو قيمتها كوثيقة تاريخية، خاصة تلك التي تنقل حركة الشارع والرأي العام وتصفها، يجدر بمؤرخي الجزائر وأدبها أن يعودوا إليها، فمن شأنها أن تنيرنا في الكثير من قضايا المجتمع وسلوكاته، ومن الممارسات الإدارية والسياسية. وما يعطي الأعمال البرتراندية أهميتها هو انطلاقها من الواقع المعاش، الذي عاشه الكاتب بنفسه.

نذكر في هذا السياق وصفه لتركيبية المجتمع الأوروبي ولعلاقات أفرادهم ببعضهم البعض ولعلاقاتهم مع العربي، وهو ما فعله علماء الاجتماع لكن برتران نقل لنا مشاعرهم،

نقله للأزمة اليهودية في 1898، ووصفه للأوضاع التي آلت إليها بعض دول المشرق ومجتمعاتها، وحتى لبعض الدول الأوروبية مثل إسبانيا وإيطاليا وألمانيا ...

نقول هذا دون أن ننسى أنه من أقوى رسامي البورتريه الخرافي، للمستعمر والمستعمر، القوة والفحولة والحضارة مقابل الوهن والعجز والتخلف، تلك الخرافة التي تجعلنا نسمع من الضفتين، فرنسا والجزائر، تلك العبارة المشؤومة : كانت الجزائر في زمن الاستعمار أفضل مما هي عليه اليوم.

هذه الخرافة الاستعمارية التي كانت في البداية نظرة ملقاة باتجاه المستعمر، تهدف إلى تهدئة ضمير المستعمر. غير أنها تحولت بنفس الدافع -الذي تحول إلى جشع ونهم- إلى تصرفات فعلية، إلى سلوكات فاعلة ومنشئة، منشئة لواقع لا زلنا نعيشه إلى اليوم.

لقد صنع الاستعمار مستعمرين، مثلما صنع مستعمرين، ولا زالت علاقة الجزائريين أفرادا وجماعات، مثقفين أو أناسا عاديين، سياسيين أو مسوسين، بالتاريخ الاستعماري وبالثقافة واللغة الفرنسية علاقة شائكة يشوبها الكثير من الغموض والتناقض، تناقض يعلمه كل جزائري بين الخطاب وبين السلوك. هي ظواهر كثيرة لا زالت تحتاج إلى فهم وتحليل، بعيدا عن التوزيع العشوائي لشهادات الوطنية أو الخيانة، ولسنا نهون من الشأن ولكن لا بد أن نكون على بينة من أمرنا لنلا نظلم.

من أجل ذلك، نحن نرى أن قراءة أعمال برتران محطة ضرورية لا بد من الوقوف عندها إذا ما أردنا قراءة وفهم الأدب الذي كتب خلال الفترة الاستعمارية، كتب من طرف أوروبيي الجزائر أو من الميتروبول أو حتى من طرف الجزائريين، وهو الأدب الذي من شأنه أن يعطينا إجابات عن بعض المعضلات الفكرية التي نعيشها، بل وإذا أردنا فهم السلوكات والمواقف السياسية الفرنسية، في الخارج مع الجزائر وغيرها من المستعمرات السابقة، وفي الداخل مع الجاليات القادمة من هذه البلدان، خاصة مع المسلمين.

خاصة إذا علمنا أن هذا الأدب لم ينل النصيب الذي يستحق من الدراسة، خاصة من الجانب الجزائري، بل إن التاريخ الاستعماري الفرنسي لا يزال -كما ذكرنا في ثنايا بحثنا- جله في خزائن الأرشيف، فنرجو أن يكون عملنا هذا فتحة لنافذة على هذا التاريخ وإسهاما في بناء الوعي الذي لا يمكن دونه أن نتحرر، وهي المرحلة الضرورية من أجل الشروع في بناء الحضارة على أسس متينة.

قائمة المصادر والمراجع

1-BERTRAND Louis, *Autour de Saint Augustin*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1921.

2-BERTRAND Louis, *Devant l'Islam*, Librairie Plon, Paris, 1926.

3-BERTRAND Louis, *Flaubert à Paris ou le mort-vivant*, Bernard Grasset, Paris, 1921.

4-BERTRAND Louis, *Gustave Flaubert et Fragments inédits*, Ollendorff, Paris.

5-BERTRAND Louis, *Hitler*, translation by Dan Desjardins, Bloomington, Indiana, 2005.

6-BERTRAND Louis, *Ma Lorraine*, A. Delpeuch, Paris, 1926.

7-BERTRAND Louis, *La concession de Madame Petitgand*, ed Arthème FAYARD et Cie, Paris, 1912

8-BERTRAND Louis, *La fin du classicisme et le retour de l'antique*, Librairie Hachette, Paris 1897.

9-BERTRAND Louis, *La Cina*, cinquième édition, Ollendorf, Paris, 1901.

10-BERTRAND Louis, *Une destinée II, la nouvelle éducation sentimentale*, Plon, Paris, 1928.

11-BERTRAND Louis, *Le jardin de la mort*, Ollendorff, Paris, 1905.

12-BERTRAND Louis, *Le rival du Don Juan*, Ollendorf, Paris, 1903.

13-BERTRAND Louis, *le roman de la conquête 1830*, ed Arthème FAYARD et Cie, Paris, 1930.

14-BERTRAND Louis, *Le sang des races*, septième édition, Ollendorff, Paris.

15-BERTRAND Louis, *Le sens de l'ennemi*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1917.

16-BERTRAND Louis, *Les villes d'or*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1921.

17-BERTRAND Louis, *L'infante*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1920

18-BERTRAND Louis, *L'invasion*, Nelson, Paris,

19-BERTRAND Louis, *Mademoiselle de Jessincourt*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1911.

21- BERTRAND Louis, *Ma lorraine*, A.Delpeuch, Paris, 1926.

22-BERTRAND Louis, *Pépète le bien aimé*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1919.

23-BERTRAND Louis, *Saint Augustin*, Arthème Fayard et Cie Editeurs, Paris, 1913.

24-BERTRAND Louis, *Sanguis Martyrum*, Maison Alfred Mama et fils, Tours, 1918.

25-BERTRAND Louis, *Une Destinée : Jérusalem*, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1939.

26-BERTRAND Louis, *Une Destinée, La nouvelle éducation sentimentale*, Plon, Paris, 1928.

27-BERTRAND Louis, *Une destinée : Sur les routes du sud*, 4^{ème} édition, A.Fayard, Paris, 1936.

المراجع باللغة العربية

- 1-العروي عبد الله ، "مفهوم الإيديولوجيا"، ط 8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012.
- 2-الهرماسي صالح، "مقاربة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر"، دار الفكر، دمشق، 2001.
- 3-بن بوعزيز وحيد، "جدل الثقافة: مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية"، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018.
- 4-بن نبي مالك، "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، دار الفكر، دمشق، 2001.
- بن نبي مالك، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، دار الفكر، دمشق، 2009.
- 5-جغلول عبد القادر، "الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر"، ترجمة : سليم قسطون، دار الحداثة، لبنان، 1974.
- 6-حماميد حسينة، "المستوطنون الأوروبيون والثورة الجزائرية"، منشورات الحبر، الجزائر، 2007.
- 7-ريكور بول، "محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا"، تحرير وتقديم : جورج هـ. تيلور، ترجمة : فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2002.
- 8-سيلفيان أغاسانسكي، "نقد المركزية حدث الآخر"، ترجمة : منذر عياشي، دار نينوى، دمشق، 2014.
- 9-سعيد إدوارد، "الثقافة والإمبريالية"، ترجمة : كمال أبو ديب، ط 4، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2014.
- 10-ماركس كارل وأنجلز فريديريك، "الإيديولوجية الألمانية"، ترجمة : فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا، 1976.

- 11-مانهايم كارل، "الإيديولوجيا واليوتوبيا : مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة"، ترجمة : محمد رجا الدين، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980.
- 12-منور أحمد، "أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر، 2013.

1-AUDISIO Gabriel, *Cagayous. Ses meilleures histoires*, Gallimard, Paris, 1931.

2-BELAMRI Rabah, *Louis BERTRAND, Miroir de l'idéologie coloniale*, OPU, Alger, 1980.

3-BOSSUET, *Discours sur l'Histoire de l'univers*,

4-BOURDIEU Pierre, *Sociologie de l'Algérie*, coll Que sais-je, PUF, Vandome, 1958.

5-CABANES Jean-Louis et SAIDAH Jean-Pierre, *La Fantaisie post-romantique*, Presses Universitaires du Mirail, Toulouse, 2003.

6-CALMES Alain, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, L'Harmattan, Paris, 1984.

7-COQUERY-VIDROVITCH Catherine, *Enjeux politiques de l'histoire coloniale*, Agone, Marseille, 2009.

8-CRISTOPHE Paul, *1939-1940 Les catholique et la guerre*, Les éditions Ouvrières, Paris, 1989.

9-DAUDET Alphonse, *Récits et nouvelles d'Algérie*, présentation de Jean Déjeux, La boîte à documents, 1990,

10-DEJEUX Jean, *La littérature algérienne contemporaine*, coll : Que sais-je ?, PUF, Paris, 1975.

11-DE TASSY Laugier, *Histoire du royaume d'Alger*, ...

12-DUPUY Aimé, *l'Algérie dans les lettres d'expression française*, Editions universitaires, Paris, 1956.

13-ELADAN Jacques, *Choc ou dialogue de cultures dans la littérature française et dans la conscience juive*, Editions de Courcelle, Paris, 2007.

14- FANON Frantz, *Les damnés de la terre*, ENAG éditions, Alger, 1987.

15-GOBINEAU Arthur, *Essai sur l'inégalité des races humaines*, in *Œuvres*, bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, 1983.

16-HUGO Victor, *Choses vues*, G. Charpentier éditeurs, Paris, 1888.

17-JOUE Vincent, *La Poétique du Roman*,

18-LE BON Gustave, *Psychologie des Foules*, coll : les livres qui ont changé le monde, Flammarion, Paris, 2009.

19-MANNONI Pierre, *Les Français d'Algérie : vie, mœurs, mentalités*, L'Harmattan, Paris, 1993.

- 20–MAUGENDRE L.–A, *La renaissance catholique au début du XX^e siècle*, Editions Beauchesne, Paris, 1971.
- 21–MEMMI Albert, *Portrait du colonisé précédé de portrait du colonisateur*, préface de : Jean Paul Sartre, bibliothèque Payot, Paris, 1973.
- 22–MICHELET Jules, *La bible de l'humanité*, F. Chamerot libraire–éditeur, Paris, 1864.
- 23–MONTAIGNE, *Essais*,
- 24–MONTESQUIEU, *De l'esprit des lois*, Livre XV, Chap. V,
- 25–MORNET Daniel, *Histoire de la littérature et de la pensée française contemporaine 1870–1934*, Larousse, Paris, s.d.
- 26–PERREAU PRADIER Pierre et BESSON Maurice, *L'Afrique du nord et la guerre*, Librairie Félix Alcan, Paris, 1918.
- 27–PEYSSONNAL et DESFONTAINES, *Voyages Dans les régences de Tunis et d'Alger*, Librairies de Gide, 1838.
- 28–RENAN Ernest, *Histoire générale des langues sémitiques*, in *Œuvres complètes*, VIII, Calmann–Lévy, 1958.
- 29–RICORD Maurice, *Louis Bertrand l'Africain*, 2^e édition, A.Fayard, Paris, 1947.
- 30–RUSCIO Alain, *Nostalgie : l'interminable histoire de l'OAS*, Hibr Editions, Algérie, 2016.
- 31–SAID W–Edward, *Culture et impérialisme*, Apic, Alger, 2010.

32–SAINT–ARNAUD, *Lettres du Maréchal de Saint–Arnaud*, Tome premier, Michel Lévy Frères, Paris, 1858.

33–Sarfati Georges–Elia, *Eléments d’analyse du discours*, 2^o édition, Armand–Colin, Paris, 2005.

34–STORA Benjamin, *Histoire de l’Algérie coloniale*, Hibr éditions, Alger, 2012.

35–STORA Benjamin, *Les Mémoires dangereuse suivi de Transfert d’une Mémoire*, Hibr Editions, Algérie, 2016.

36–TODOROV Tzvetan, *Nous et les autres : réflexion française sur la diversité*, Seuil, Paris, 2008.

37–TOQUEVILLE Alexis de, *Œuvres complètes*, Tome 8, Michel Lévy Frères, Paris, 1865.

38–VALETTE Bernard, *le roman : Initiation aux méthodes et aux techniques modernes d’analyse littéraire*, Nathan Université, Paris, 2000.

1-BERTRAND Louis, *Louis Bertrand et l'Algérie*, in *Annales Africaines*, Année 38-Numéro 37, 10 septembre 1926.

2-BERTRAND Louis, *Goethe et le Germanisme*, In la *Revue des deux mondes*, LXXXV° Année, Sixième période, Tome vingt-sixième, Paris, 1 Mars 1915.

3-BERTRAND Louis, *Nietzsche et la guerre*, In la *Revue des deux mondes*, LXXXIV° Année, Sixième période, Tome vingt-quatrième, Paris, 1 Novembre 1914.

4-BERTRAND Louis, *Nietzsche et la Méditerranée*, In la *Revue des deux mondes*, LXXXIV° Année, Sixième période, Tome vingt-cinquième, Paris, 1 Janvier 1915.

5-BERTRAND Louis, *Vers l'unité latine*, In la *Revue des deux mondes*,

6-BOIDIN Carole, *La voie du retour ? le modèle de l'Ane d'or dans le mythe de l'Algérie latine chez Louis Bertrand*, in *Recherches et travaux*, UGA/ Université Grenoble Alpes, 81 / 2012.

7-Bourdieu Pierre, *Stratégies de reproduction et modes de domination*, in : *Actes de la recherche en sciences sociales*, Vol. 105, Décembre 1994.

8-CABANES Jean-Louis et SAIDAH Jean-Pierre, *La Fantaisie post-romantique*, Presses Universitaires du Mirail, Toulouse, 2003, p 277-278.

9-Dejob Charles, *La défense de Mazagran dans la littérature et les arts du dessin*, in *Revue d'histoire littéraire de la France*, Année 19, Armand Collin, Paris, 1912, pages 318-340.

10-DRIDI Hédi et MEZZOLANI ANDREOSE Abtonella, « *Ranimer les ruines* » : *l'archéologie dans l'Afrique latine de Louis Bertrand*, *Les nouvelles de l'archéologie*, n 128, 2012.

11-EMERIT Marcel, *La légende de Léon Roches*, in *La revue Africaine*, n° 91, OPU, Alger, 1947, pages 81 – 105.

12-EMERIT Marcel, *Le Mystère Yusuf*, in *La revue Africaine*, n° 430-431, Institut de Géographie, Alger, 1952, page 385.

13-EMERIT Marcel, *Les aventures de Thédenat, esclave et ministre d'un bey d'Afrique aux XVIII^e siècle*, in *Revue Africaine*, 1948, t. 92.

14-ESQUIER Gabriel, *Les poètes de l'expédition d'Alger : la Bacriade de Barthélémy et Méry*, in *Revue Africaine*, Volume 60, Année 1919, Jourdain Librairie, Alger, p 116-117.

15-HENRY Jean-Robert, *Quelques remarques sur le roman colonial*, in *Cahiers de littérature Générale et Comparée*, N° 5 automne 1981.

16–HENRY Jean–Robert et F. Henry–Lorcerie, *Roman colonial et Idéologie coloniale en Algérie*, in « Revue algérienne des sciences juridiques, économiques et politiques », Volume XI, n° 1, Alger, Mars 1974.

17– HENRY PAGEAUX Daniel, *Aspects culturels des relations franco–espagnoles au VXIII^e siècle*, in Etudes littéraires, Volume 2, Numéro 1, Avril 1969.

18–JAVELINE, *Littérature et grosse caisse*, in « Annales Africaines », Année 34–Numéro 12, 23 Mars 1922.

20–SIBLOT Paul, *Cagayous Antijuif : un discours colonial en proie à la racisation*, in Mots, n°15, octobre 1987.

المعاجم والقواميس باللغة العربية

1- طوني بينيت ولورانس روزنبيرغ وميغان موريس، "مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع"، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.

2- شوفالييه ستيفان وشوفيري كريستيان، "معجم بورديو"، تر : الزهرة إبراهيم، دار الجزائر، الجزائر، 2013.

المعاجم والقواميس باللغة الفرنسية

1-POUILLON François, *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, éditions Karthala, Paris, 2008. Pages 104.

2-Le Petit Robert, «Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française », Rédaction dirigée par A.Rey et J. Rey-Debove, 1998.

الأطروحات والرسائل الجامعية

Nacer Khellouz, *Le roman algérien de l'entre-deux-guerres à l'épreuve du politique*, thèse présentée pour l'obtention du doctorat en philosophie, Université de Pittsburg, 2007.

فهرس المحتويات

مقدمة	أ
مدخل : في الإيديولوجيا	15
الفصل الأول : صورة الآخر في الأدب الفرنسي قبل الجزائر	37
1. مونتاني وأكلو لحوم البشر	40
2. المركزية المسيحية في القرن السابع عشر	44
3. خرافة المتوحش الطيب	50
4. سلم ترتيب الثقافات	59
الفصل الثاني : صورة الجزائر في الأدب الفرنسي قبل احتلال الجزائر وبعده	76
1. قبل القرن التاسع عشر	77
2. بداية القرن التاسع عشر واحتلال الجزائر	85
3. من الاحتلال إلى استقلال إدارة المستعمرة عن الميتروبول	89
4. كتاب الميتروبول الكبار واحتلال الجزائر	96
5. الكتاب الذين زاروا الجزائر خلال فترة الحكم العسكري	102
6. ظهور التيارات الجديدة في المستعمرة	114
الفصل الثالث : ميلاد تيار أدبي وفكري جديد في الجزائر المستعمرة	119
1. السياق السياسي والاجتماعي لبروز التيار الجديد	119
2. أدب جديد لمجتمع جديد	133
3. لوي برتران قبل الجزائر: ضرورة البعث الروحي	149
الفصل الرابع : مرحلة تشرب العقلية الكولونيالية (1890-1905)	163
1. من التعبير التلقائي إلى المشروع الكولونيالي	163
2. الكنيسة والمشروع البرتراندي	188
3. لوي برتران والنظرية اللاتينية أو رومنة شمال إفريقيا	201
الفصل الخامس : مرحلة تبلور المشروع والدعوة إليه (1905-1917)	216

1.	لوي برتران، الوجه الجديد للأدب الكولونيالي	216
2.	الجزائري في نصوص لوي برتران	235
3.	صورة اليهود والأزمة اليهودية	253
	الفصل السادس: مرحلة الذروة وتعميم النظرية (1917-1935)	263
1.	لوي برتران وتشكل الثقافة الكولونيالية، مرحلة غزو الوعي	263
2.	العدو الجديد والوحدة اللاتينية الكبرى	278
3.	بعث الأمة الفرنسية من جديد	288
	خاتمة	308
	قائمة المصادر والمراجع	316
	الملخص	330

الملخص

تهدف هذه الأطروحة الموسومة بالمشروع الكولونيالي الجزائري في الأدب الفرنسي في بداية القرن العشرين : قراءة في أعمال لوي برتران، إلى فتح مجال لا زال إلى يومنا هذا مغلقا عند المتخصصين فضلا عن الجمهور من القراء، وهذا لاعتبارات عديدة سياسية خاصة، مجال الأدب الكولونيالي الذي اخترنا منه نموذج المدرسة الجزائرية، مدرسة أدبية وفكرية أرادت أن يكون للجزائر المستعمرة أدب خاص بها، ينقل إنجازات المعمرين فيها ويعبر عن همومهم وآمالهم. وقد أردنا تناول الموضوع من نقطة البداية التي تمثلت في الكاتب لوي برتران، الذي يوصف بالأب الروحي للجزائرية، فتطرقنا إلى كتاباته المختلفة في أشكالها من رواية إلى رسائل فلسفية وكتابات نقدية ومقالات صحفية، ... والمتنوعة في مواضيعها، لكنها موحدة في غايتها : تثبيت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية وإعادة الحياة إلى فرنسا الملكية البورجوازية. انطلقت قراءتنا لأعمال برتران، من تطور النظرة إلى الآخر في الفكر الفرنسي من عصر النهضة إلى احتلال الجزائر، لتنتقل إلى تحليل للتركيبة الاجتماعية في الجزائر المستعمرة، لتنتقل إلى كتاباته التي قسمناها بحسب الفترة وفي كل فترة بحسب الموضوع، محاولين من خلال هذه الخطة أن نكشف الإيديولوجيا التي حركت أعمال هذا الكاتب، ونكشف بالتالي مدى تأثير هذه الإيديولوجيا على الخطاب الاستعماري في تلك الفترة، وعلى الخطاب السياسي والأدبي والسلوك الاجتماعي اليوم.

La présente thèse intitulée : « Le projet colonialiste algérieniste dans la littérature française du début du XX^e siècle : une lecture dans l'œuvre de Louis BERTRAND », vise à ouvrir un domaine qui demeure jusqu'à nos jours fermé aux spécialistes, ainsi qu'au grand public, et ce pour moult raisons, politiques en premier lieux. Il s'agit du domaine de la littérature colonialiste, dont nous avons isolé pour l'étude l'école algérieniste, école littéraire et intellectuelle œuvrant pour que l'Algérie coloniale puisse avoir une littérature propre à elle, susceptible de faire connaître ses exploits et d'exprimer les soucis et les espoirs de la société qui y vit. C'est un thème que nous avons voulu aborder par son point de départ : l'œuvre de Louis BERTRAND dit le père spirituel du courant algérieniste, nous l'avons abordé dans ses différentes formes : romans, essais, ouvrages critiques, articles de presse ... et dans la diversité de ses sujets ; les éléments d'une œuvre que la fin unit : asseoir la domination coloniale française et faire renaitre la grande France royaliste bourgeoise. Dans notre lecture, nous sommes partis de l'évolution du regard que la pensée et la philosophie française a porté sur l'autre, de la renaissance au XIX^e siècle, soit à la colonisation de l'Algérie dont nous avons par la suite la structure sociale après l'établissement d'une société européenne à part entière, pour arriver à lire l'œuvre de cet auteur dans l'objectif de dévoiler l'idéologie qui la met en mouvement, et dévoiler ainsi l'influence de cette idéologie sur le discours colonial de l'époque, et le discours politique et littéraire, ainsi que le comportement social actuels.